تاريخ القوقاز

بحث

عن اهمية بلاد القفقاس السياسية والحربية
وعن منشا أممها وشعوبها وقبائلها
وتاريخها الحربي من قديم الزمان

تأليف

المرحوم «مدحت جورنانوقه» يوسف عزت باشا أمير اللواء بالجيش
العثماني وعضو المجلس الملي الكبير بأنقرة

المطبوع باستنبول سنة «١٣٣٠» هـ «١٩١٢»

تعريب

المرحوم خوستوقه عبد الحميد غالب بك من اعيان القاهرة

«١٣٥٢» هـ «١٩٣٣» م

إيراد هذا الكتاب مخصص لمساعدة جمعية الاخاء الجركس.

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

المرحوم مه ت چوناتوقه يوسف عزت باشا

« مؤلف الكتاب »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسل الله

كلمة للمعرب

تأسست بمدينة القاهرة فى سنة ١٩٣٢ « جمعية الاخاء الجركسية » لنشر الثقافة والتعاون الأدبى والاجتماعى بين الجراكسة ولمساعدة الضعفاء والمحتاجين منهم . وغير ذلك من الأعمال الخيرية كما هو منصوص فى قانون الجمعية المصدق عليه من قبل الحكومة المصرية .

لقد كنا ننشد بعض الكتب التاريخية باللغة العربية تبحث تفصيلاً عن تاريخ الأمم القوقازية وشعوبها وعن أحوالها السياسية والاجتماعية ، وتتكلم على الدول والحكومات التى تولت حكمها قديماً وحديثاً ، لتكون فى متناول الشبيبة من أبناء الجراكسة بالبلاد العربية ، ليطلعوا على تاريخ أمتهم وتاريخ البلاد التى كانت موطناً لأجدادهم وآبائهم . فلم نوفق إلى ضالتنا المنشودة . ثم عثرنا على كتاب «تاريخ قفقاس» باللغة التركية تأليف المرحوم « مه ت » يوسف عزت باشا ، أمير اللواء بالجيش العثمانى وعضو المجلس الأعلى الوطنى بأنقرة المطبوع سنة ١٣٣٠ هجرية بالآستانة .

ولما كان الكتاب المذكور وفق ما كنا ننشده ووافياً بالغرض الذى نسعى إليه ، رأى حضرات إخوانى أن أقوم بترجمته الى اللغة العربية حتى تعم فائدته بين المتكلمين بلغة الضاد . فلم يسعنى سوى الاذعان لرأيهم ، وبدأت الترجمة فى فبراير سنة ١٩٣٣ وانتهيت منها فى يونيه سنة ١٩٣٣ .

وقد بذل المؤلف ــ رحمه الله ــ مجهوداً كبيراً فى جمع المعلومات المتفرقة ومراجعة المصادر التاريخيـة بلغات مختلفة من روسية وانكليزية وافرنسية وتركية ، واعتنى بتبويب الكتاب وتقسيمه ، وتوخى الصدق فى القول وفى تقرير الحقائق وتحقيق الوقائع والحوادث التاريخية ، شأنه فى ذلك شأن المؤرخين العدول .

وبالاجمــال فان كتاب « تاريخ قفقاس » الذى كان لى فخر ترجمته لنشره بين المتكلمين باللغة العربية له قيمته التاريخيـة فيما يتعلق بتاريخ القوقاز قديماً وحديثاً وسيكون مرجعاً مهماً لحضرات القراء الذين يريدون دراسة تاريخ الأمم القوقازية وشعوبها والبحث عن أحوال تلك الأمم السياسية والاجتماعية وعن عاداتها وتقاليدها القومية . جزى الله المؤلف الفاضل عن الأمة الجركسية أحسن الجزاء ، فقد أدى إليها أحسن الخدمات وبذل أصدق المجهودات فى تأليفه هذا الكتاب .

هــذا وإنى أرجو أن يتحقق أمل المؤلف فى أن يقوم من لهم دراية ومقدرة فى المسائل التاريخيـة بتكميل ما بدأه من الأبحاث العلمية التاريخية كما أرجو أن يقوم بعض جهابذة المؤرخين بوضع كتاب مفصل عن ملوك الجراكسة وسلاطينهم وأمرائهم الذين تولوا الحكم فى مصر وغيرها من البلاد الاسلامية وتدوين ما لهم من المفاخر العظيمة والمآثر الخالدة ، فان لهم من الأعمــال الجليلة والأيادى البيضاء ما هو جدير بأن يعتنى المؤرخون بتدوينها وجمعها ؟

« المعرب »

المرحوم عبد الحميد بك غالب
« معرب الكتاب »

فهرس تاريخ القفقاس

صفحة

ا — ب كلمة للمعرب

ج — و الفهرس

١ — ٦ مقدمة المؤلف

٧ — ٨ جغرافية القفقاس ـ الوطنيون والمستوطنون ومنطقة كل شعب منهم

٩ — ١٤ عدد السكان بناء على الاحصاءات التى اصطنعتها الروس ـ سلسلة جبال القفقاس وأنهارها المشهورة

١٥ — ١٦ الحكومات القديمة فى القفقاس ـ والحكومة الألبانية (القفقاسية) حكومة سوانتى

٢٠ — ٢٣ تاريخ الدولة الأرمنية القديمة (الكبرى)

٢٤ — ٢٥ انتشار الاسلام هناك ـ حكم العرب فى جنوب قفقاسيا

٢٨ — ٤٠ تاريخ الكرج (كرج : بمعنى مادون « كُر » فى لغة الچراكسة فتكون تسميتهم باسم النهر المعروف)

٤١ — ٤٧ الحكومة القارتالية بوسط بلاد الكرج ـ الحكومة الايراقلية

٤٨ — ٥٧ انقراض مملكة الكرج ـ ضم بلاد الكرج إلى الأملاك الروسية ـ الحكومة الإيمارتية ـ حكومة مكريل ـ قبائل « خوسور » و « پشاو »

٥٨ — ٦٤ تاريخ الچراكسة ـ ومصادر المؤلف فى ذلك ـ الفروض التى فرضها المؤرخون بشأن الچراكسة ـ وظهور الانسان الأول فى القفقاس

صفحة

٦٥ — ٧٦ منشأ الجركس (الآديغه) ـ تعليق فى أسماء جبل القفقاس والتحقيق فيها وفى (القبجق) و (الخزر) ـ النظريات المختلفة فى أصل الجركس ـ وأنسال البشر ـ وملاحظات مورجان

٧٧ — ٨٢ « شورانوغموقه » المؤرخ فى أصل الجراكسة ـ أصل كلمة چركس ـ تعليق وسرد الاختلافات فى أصل هـــذه الـكلمة ونقدها بمحك النظر الصحيح ـ وتفنيد مزاعم البستانى صاحب « دائرة المعارف » فى ذلك ـ وكون لفظ الجركس عند القدماء يعم القبائل الأربع القاطنين فى الجوانب الأربعة من الجبل ـ وتخصيص هذا اللفظ لفريق من سكان شمالى الجبل فيما بعد إنما كان من قبل الروس لغرض سياسى .

٨٣ — ١١١ إفاضة المصنف فى أن الجركس من الحيثيين ـ التاريخ القديم للآديغة ـ تاريخ الحيثيين فى الحـكم والحرب

١١٢ — ١١٨ كتابة الحيثيين وملابسهم وأسلحتهم ـ الأشوريون

١١٩ — ١٢٢ حيثيو الشمال (هيتيت القفقاس) ـ مهاجمة السيت للـكيمريين سكنة القفقاس ـ انشطار الـكيمريين ولجوء شطر منهم الى أعالى الجبـل والشطر الآخر الى وسط أوربا ـ تعليق على القبائل القديمة ـ والتدليل على أن الـكيمريين هم الحيثيون .

١٢٣ — ١٣٦ بقايا الـكيمريين فى أوربا ـ نظرة فى انكلترا وفرنسا وأوربا الوسطى ـ صلة ما بين ألبانيا القفقاس وألبانيا الأرنؤط ـ استعراض تاريخ روسيا

١٣٧ — ١٤٤ دور الفتح والتضخم للقفقاسيين ـ دور التقهقر والانحطاط ـ دور التيقظ والانتباه ـ دور الانقراض والزوال والخمود والركود .

صفحة

١٤٥ — ١٥٧ القبائل الجركسية فى عهد هيرودوت واسترابون — قبيلة أباظه ، أبزاخ ، آدمه ىْ ، بزه دوغ ، چيكت ، حاتوقواى ، چان ، شاپسيغ ، ناتخواج ، قبرداى ، أوبيخ .

١٥٨ — ١٦٨ اللغة الجركسية — فقه اللغة الجركسية — المخارج والأصوات — تركيب الكلمات — مقارنة اللغات الجركسية باللغات الأوربية .

١٦٩ — ١٧٣ تاريخ الآستين (الايرون) اللّان — وتمايق فى تحقيق أنهم قبيلة آص إحدى القبائل الأربع الجركسية — وتسمية جبل القوقاس باسمهم بمعنى جبل الآس — بل اسم القارة الأسيوية من هذا الاسم على تحقيق (دوبوادومون پرو) تلاعب الألسن باسم السكيت : السيت ، وتحقيق القول فى (الخزر) — اللّان والعلّان هم الآص .

١٧٤ — ١٩٩ طبقات شعب الأديغه — نظام الحكم عندهم — طريقة الانتخاب للرئيس الأعلى — المحاكم الشرعية — كلمة شيخ الصحافة « أحمدمدحت » فى نظامهم الاجتماعى وعده المثل الأعلى للمدينة الفاضلة .

٢٠٠ — ٢١٩ أخلاق الجراكسة — عاداتهم وتقاليدهم — مركز المرأة فى المجتمع — معتقداتهم فى القرون الأولى — دين النصرانية فيهم قبل البعثة المحمدية انتشار الاسلام بينهم سنة ٢٢ للهجرة — نشر الاسلام بين القبائل الجبلية التى كانت بقيت على الحالة الاولى .

٢٢٠ — ٢٤٣ أصول الحرب عند الجراكسة — الصناعات والأزياء عند الجراكسة — الموسيقى والأغانى والرقص عندهم — معارفهم وأمثالهم — نماذج من أمثالهم — التنقيب عن الآثار ببلاد الجراكسة .

صفحة

٢٢٤ — ٢٥٦ تاريخ القبائل ـ الچچن والـكرج والقوموق ـ أصول القبـائل الداغستانية ـ انزكى والاوار ـ الخاتمـة بقلم مؤلف الأصل ـ تاريخ البدء فى الترجمة والفراغ منها بقلم المعرب .

﴿ تم الفهرست ﴾

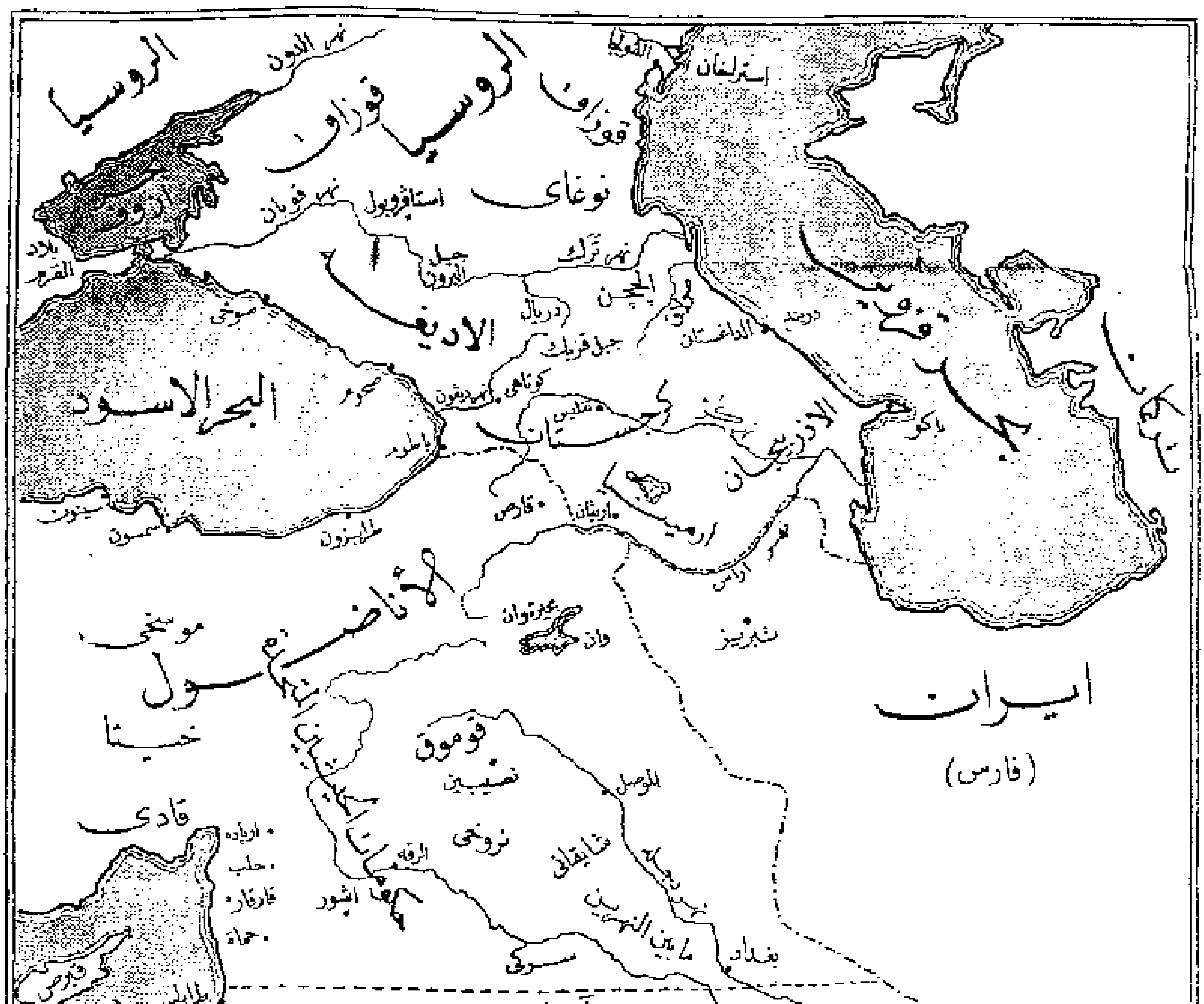
بلاد القوقاز
١ ـ خريطة تبين العالم الجغرافية القديمة والحديثة
٢ ـ خريطة تبين مواطن القبائل
كتاب "تاريخ القوقاز" سنة ١٩٤٠
(١)
(٢)
الروسيا
قوزاق
نوغاى
الاديغ
البحر الاسود
بحر قزوين
ايران
(فارس)
الاناضول
قادى
مآت ايردى
شاسو
استاڤروبول
الجچن
داغستان
ارمينيا
اذربيجان
استرلخان
باكو
بغداد
الموصل
تبريز
قارص
باطوم
صوخم
طرابزون
سينوب
سامسون
دمشق
بيروت
حلب
حماة
مصر
قبرص
تفليس
ابازه
ابزاخ
اوبيخ
شابسغ
قبرطاى
نهر قوبان
نهر ترك
جبل البروز

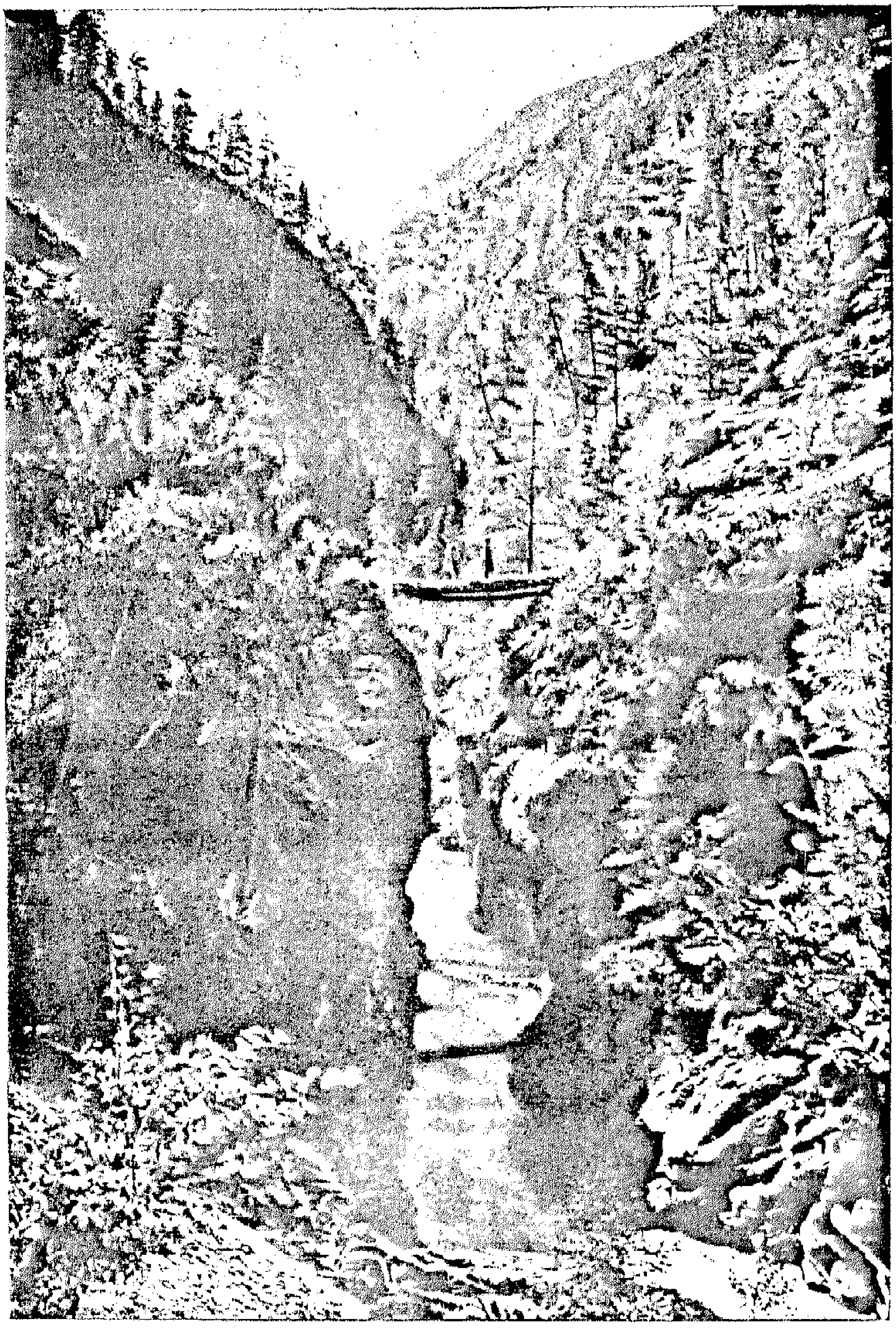

منظر أحد الوديان بجبال القوقاز

مقدمة

القوقاز

هذا الاقليم الجميل الذى عرف بأنه مصدر الجنس الأبيض ومهد الجمال البشرى الأمثل ، والذى عاشت فيه جماعات بشرية وقامت فيه حكومات من زمان بعيد يضيع مبتداه فى ظلمات العصور القديمة التى تقدمت الأزمنة التاريخية وتسيطرت على العالمين وغذتهم بمبادئ الرقى والتمدن . هذا الاقليم العظيم لم يُعن أحد ـ للأسف ـ بتدوين تاريخه المجيد ، كما ينبغى ، خصوصاً من رجال الشرق .

ولذلك أصبحت أحواله التاريخية والسياسية مجهولة بين الناس حتى من جيرانه العثمانيين .

ورغم هذا فقد كان لتلك البلاد من أقدم العصور علاقات وثيقة ببلاد آسيا وكانت حلقة الاتصال بين الشرق وبلدان أوروبا الوسطى والشمالية ، كما أن سكانها كان لهم شأن عظيم فى العلاقات المختلفة ، تجاريةً كانت أو سياسيةً ، بين الشرق والغرب .

وهى فى مركزها الجغرافى تشبه قنطرة عظيمة بين آسيا وأوروبا ، ويصح القول عنها أنها هى التى وضعت أهم أسس التمدين .

وكما كانت طريق المغيرين والفاتحين بين القارتين فانهـا كانت كذلك طبقاً للظروف ، سداً منيعاً وعقبة كأداء فى وجه الغاصبين .

وفى كلمة جامعة نقول ان تلك البلاد كانت تهيمن على كل ما كان يجرى بين الشرق والمغرب وهى رابضة فى أعالى سلسلة جبال القوقاز الشاهقة التى تقوم رافعة رأسها السماء رامية ببصرها الى الآفاق .

ومن المحقق أن بلاد القوقاز هى مهد ظهور الصناعات الحديدية

***

وان مركز القفقاس (القوقاز) الطبيعي وبسالة أهله كانا دائماً السبب الأكبر في حماية الدولة العثمانية وبلاد العجم من هجمات الروسيا وفى منعها من تنفيذ أغراضها وتوسعها على حساب الدولتين المذكورتين .

ورغم هذا فان هاتين الدولتين الاسلاميتين لم تحركا ساكنا لحماية سكان قفقاسيا الجراكسة أو مساعدتهم حينما هاجمتهم الجيوش الروسية وشرعت فى ابتلاعهم وضم بلادهم لأملاكها ليخلو لهـا الطريق للزحف الى الجنوب وبسط سلطانها على ساحل البحر الأبيض المتوسط . مع أن تنفيذ هذه السياسة من قبل الروسيا كان فيه تهديد لكيان هاتين الدولتين وخطر لا محالة محدق بهما .

فلو ساعدت تركيا وايران ، الجراكسة فى حروبهم التى كانوا يحافظون بها على استقلالهم ضد الروسيا لوجدتا منهم حصناً منيعاً وسداً محكما وعضداً مساعداً ضد عدوتهما الدائمة ذلك « الدب الأبيض » ثم لاستراح بالهما وحسن حالها .

ولكن أبت الدولتان على هـذه الأمة المجيدة كل مساعدة بل قد ضنتا عليها كذلك بالمساعدة الأدبية والفكرية .

ولم تفكر الدولتان فى شئ من هذا مع أن الظروف كانت ملائمة جداً ومثل هذه المساعدة كانت تجد تعضيداً عظيما فى « مؤتمر باريس» الذى عقد عقب حرب «القرم» اذ أن الدول كانت مهيئة لتعضيدها .

***

ولكن شاء ربك أن تمر هذه الفرصة دون فائدة . وأن تكون القفقاس ضحية لتنفيذ أطماع « بطرس الأكبر » الذى وضع أمام عينيه ضرورة الاستيلاء عليها إذ هى مفتاح الجنوب كما قدمنا ومن جهة أخرى فان من ملكها يسيطر على بحر الخزر ومنه ينفذ الى التركستان والهند وما حولها .

***

واستيلاء الروسيا على القفقاس كان ضربة موجهة بنوع خاص الى تركيا والعجم ومهدداً لكيانهما ، الأمر الذى نشاهد نتائجه فى أيامنا هذه(١) .

ومع ذلك سيجيء يوم تلعب فيه القفقاس دوراً هاماً فى سياسة أوروبا وآسيا خصوصاً اذا علمنا أن أوروبا أصبحت لها مصالح كثيرة فى آسيا ، أضف الى هذا ضيق أوروبا بسكانها وطموحها الى التوسع .

عندها ستتلاطم مصالح تلك القارات تحت أقدام تلك الجبال الشاهقة « البرز » و« قازبك » وسيتضح وقتئذ أهمية تلك البلاد ويظهر الملأ أنها كانت بحق جديرة بالعناية والالتفات .

***

واذا قارنا القفقاس ببلاد سويسرا لوجدنا أنها تكبرها باحدى عشرة مرة ويزيد سكانها عن سكان سويسرا خمسة أضعاف وانها ستكون يوماً ما سويسرا الشرق لما امتازت به من جمال الطبيعة وجلال التكوين . وبتدقيق النظر قليلا نجد أن عدد النازلين فيها من الأجانب يزداد تدريجياً خصوصا التتار والألمان .

***

واذا تأملنا أيضا فى صفات وتقاليد أهل البلاد لوجدناهم من أعرق الامم كرما وشجاعة ووطنية خصوصا الجراكسة والداغستانيين الذين طبق صيتهم الآفاق بأنهم أشجع شجعان الخافقين وأشدهم بأسا ومراسا وبهذه الصفات أمكنهم الثبات أمام أعدائهم والمغيرين على بلادهم وحافظوا على استقلالهم سنين عديدة وأجيالا كثيرة وبهذه الصفات شيدوا لهم أثرا من الفخر والاعجاب لا تمحوه السنون والعصور تتغنى به الامم والأقوام

وأقرب شاهد على ذلك مقاومتهم الاخيرة للروسيا فى عهد « الشيخ شامل »

(١) سنة ١٩١٢

الأمر الذى أثبت ما قدمنا من جهادهم الشريف ضد الغاصبين وثباتهم العجيب طوال السنين أمام قوات الروسيا الجارفة حتى تم الأمر ـ ويالللأسف ـ باحتلال بلادهم ولكن رغم هذا فان الأمر لم يستتب للروسيا لوقتنا هذا أمام مقاومة سكانه الأمجاد ولم يبت بصورة قطعية فى أمر تلك البلاد حتى ولا فى تكوين حكومتى « الأرمن » و « چورچيا » .

***

ولقد عرف عن أهل تلك البلاد مما دونه مؤرخو الانكليز والروس بأنهم أهل فن وتجارة ومال خصوصا « الكُرج » و « الأرمن » كما أن الچراكسة كانوا لا يقلون عنهم فى تلك المزايا لا سيما فى فن الحفر والرسم وصياغة المعادن وصناعة عدد الحروب وكانت صناعتهم هذه مضرب الأمثال .

غير أن القلاقل الدائمة والمحاربات المستمرة ودفاعهم الدائم عن كيانهم وحبهم البقاء تحت الشمس كل ذلك شغلهم عن الاستمرار فى اتقان تلك الفنون والصناعات وجعلت منهم شعبا خشنا صعب المراس وأمة ذات بأس شديد

***

ولقد غامرت الروسيا ضد هؤلاء الأمجاد مغامرات عسكرية هائلة كلفتها دماء غزيرة ومالا وافراً ووقتا طويلا

وهى لا تنسى أبداً ما لقيته من الصدمات العنيفة والهجمات الشديدة التى حطمت آمالها فاسقط فى يدها أمام بأس الچراكسة وصادق عزيمتهم . وانها حيال هذه الصفات الخالدة المجيدة وشجاعتهم التى لا تقاوم رأت أن تتخذ سبيل اللين وأن تتبع معهم سياسة التودد فاتخذت ملابسهم زيا لبعض فيالقها حتى أن الامبراطور (القيصر) نفسه كان يلبسها أحيانا وفى مناسبات كثيرة ، كذلك جعلت احدى مدرعاتها باسم (قانغوت) أحد ملوك الچراكسة وكل هـذا اكتسابا لودهم ومجاملة لهم .

***

وكذلك فان الحكومة العثمانية قد أقطعتهم بعض الأراضى ببلادها وأنزلت فيها مهاجريهم وكونت من هؤلاء المهاجرين (ألاى سوارى) أسمتـه (فتحيه) فكان زهرة الفرسان الخيالة فى الجيش التركى .

ولكن لسبب ما ألغت هذا الألاى ، ورغم ذلك فانها اتخذت أزياء الجراكسة وسروجهم المشهورة لبعض فرق من فرسان العشائر وهى باقية للآن .

كما أن السلطان « عبد الحميد الثانى » كان قد أصدر أمراً بتأليف لجنة لتكتب تاريخاً عن القفقاس ولكن للأسف المحزن أن هذه اللجنة انحلت قبل أن تبدأ عملها ولم يكتف بذلك بل شتت شمل أعضائها حتى أن بعضهم نفى من البلاد

***

وقد ذكر المرحوم سليمان توفيق بك أحد أعضاء اللجنة المذكورة فيما : - جريدة (غوازه) رقم ٤ : -

« ان المرحوم نامق كمال بك أشهر كتاب الترك وأدبائهم والذى لعب دوراً هاما فى الانقلاب العثمانى الأخير أبدى أسفه العميق وحزنه لما علم أن الجراكسة الذين كانوا فخر مقدمة الجيش العثمانى فى أول صدمة ضد الصرب فى حرب الروسيا ينقصهم تاريخ أنفسهم وبلادهم ومن أجل ذلك صمم وعزم على أن يتولى بنفسه كتابة تاريخهم المجيد » .

***

وتسهيلا لذلك قدمت له بعض المراجع التاريخية للاستناد عليها فى كتابه

ومما يثبت صدق عزيمته ونبل أخلاقه أنه ذيل بعضا من رسائلى التى كنت أكتبها طالبا فيها من بعض الامراء والعلماء الجراكسة بعض البيانات والوقائع لاثباتها فى كتابه بما يأتى :

« بقدر افتخارنا وتقديرنا همة وشجاعة الجراكسة وتحدثنا عن شمائلهم وبسالتهم فى ساحات القتال نأسف كذلك جد الأسف لعدم وجود تاريخ يضم فى طياته أخبار ماضيهم العسكرى المشرف »

وكان يميل رحمه الله دائما الى الاشادة بذكر القفقاسيين عامة وشجاعة الجراكسة خاصة ويكثر من المديح فيهم ، وكنت أزوره كثيراً تقديراً لهذه العواطف وأكن له احتراماً خاصاً فى نفسى ، وكانت لزيارتى الأخيرة عنده مكانتها اذ قدرها حق قدرها لانه كان معتقلا وقتئذ فى السجن العام .

***

ولمناسبة انعقاد المؤتمر الدولى بالاستانة قبيل الحرب الروسية الذى كان تحت رئاسة البرنس بسمارك تقدم الجراكسة بعريضة الى المؤتمر يطلبون فيها تقرير نوع الحكم لبلاد القفقاس فوجدوا فى المرحومين نامق كمال وضيا باشا خير عضد ومساعد فى تحرير وترتيب العريضة وتقديمها الى المؤتمر الأمر الذى دل على جليل مساعدتهما لهم

***

ومما يؤسف له حقاً ويدمى القلوب أن يطوى فى بطون الأيام والدهور تاريخ هذه البلاد ومجد أولئك الأقوام الذين أضاعوا استقلالهم وهاجروا من بلادهم وتشتتوا فى مختلف الممالك وتركوا وراءهم مفاخر آبائهم وأجدادهم حتى آثارهم وقبورهم

ولذلك وطدت العزم على اظهار ماخفى من تاريخ أمم القفقاس خصوصاً الجراكسة وبلادهم مستعيناً بمؤرخى الروس والفرنسيس والترك حتى أكون قد وفيت بعض الحقوق نحو قومى وعشيرتى . ولاستنهاض هِمم مؤرخى الترك لملء هذا الفراغ فى مؤلفات الامة العثمانية .

اسلامبول ـ المحرم سنة ١٣٢٩ — مه ت جوناتوقه عزت

القسم الاول

جغرافية القفقاس

أهالى البلاد الاصليون ــ الاهالى المستوطنون ــ المناطق التى يسكنونها
عدد السكان ــ الاديان

بحث عام عن القفقاس :

بناء على تقسيم الجغرافيين الروس ينقسم سكان القفقاس الى قسمين :

١ — السكان الأصليون

٢ — الأجانب

فأما السكان الأصليون فهم :

الجراكسة . الكُرْج . الداغستانيون . الچچن . القوصحة (أستين) والأرمن

وأما الأجانب فهم :

التتار . الترك . الروس . العجم . الألمان . اليهود . وغيرهم من الأجناس

واليك نظرة مجملة عن هؤلاء الأقوام مبتدئين بأهل الشمال

* * *

الچراكسة

هؤلاء يسكنون منطقتين كبيرتين فى شمالى القفقاس تعرف احداهما ببلاد الجركس الشمالية والأخرى ببلاد الجركس الجنوبية ذلك بالنسبة لموقعهما الجغرافى فيما بينهما

أما الشمالية فتتكون من حوض نهر « قوبان » وبعض سواحل البحر الاسود وأما الجنوبية فتتكون من حوض نهر « ترك » وتسمى أيضاً بلاد « القبردى »

الچچن

وقبائل الچچن تسكن المنطقة الكائنة فى شمالى القفقاس وشرقى بلاد الجركس وعلى الشواطئ الجنوبية لنهر ترك

اللزكى

واذا اتجهنا شرق بلاد الچچن [1] نحو ساحل بحر الخزر ونحو جبل « قازبك » الواقع شرقى سلسلة جبال القفقاس الأصلية نجد أن (اللزكى) يقطنون تلك المواقع المرتفعة الحصينة والسهول المحيطة بها .

القوصحه

أما القوصحة (استين) أو (آسه تين) فانهم يسكنون القسم الأوسط من سلسلة جبال القفقاس فى مرتفعاته المنيعة وقممه الشاهقة المعروفة بجبال «قازبك» و «البرز»

أما سكان الجنوب فهم :

الكرج

ويقطنون منطقة « تفليس » و « كوتايس »

(١) ويعد شمس الدين سامى بك صاحب « قاموس الاعلام » التركى أن الچچن من قبائل الجراكسة . وسيأتى تحقيق ذلك عند الكلام على الچچن للمؤلف (المعرب)

الارمن

ويسكنون أيضا فى « ليزاستپول » و « اريفان » بولاية تفليس

التتار

ويسكنون ساحل بحر الخزر بحوض نهر (كُر) بولاية باكوم (وكنجه) يعنى بولاية ليزاستپول

الروس

أما الروس فانهم يتفرقون فى شمـالى القفقاس وفى ولايات قوبان و ترك وقسم منهم يسكن الجنوب

* * *

عدد السكان

واعتماداً على بعض الاحصائيات الروسية (١) والمعلومات الأخرى نعلم أن عدد سكان القفقاس يربو على الاثنى عشر مليونا من الأنفس

وينقسمون حسب أصولهم كالآتى :

الروس	:	٠٠٠ر٧٢٠ر٣ منهم ٠٠٠ر٤٠٠ فى الجنوب
التتر	:	٠٠٠ر١٠٠ر٢ منهم ٠٠٠ر١٣١ فى الشمال
الكرج	:	٠٠٠ر٠٠٠ر٢ أغلبهم فى الجنوب

(١) هذه الاحصائيات موضع نظر .

الارمن	:	٠٠٠ر٥٠٠ر١ معظمهم فى الجنوب
لزكى (الداغستانيون)	:	٠٠٠ر٠٠٠ر١
الجركس	:	٠٠٠ر٦٠٠
القوصحة (استين)	:	٠٠٠ر٣٠٠
الچچن	:	٠٠٠ر٣٠٠
الترك	:	٠٠٠ر١٠٠
الكرد	:	٠٠٠ر١٠٠
اليهود	:	٠٠٠ر٦٠
الألمان	:	٠٠٠ر٥٠
الاجناس الأخرى	:	٠٠٠ر٤٠٠
		٠٠٠ر٢٣٠ر١٢

واستنادا على بعض المعلومات كان عدد الروس القاطنين ببلاد القفقاس لغـاية سنة ١٨٩٧ ٠٠٠ر٣٥٠ر٢ نفس فزادوا فى عشرين سنة مليونا ونصف مليون تقريباً

الأديان

المسلمون يكونون ثلث عدد السكان الذين يربو على الاثنى عشر مليونا والاقوام الذين يدينون بالاسلام هم الاتراك عامـة والتتار واللزكى والچچن والجركس والكرد و٠٠٠ر٢٠٠ من الكرج و ٠٠٠ر١٠٠ من الآستين . ويوجد عدد قليل من الأرمن يعتنقون الاسلام . كما أن قسما من قبيـلة « أباظه » يعتنقون النصرانية . أما اليهود فعددهم ٠٠٠ر٦٠ فقط . أما باقى السكان فانهم من النصارى

***

وسنذكر اجمـالا فيما يلى التاريخ الخاص بسكان القفقاس الأصليين . وسـيدور بحثنا على أصل منشئهم وعاداتهم وما وصلوا اليه من الرقى والتمدن .

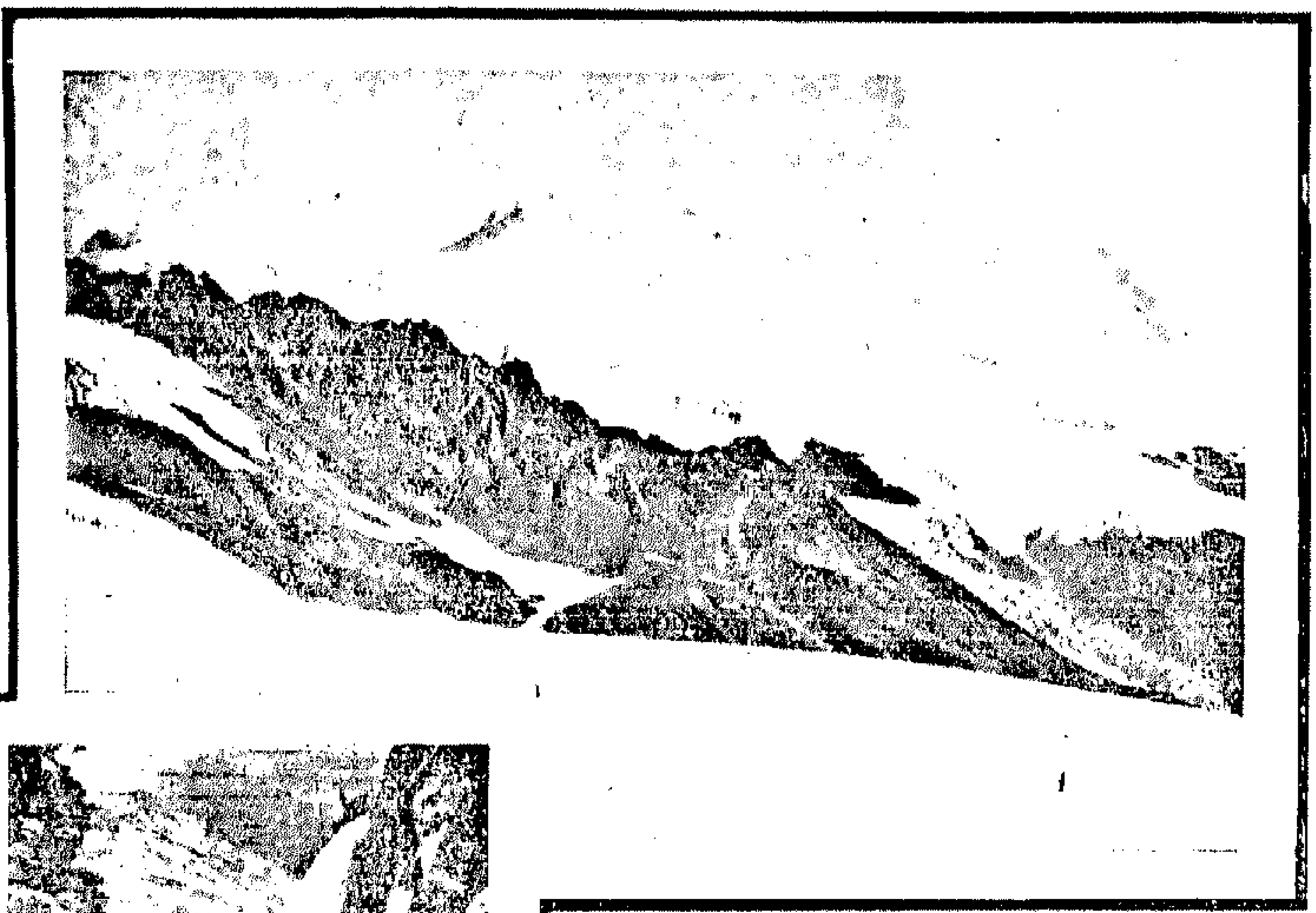

جبل « إلبروز » ارتفاعه ٥٦٢٨ مترا

شلال فى جبال القوقاز

جبال جاتجا بالقوقاز

وقد ذيلنا هذا الكتاب بخريطة تلك البلاد للرجوع اليها والاستعانه بها ومن أراد تفصيلا أكثر وبيانا أوضح عن منشأ سكان القفقاس ولغاتهم وأحوالهم وما الى ذلك فليرجع الى كتابى :

(قفقاسيه ليلرك منشأى وأحوال عموميه سى)

(منشأ القوقازيين وأحوالهم العامة)

جغرافية قفقاسيا

المنطقة التى يحدها شرقا بحر الخزر وغربا البحر الاسود (وتمتد بينهما سلسلة جبال القفقاس) وشمالا نهر (ترك) و (قوبان) وجنوبا نهرا (كر) و (ريون) تسمى قفقاسيا (القفقاس)

وتنقسم الى ثلاثة أقسام :

أولا – قسم سلسلة جبالى قفقاسيا

ثانيا – القسم الواقع شمال تلك السلسلة

ثالثا – القسم الواقع جنوبيها

وبعبارة أخرى يطلق اسم شمالى القفقاس على المنطقة الشمالية لسلسلة جبال قفقاسيا وجنوبى القفقاس على المنطقة الجنوبية لتلك السلسلة .

سلسلة جبال قفقاسيا

هذه السلسلة تمتد بين البحرين الاسود والخزر وطولها ١٢٠٠ كيلو متر وترتفع فى بعض قممها من ٣٠٠٠ الى ٥٠٠٠ مترا وأعلا جبالها جبل « البرز » اذ يبلغ ارتفاعه ٥٦٣٠ متراً وهو بلا شك أرفع جبال أوروبا .

وأهم جبالها (قوش تان تاو) و (شخارا) اللذين يبلغ ارتفاع كل منهما ٥٢٠٠ متر تقريباً كذلك جبل (قازبك) المشهور يرتفع ٥٠٤٤ متراً والجليد لاينقطع عن

قمم تلك الشاهقات أبداً ــ وفيها « ثلاجات » مشهورة منهـا ثلاجة « ماروخ » التى يبلغ طولها نحو كيلو مترين وعرضها كيلو متراً

وسلسلة جبال (بَافْسَنْ) مشهورة جداً وتشابه تماماً مثيلاتها فى جبال سويسرا

طبيعة سلسلة جبال قفقاسيا ــ أنهـا عالية من الشمال ومنحدرة الى الجنوب وقد عبّـد الروس الطريق الوحيـد المسمى « دريال [1] » الذى يخترق تلك الجبال فى وسـطها غير أن الثلج يغمره شتاءً ويتعذر فيـه المرور كما أن الاحراج الـكثيفة والغابات المخيفة تتخللها وتحيط بها .

نهر قوبان

هذا النهر ينبع من جبال « البرز » Elbrouz ويجرى جزؤه الأعلى وقسم من جزئه الأوسط فى واد ضيق ومجرى حجرى وطبيعة الباقى من مجراه فى قسمه الاوسط والادنى طينية ثم طينية رخوة وبعض أقسامه رملية .

وأما الاراضى المحيطة بمصبه فستنقعات كبيرة كانت فى وقت ما حداً فاصلا بين بلاد الجراكسة الشمالية وبلاد الروس (القوزاق) ويعرف هذا النهر عند الجراكسة باسم « بسيظ » (وحرف الظاء تنطق بين الزاى والجيم المعطشة)

نهر ترَك

ومن أهم أنهر شمالى القفقاس بعد قوبان ومنبعه من جبال « قازبك » و بعـد أن يخترق مضيق « دريال » يتجه شرقا الى اليمين ويصب فى بحر الخزر وقبل مصبه يتحول فى مجراه شرقا حتى يأخذ معه نهر (صونجا) بروافده وهذا الأخـير يلتوى مجراه عند ما يبدأ ذوبان الثلوج وترى على سطحه كتل من الثلج عائمة

---

(١) المعروف قديما (بباب اللان) (المعرب)

ويقطن فى منابع نهر ترك القوصحة (آستين) وعلى شواطئه الشمالية «النفاى» و« التتار » وفى جنوبيه « الچچن » ويشطر بلاد « القبردى » الى قسمين :

القبردى الكبرى والقبردى الصغرى ولشدة انحدار مجرى هذا النهر وقوة جريانه تشاهده يحمل الصخور والأحجار العظيمة معه وطالما طغى على ما حوله من البلاد وسبب فى أحيان كثيرة انقطاع المواصلات والمخابرات مع تفليس

نهر صولاق صو أو قوى صو

وهو من أهم أنهر بلاد الداغستان ويتكون من ثلاثة فروع :

١ ـ اندى قوى صو ومصدره بلاد كَانْ

٢ ـ اوار قوى صو

٣ ـ قره قوى صو

وهذا النهر ينحدر بقوة شديدة فى مجراه

نهر صومور

وهذا النهر أيضا معدود من أهم أنهر الداغستان ولارتفاع منبعه فى الجبال تراه شديد التيار والاندفاع حتى انه يصعب فى الصيف تعديته من أماكنه غير العميقة

* * *

ومن أهم أنهر القفقاس الجنوبية

نهر كُرْ

يتكون هذا النهر من نهرين عظيمين (١) نهر كر بالذات (اوكورا ميقوارى) (٢) ونهر أراس ـ نهر كر ينبع من جبال (جاليدير) ويمر بجهات اردهان (واخليكاك) وآخَسْخَة حتى يصل الى (صوارم) ماراً من مضيق (بورجوم) ومن هناك يتجه شرقا ويتصل بنهر (آراغوا) المار بوديان تفليس

ومن هناك يتجه الى الجنوب الشرقي آخذاً كثيراً من روافده ثم يعرج شمالا ويتصل بفرعين كبيرين : (بورا) و (الآزان) وبعد ذلك يندمج في فرع (آراس) المار ذكره ويصب في بحر الخزر .

ويسكن حول منابع هذا النهر وحوضه (القره باپاق)

كما أن الكرج والأرمن يسكنان ماحول (تفليس) و (ايلازابيت پول) وحول مصبه يقطن التتار

أما (المورغان) وأهالي (البترست كجوان) فيسكنون الجهات التي بجوار ايران

وفرع آراس السابق ذكره ينبع من جبل (بيك كول)[1] الكائن بالأراضي العثمانية ويجري حتى يدخل بلاد الروسيا ويلتقي بجملة روافد منها (اربه جاي) (وزانزا) المتفرع أصلا من نهر روان كما أنه يأخذ جملة روافد نابعة من جبال (قره باغ) الشاهقة ويتجه حتى المكان المعروف باسم (قره دون تي) الكائن بجبال (ارارات) المشهور وبذلك يكوّن الحد الفاصل بين الروسيا والعجم ويصب في بحر الخزر

ويسكن الأرمن بكثرة وادي آراس خصوصاً ما كان مجاوراً لجهات أرقان أما قسم نهر آراس الأوسط فيسكنه (القره باغ)

واذا قارنا شمالي بلاد القفقاس بجنوبيها نجد أن الشمال كثير العواصف والزوابع شديد البرد قليل الزرع وتحصد حاصلاته متأخرة ورغم هذا فانه من المشاهد أن هواءه وماءه في غاية النفع للصحة وفيه مراع واسعة عظيمة لاحد لها بخلاف قسمه الجنوبي فانه خصب تزرع فيه جميع الحاصلات وخاصة الحدائق والبساتين حتى ان قسمه الغربي الواقع على شاطىء البحر الأسود مملوء بالبساتين والحدائق

ويمتاز هذا القسم أيضاً باتساع مراعيه الخضراء وخيراته العميمة وحاصلاته الوفيرة

والخلاصة فان بلاد قفقاسيا عرفت من القديم بجمال طبيعتها وعليل هوائها ولطافة أهلها .

كما خصها الله تعالى بمزايا كثيرة خصوصا مركزها الجغرافي الذي جعل لها ميزة الاشراف على قارتي آسيا وأوروبا .

---

(١) معناه الف بحيرة

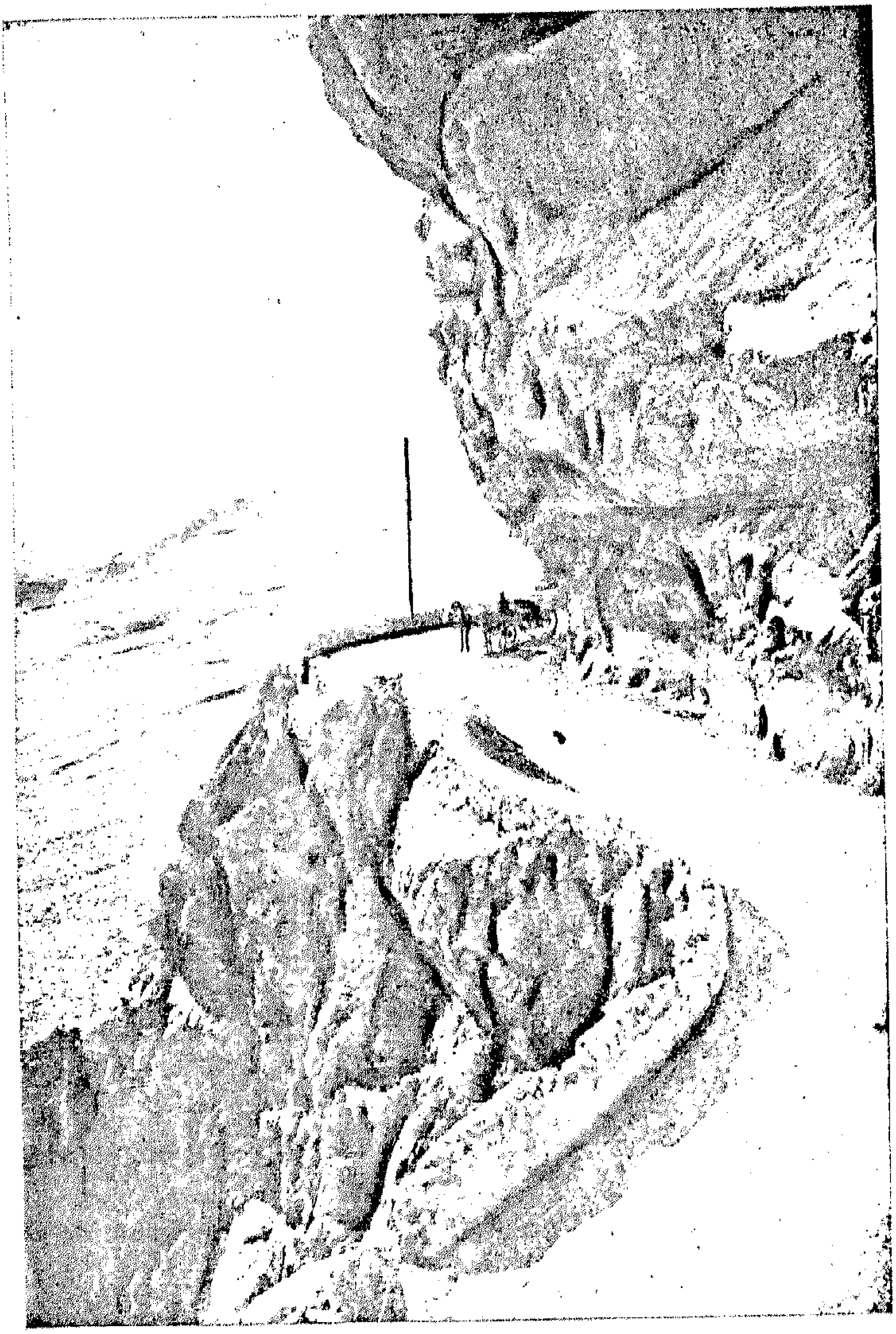

طريق فى أعالى جبال القوقاز

القسم الثانى

الفصل الاول

الحكومات التى تشكلت فى القفقاس

تشكلت فى القفقاس حكومات عديدة مستقلة فى الأزمنة السابقة وهى :

(١) حكومات بلاد الجركس (الاديغه والقوصحه)
(٢) « بلاد الداغستان والچچن
(٣) « « الكرج (التى كانت قديماً تعرف باسم ايبريا)
(٤) « « الارمن
(٥) « « البانيا
(٦) « « سوآنه تى

الحكومات الجركسية

هذه الحكومات كانت باسطة نفوذها على نصف سلسلة جبال القفقاس الغربية ابتداء من مضيق (دريال) الشهير الكائن فى وسط الجبال المذكورة وكانت تتحكم شمالا على حوض نهرى ترك وقوبان وغربا لغاية فلقة ضخوم (المعروفة قديما بفلقه الاباظه) حتى سواحل بحر (أزوف) وجزء من شبه جزيرة (القرم) وما جاورها شمالا .

والقوصحه الذين كانوا يقطنون شمال وجنوب جبال قازبك والبرز الشهيرين كوّنوا حكومة قوية هناك[١]

---

(١) المشهورة فى كتب الفتوح العربية بحكومة (اللان)

وكذا الداغستانيون أسسوا حكومتهم[1] ابتداء من شرقى الاستين (القوصحه) لغاية شبه جزيرة (آپشرون) شرقى سلسلة جبال ققفاسيا بما فى ذلك مرتفعاته الشمالية والجنوبية لغاية ساحل بحر الخزر

وكانت حكومة الكرج (أيبريا) قوية منيعة وامتد سلطانها على جميع القسم الجنوبى للقفقاس . وقد تجزأت جملة أقسام فيما بعد

أما الأرمن فكانت حكومتهم أو بعبارة أخرى مملكتهم تتشكل من البلاد الآتية :

خوى ، وسلماس فى العجم ، وروان ، وايرا ، وستبول (كنجه) فى الروسيا وقسم من وان ، وبايزيد فى تركيا.

بناء على ذلك يجدر بنا أن نعتبر هذه المملكة أقرب الحكومات الى القفقاس ولا نعتبرها من حكوماتها

بقى علينا أن نذكر أيضا حكومة (ألبانيا) التى اندثرت واندمجت فى الحكومات الأخرى وكذلك حكومة (سوآنى) التى لم يبق من أهلها سوى بعض أفراد قلائل لا يتجاوزون بضعة آلاف .

وسنبين فيما يأتى اجمالا بعض المعلومات التاريخية عن انقراض هاتين الحكومتين ثم تاريخ الحكومة الأرمنية وبعده تاريخ مملكة الكرج وبعد ذلك سيجيء الكلام عن الچراكسة والداغستانيين والچچن الذين خصصنا كتابنا هذا لنشر تاريخهم .

---

(١) المشهورة بحكومة (السرير) نسبة الى سرير الملك الذى بعث به « يزدجرد » آخر ملوك ساسان .

الفصل الثانى

حكومة ألبانيا

هـذه الحـكومة كانت تحد شمالا بالداغستان وجنوباً ببلاد الأرمن وشرقاً ببحر الخزر وغرباً بالحوض الأوسط لنهر كُرْ

وكانت هذه الحـكومة تعاصر حكومة الـكرج (ايبريا)

وكلمة (ألبانى) يونانية يدل معناها على طبيعة الأرض ذات الجبال والصخور .

ولقد عاش سكان هـذا الاقليم فى لجة من الجهل والظلام الدامس وهم لا يعرفون من مبادئ المدنية والتمدن شيئاً حتى أنهم كانوا لا يحسنون العدّ الا لغاية المـائة فقط وقد ورد عن (استرابون) المؤرخ الشهير أن الألبـان قوم ممشوقو القوام حسان الوجوه . وكانت ألبانيا حكومة ملـكية وعدد عساكرها المحاربة من ستين الى ثمانين ألف مقاتل وأسلحتهم المزاريق والقسىّ والنبال والرماح وكانوا يلبسون الزَّرد ويتقلدون الدروع المصنوعة من الحديد الزهر وعلى رؤوسهم وقايات من جلود الوحوش . أما الأهالى فـكانوا يتقلدون الخناجر الطويلة (القامات) دائمـاً حتى أنها صارت جزءاً من ملابسهم .

واتقاء لاغارة الحـكومة الايرانية المستمرة على ألبانيا والاستيلاء على بعض أراضيها اضطرت للاتفاق مع حكومة الـكرج (ايبريا) فى عهـد (پومپيى) القائد الرومانى الشهير .

ومما سهل هذا الاتفاق أنهما (البانيا وايبريا) كانتا تعبدان آلهة متشابهة فى معابد مشتركة بينهما قائمة فى حدودهما .

وقد يظن أن هاتين الحـكومتين اتحدتا وصارتا حكومة واحدة قوية ويظن أيضاً

أن هاتين الحكومتين اتحدتا مع القوصحه والچركس وان هـذه الحـكومة كونت اتحاداً (Fédération) قوياً لمقاومة الأجانب الذين كانوا يرغبون فى الاستيلاء على بلادهم .

واذا بحثنا فى أخلاق وعادات الألبان نرى أنهم كانوا يحترمون مسنّيهم احتراماً كليا ويرعونهم رعاية كبرى .

وفى الوقت نفسه لا يرعون حرمة الموتى ويدفنونهم مع أموالهم ومقتنياتهم . وهـذه العادة كانت قائمة ومرعية كذلك عند باقى الأقوام الأخرى من سكان شمالى وجنوبى قفقاسيا

ولهـذا كان أكثرهم يعيش عيشة الفقر المدقع ليموتوا مجردين من تركة ومال . وكانوا يعبدون زحل والشمس والقمر وكان القمر أكثرها اجـلالا وتعظيما. ونظراً لكثرة الاغارة عليهم واحتلال أراضيهم اضطروا أخيراً للاتجاه شمـالا الى جبال القفقاس والاندماج نهائياً فى الچراكسة والقوصحه واللزكى . وبذلك انقرض نسلهم وتشتت شملهم .

يقول بعض كتاب الروس ان سكان قريتى (قرين ونوحا) السكائنتين فى جنوبى قفقاسياهم من سلالة ألبانيا القديمة ويبلغ عددهم الآن نحو ١٠٫٠٠٠ نفس

ويقول مورجان[١] ان (آران) من عائلة (آرزاس ـ عائلة ملوك الأرمن) اعتلى عرش مملكة البانيا بمساعدة (الأرْزَاسْ) فى سنة ١٤٩ قبـل المسيح وحكمها الى سنة ١٢٧ . ق . م وبوفاة (ديكران) ملك الأرمن استردت البانيا استقلالها وحريتها

(١) الجزء الثانى صفحة ١٩٨

الفصل الثالث

حكومة سوآنتي

ثابت في التاريخ أن هــذه الحكومة كانت قائمة من خمسة وثلاثين قرناً تقريباً بأعالى نهرى (ريون واينغور) بوديان وعرة على ضفة نهر (جخكيس - چخالى) ويقول (استرابون) المؤرخ انه فى أوائل العصر الأول للميلاد كان لتلك الحكومة جيش يقرب عدده من ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل وكانوا يستعملون فى حروبهم السهام المسمومة[١] وقد عاش استرابون فى تلك الأيام وعاصر هذه الحكومة وعرف عنها هذه المعلومات

وكانوا يقتنون الذهب والفضة وباقى المعادن القيمة. وبلغت شهرتهم فى ذلك أن نظمت فيهم الأغانى والأشعار (أغنية توازون دور)[٢] - اشارة لغنى البلاد ورخائها

وقد اشتهر أهالى سوآنتى من أقدم العصور بأنهم رجال علم وفن وتمدن ورقى وعرفوا كذلك بالغنى الوافر غير أن حروبهم المستمرة غيرت أخلاقهم وسلبت مدنيتهم ورقيهم وجعلتهم أقرب الى الخشونة والعنف ومع ذلك فانهم لا يزالون محافظين على شهامتهم و كرمهم الآن وكثيراً ما كانوا يختلطون بقبائل الكرج والچركس

وأما من جهة معتقداتهم فانهم وان كانوا فى الظاهر يتبعون النصرانية غير أنهم فى الحقيقة لا دين لهم - وهذا القول يذكره المؤرخون الروس .

ويشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات والصيد كما أنهم مولعون بالطرب والأغانى ومنصرفون بكليتهم الى الموسيقى ولهجتهم فى الكلام لهجة الكرج

---

(١) موورجان الجزء الثانى صفحة ١٨٨

(٢) Toison d'Or اسطورة الصوف الذهبي للكبش الخيالى الذى احتمل «فريكسوس» و « هيليه » الى جنوب القوقاز وقد ذبحه فريكسوس قربانا لكبير المعبودات « زيفس » وأهدى ذلك الصوف الي « آئيتيس » ملك البلاد .

الفصل الرابع

تاريخ بلاد الأرمن (أرمنستان)

أرمنستان القديمة هى البلاد الواقعة ما بين نهاية قفقاسيا الجنوبية والشمال الغربى لايران والشمال الشرقى لآسيا الصغرى .

وثلثا هـذه القطعة داخلان الآن فى حدود ايران وروسيا والثلث الباقى فى بلاد الحكومة العثمانية. وأقول اتباعاً لرأى العلامة مورجان ان الأرمن ينتسبون للجنس (الآرى) وكانوا قبل ١٣٠٠ سـنة ق . م يعيشون بجوار « أرميد » وقبل ذلك كانوا يسكنون البلقان .

وكانوا يقطنون حوالى قونيه (فريچى) وقيصرى (قاپيادوس) ومنها اتجهوا نحو جبال (آرارات) وذلك قبل (هيرودوث) واستمر تقدمهم الى جوار أرضروم فى القرن السادس قبل المسيح حتى (وان) وحوض نهر كر قبـل المسيح بـ ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة (مورجان المجلد الثانى صحايف ٤٨ ـ ١٢١ ـ ١٤٨)

ويدعى الأرمن أن أصلهم يمتد الى نسل (هايغ بن توغامور) الوارد ذكره فى الانجيل وان لفظة أرمن مشتقة من اسم (أرماناغ) أو من اسم (آرام) أحد أحفاده

***

كان الأرمن قبل المسيح بقرنين تابعين للدولة (السلوقية[١]) التى تأسست على انقاض مملـكة اسكندر الاكبر بسوريا (سلوقوس هذا قائد من قواد اسكندر الأكبر وشكل حكومة بسوريا بعد وفاة الاسكندر بثلاثة عشر سنة يعنى سنة ٣١٠ سنة قبل المسيح) .

(١) « Séleucus » ـ « Séleucides »

وعندما قهر الرومان (انتيوكوس) Antiochus العامل للدولة السلوقية بسوريا قام الأرمن وأعلنوا استقلالهم وقسموا البلاد الى قسمين :

أرمنيا الكبرى وأرمنيا الصغرى (الغربية) وصار (أرتاقسياس) ملكا على أرمنيا الكبرى وهوقائد من قواد (أنتيوكوس) وأسس مدينة رَوَانْ (ارتاقسانا) ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى تغلب عليه آخر ملوك الدولة (السلوقية) وضم البلاد الى الحكومة الأصلية (مورجان المجلد الثانى ص ١٦٨) وأما أرمنيا الصغرى فحكمها (دريادارس) آخرقواد (انتيوكوس) وتملك عليها وعلى أرمنيا الكبرى .

ولا يعلم بالتحديد بقاء ارمنيا الكبرى تحت نير الدولة السلوقية ولكن من المعلوم أن الملك (ديكران) حكمها مستقلا قبل الميلاد باثنتين وسبعين سنة . ولما حاول الملك (ديكران) أن يشد ازر (متريداد) حاكم پونت[1] ـ سواحل البحر الاسود ـ ضد (پومپى) القائد الرومانى انهزم هو وحليفه ووقعا تحت سلطة الرومان وعلى كل حال فان من الثابت أن أرمينيا الصغرى وقعت تحت استيلاء (متريداد) فى حدود سنة ١١٢ قبل الميلاد وان ارمينيا الكبرى حكمها ولاة اسكندرالأكبر والدولة السلوقية مدة ١٧٦ سنة تقريباً أى من سنة ٣٢٥ الى سنة ١٤٩ قبل الميلاد ومن هذا التاريخ انتقلت من حكم الدولة السلوقية الى حكم دولة الفرس (مورجان ـ المجلد الثانى صحيفة ٢١٠)

وكان الرومان والفرس كفرسى رهان على امتلاك أرمينيا وجنوبى القفقاس لعلمهما أن هذه النقطة هى المسيطرة على التجارة بين أوروبا والشرق الأقصى التى لا ينضب معينها (مورجان ـ المجلد الثانى صفحة ٢١٥) . فلهذا كان مركز جنوبى القفقاس فى نظرها الهدف الأعلى وكانا دائما يتحينان الفرص ويقفان بعضهما لبعض بالمرصاد .

(١) دولة فى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ومن أشهر ملوكها متريدات الذى قاوم الرومان ولكن رغم جهاده استولى الرومان على بلاده وجعلوها ولاية رومانية فى سنة ٦٢ بعد الميلاد

وفى صدر القرن الثانى للميلاد احتل (تراجان) امبراطور الرومان بلاد أرمينيا وجعلها ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية كما أن الامبراطور (وسپسيان) شيد القلاع والاستحكامات فى جنوبى قفقاسيا وأقام فيها قوة عسكرية أمام هجمات سكان قفقاسيا الشمالية خصوصا جيرانه القوصحه (آستين) الاقوياء جداً فى ذلك الوقت ولقد أراد الامبراطور (أوجست) تعيين البرنس (آريو بارزان) أحد أمراء (ميديا) أميراً على أرمينيا بيد أن الارمن لم يقبلوا حكم هذا الاجنبي ولم يذعنوا له فقتلوه وكان ذلك فى أوائل القرن الثانى للميلاد .

ولم يستفد الارمن قط من ضعف حكومة روما بل ان الفرس هم الذين استفادوا من ذلك وبسطوا سلطانهم ثانيا على تلك الربوع .

ونظراً لعدم استقرار الاحوال حينذاك وقعت بلاد الارمن مرة أخرى فى قبضة (ميتريداد) ملك ايبريا واحتل (ارتاقساتا ـ روان) وأقام (تيريدات) الرومانى ملكا عليها وهو أول ملك مسيحى جلس على عرش أرمينيا (مورجان المجلد الثانى صفحة ٢١٦)

غير أن الحال لم يدم طويلا حتى امتلكتها مرة أخرى دولة (آل ارزاس[١]) الفارسية . Arsace- Arsacides

وفى هـذه الفترة استولى (آل ساسان) على عرش الفرس سنة ٢٢٦ م وقلبوا معتقدات القوم رأساً على عقب وجعلوهم يعبدون الكواكب والنجوم بدلا من الأصنام والنار . وفى سـنة ٢٣١ م استولى أول ملوك الساسان (ارْتاشَه رِخْشْ) على بلاد ما بين النهرين وسوريا وبلاد الارمن واعمـل فيها الهدم والتخريب وقتل الملك الأخير من حكومة « آل ازراس » وولى ارداشير ابنـه (سابور) حاكما على ارمينيا فى سنة ٢٣٩ بدله ومحا (سابور) من بلاد ارمينيا جميع الآثار الدينية التى شيدها

(١) «ارزاسيد» دولة « ارزاس » الفارسية التى حكمت بلاد البرث Parthes ـ خراسان ـ ودولة آل ارزاس هي الدولة المعروفة بآل اشكان الذين جاء بعدهم آل ساسان

(آل ارزاس) وحرق معبد النار المشهور بمدينة (باكو) واجبر الارمن الحديثى العهد بالنصرانية على أن يعتنقوا مذهب (المزدقية)

***

ولقد ناضل الأرمن كثيراً لاسترداد استقلالهم أمام ظلم وعسف الفرس ولكنهم لم يظفروا بشىء وغلبوا على أمرهم

وظلوا هكذا تتقاذفهم الأقدار الى أن ابتدأت القلاقل العظمى بآسيا بين الهند والهند الصينية بسبب الاختلاف المذهبي بين عباد (بوذا) و (البراهمة) وانتهى الامر بقبول مذهب بوذا وانتشاره فى الصين ·

وبسبب هذه الاختلافات الدينية وما جرتها من حروب اختلت النظم الحكومية بآسيا الوسطى وفقد الأمن وسادت الفوضى بصورة فظيعة وعم البلاء جميع هذه البلاد الواسعة ، الأمر الذى أجبر كثيراً من الأقوام على مغادرتها والهجرة الى خارجها .

وكان أكثر الناس هجرة (الأتراك) الذين خرجوا من جوار جبل (آلتاى) واتجهوا ناحية الغرب قاصدين أوروبا

وهؤلاء الأتراك « الهون » فتحوا القسطنطينية واحتلوها وكان من نتائج هذا الاختلال فى التوازن أن وقعت هذه الارتحالات المتسلسلة التى أدت الى احداث انقلابات عالمية .

وقسم منهم اتجه نحو سواحل بحر (الخزر) وانحدروا منه الى (دربند) ومنها الى جنوب القفقاس وأحدثوا به هرجاً وفوضى ·

ولم يسلم حاكم أرمينيا العامل من قبل الفرس وقتئذ من بطش (الهون) فانهزم أمامهم ودانت حكومته لهم بالطاعة واغتنم الأرمن وسكان جنوبى القفقاس فرصة

تقهقر الفرس السياسى وضعفهم المـادى وعمدوا الى الثورة ووقفوا فى وجه الفرس ولـكن لا يوجد ما يثبت انهم نالوا استقلالهم من وراء هذه الحركة

***

ويؤخذ من المصادر التاريخية أن (هرقل) امبراطور بيزانته احتل بلاد (اباظه ـ ابخاز) ومنغراليا وارمينيا سـنة ٦٢٤ م فأرسل عليه الفرس جيشاً عظيما . ولـما علم (هرقـل) بذلك استعان بسكان شمالى قفقاسيا وطلب معونتهم فنزلوا الى الجنوب ودحروا جيش الفرس وغلبوه

ولـكنهم فى الوقت نفسه خربوا كثيرا من بلاد الجنوب .

وفى سنة ٦٢٦ توغل (هرقل) داخل ايران وقهر الساسانيين وبذلك شملت حدود بلاده الشرقية السكينة والاطمئنان .

***

وكان العالم وقتئذ يتخبط فى ظلمات الجهـل والتوحش لا يعرفون قبلة يرضونها ولا قبساً يهتدون به مما كانوا فيه من فوضى حتى شع نور الاسلام وانشق فجره ولمع بريقه فى آفاق بلاد العرب

وفى هذا العصر جاء الحق من عند الله وظهر دينه القيم على لسان نبيـه المصطفى عليه الصلاة والسلام فى شبه جزيرة العرب المقدسة التى لم تكن معروفة فى آسيا ولا أوروبا ومن ذلك الوقت ابتـدأ نور الاسـلام يزداد شعاعاً ويبهر الأنظار ويشع على الـكون ويهدى الخليقة الى الصراط المستقيم .

وكانت الأخلاق البشرية وقتئذ محتاجة الى التقويم والنفوس الى الاطمئنان والعقائد الى الهدى .

***

وابتدأ الموحدون فى الانتشار على الأرض لهداية الناس ووصل منهم ١٨٠٠٠ فارس

صورة لاحد الاجتماعات التى تقام بمركز جمعية الاخاء الجركسية بالقاهرة .

الى جنوبى القفقاس سنة ٧٣٧ م (سنة ٢٢ هـ) وجعلوا ينسخون العادات والمعتقدات البالية ويحاربون النصرانية ويُدخِلون الناس فى دين الله أفواجاً

ولقد حكم العرب بلاد الأرمن أيضاً حتى أن أحدهم استقل بحكم مقاطعة من بلادهم وضمها اليه نهائيا

وفى أثناء حكم العرب ابتدأ أمراء الأرمن باعتناق الاسلام وتبعهم باقى الأهالى مقتدين بهم

ودام حكمهم لجنوبى القفقاس لغاية سنة ١١٠٠ م أى الى ابتداء الحروب الصليبية (دام حكم العرب مدة ٤٦٣ سنة) ونظراً لتألب النصارى ضد العرب ومحاربتهم فى كل مكان اضطر العرب لتوحيد صفوفهم فسحبوا معظم قواتهم من جنوبى القوقاز

وعندما ابتدأ انفصام قوة العرب فى القرن الحادى عشر الميلاد ترك (السلجوقيون) التركستان واستولوا على خوارزم وايران وبغداد وفى سنة ١٠٦٣ استولوا على جنوبى القوقاز مبتدئين ببلاد الأرمن .

وكما أن السلجوقيين خلفوا العرب على تلك الممالك فكذلك جيش «جنكيزخان» (المغولى) قداستولى عليها سنة ١٢٣٦ م وجعل عاليها سافلها وصارت بلاد القفقاس الجنوبية مرة أخرى مسرحا للمظالم والتخريب .

وأمام هذا السيل الجارف من القتّالين اعتصم أكثر الكرج بجبال القفقاس والأرمن بجبال (الاكوز) و (كوكچاى)

وبينما كانت الأمور تجرى هكذا كان السفاح الآخر « تيمورلنك » يكتسح ايران وآسيا الصغرى ويتقدم فيهما مخربا سفاكا نهابا حتى التقى فى صحراء « انقرة » بجيش السلطان العثمانى « يلدرم بايزيد» فمزق شمله وأسر السلطان ودخل جنوبى القفقاس .

***

فيتضح من الحوادث التى مرت على أرمينيا أنها كانت ميدانا مهماً لغزو الفاتحين.

والطامعين وسبباً لحروب المغيرين والمقيمين وانها كانت ضحية أطماعهم ومسرحا لأغراضهم .

***

وبعد عهد تيمورلنك يجيء عهد التنافس عليها بين (الترك) و (العجم) فتراق لأجلها دماء غزيرة وتزهق أرواح كثيرة، وفى القرن الثامن عشر تشترك (الروسيا) معهما فى هذا التنافس .

وبعد ذلك يجيء عصر تسود فيه السكينة لمدة طويلة على ربوع أرمينيا .

فيستخلص من هذا أن ملوك الأرمن لم يحكموا أرمينيا الكبرى طويلا وان حكومتهم المستقلة لم تدم كثيراً .

يقول المؤرخ (مورجان) بناء على رواية الأرمن أنفسهم أن أول من سكوا النقود بأسمائهم هم ملوك أرمينيا الصغرى فى سنة ١٩٠ ق.م وكان يكتب عليها بحروف رومية وكذلك كتاباتهم كانت بتلك الحروف .

وفى القرن الرابع للميلاد فقط اخترع (مسروب) حروفا خاصة للغة الأرمنية وكتب بها كتبهم الدينية . ومن ذلك العهد ظهرت الآداب الأرمنية ودونت فى الكتب .

وكانت اللغة الأرمنية لا رابط لها . وهى خليط من جملة لغات وجملة لهجات وقد اتخذوا لغة أهل (آرارات) مثالا لهم وجعلوها لغتهم الكتابية والأدبية وأساساً للغة الأرمنية (مورجان المجلد الثانى صفحة ١٢٢)

ولقد اشتهر « موئيس دوخران » عند الأرمن الأقدمين كما اشتهر «هيريدوت» عند اليونان وكتب تاريخهم ونقل الى اللغة الأرمنية جملة مؤلفات وترك آثاراً أدبية وعند نزوح الأرمن الى جنوبى القفقاس كانوا فى غاية الجهل لا يكتبون ولا يقرأون رغم قدومهم من وسط آسيا مهد المدنية الأولى ورغم ما اشتهروا به من أنهم أرقى الأمم التى كانت تجاورهم .

والدليل على ذلك انهم قبلوا الحروف التى خصصت لهم على علاتها من غير أن يضيفوا عليها شيئاً من عندهم وكانت خليطا من حروف الآشوريين والسريان والروم والايرانيين .

ونقودهم التى كانوا يتداولونها كانت نقود اسكندر الأكبر (دراخمه) من الفضة والذهب الى أن استولى العجم على بلادهم فانتشر تداول عملة الفرس فيما بينهم

وكانوا يعبدون الأصنام ويتمذهبون بمذهب (براهمه) ثم أدخلت عليهم النصرانية التى وجدوا صعوبة كبرى فى اعتناقها وسالت دماء كثيرة من جراء ذلك وأخيرا تمذهبوا بمذهب (مزدق[1]) دين ايران

وفى القرن السابع قبلوا الاسلام دينا ولكنهم ارتدوا نصارى عقب ضعف الحكومات الاسلامية خصوصاً حكومتهم العربية التى كانت تحكمهم

ورغم كل هذه التقلبات التى انتابت الأمة الأرمنية فانهـا أمة محافظة لتقاليدها محبة لوطنها وبيدها تجارة القفقاس حتى أن الروس كنوهم (يهود الشرق)

كما أنهم متقدمون فى العلوم والمعارف ولهم رئاسة دينية مستقلة عن باقى الكنائس

والخلاصة فان الأرمن عنصر قوى بفضل محافظته على أخلاقه وتقاليده ، وغنى بثروته وعلومه ومشهور بكثرة عدده

(١) يقول أحد خصوم البرامكة فى التعريض بعقيدتهم

اذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى (برمك)

وان تليت آية بينهم أتوا بالاحاديث عن (مزدك) (المعرب)

الفصل الخامس

تاريخ بلاد الكرج (كورجستان)

يدعى الكرج أنهم أحفاد (قارتلوس) وان اسمهم الأصلى (قارتول) نسبة الى (قارتلوس) رأس الأمة الكرجية التى كان مقرها مفرق نهرى « كُر » و « آراغْوِى » من ۲۱۰۰ سنة قبل الميلاد

و يقولون انهم كانوا معروفين عند العبرانيين باسم « مَشَخْ » أو « مَسخى » كما أنهم يدعون أن قارتلوس هذا من أولاد «يافث» وأن عاصمة ملكهم الأولى تسمى (مَتْسَخَتْ) نسبة الى ابن قارتلوس

ومع أن الكرج قديما عاشوا فى أواسط القرن السابع قبل الميلاد باسم (قارتول) وكانوا قبائل متفرقة كل قبيلة تحت امرة رئيس يعرف باسم (ماماسحليس) إلا أنه لايوجد فى بطون التاريخ حوادث مهمة تثبت وجودهم قبل هذا العهد . وقياسا على أن اسم الجركس القومى (أديغه) والآستين (ايرون) والكرد (مور) والچچن (ناخچه) فيحتمل أن يكون اسم الكرج القومى أيضا (قارتول) وعلى كل حال فان كلمة « كورجى » دخيلة عليهم وغريبة عنهم .

وللكتاب الروس جملة آراء فى أصل واشتقاق كلمة « كرج » :

١ — لما كان الكرج يزرعون الذرة كثيراً و يحبون أكلها كناهم « السريان » بكلمة (غاريز) التى تفيد الذرة بلغتهم

٢ — كورجستان معناها بالفارسية (بلاد القوة والقدرة)

٣ — سميت بلادهم بكورجستان نسبة الى (القديس جورجى ـ سان جورج) الشهير عند النصارى بالصلاح والتقوى والذى ظهرت النصرانية على يديه فى

الكورجستان وله عندهم مكانة كبرى واحترام ديني عظيم حتى أنه يعتبر شفيعهم وحاميهم .

وحكومة الكرج كانت من أعظم وأقوى الحكومات التي تشكلت في قفقاسيا . و يعتبر الكرج والچركس والآستين من العرق الأبيض

* * *

كان الكرج في أول أمرهم أمة عظيمة قوية منتشرة لغاية الجنوب الأدنى لقفقاسيا ولكنهم أمام السيول المتدفقة من جيوش المغيرين على بلادهم لم يستطيعوا المقاومة ولا الثبات فاضطروا للتقهقر قدماً قدماً حتى تحصنوا في منحدرات جبال القفقاس .

وهم قوم مشهود لهم بالتمدن والبراعة والتفنن في الزراعة .

وأنه حوالي سنة ٦٣٣ قبل الميلاد استولى الخزر القادمون من بين نهرى (فولجا) و(الدون) على بلاد الكرج . و بعد ذلك هبت فيهم الروح الحربية

* * *

وقد حكم الكرج « توروس » الفارسي من سنة ٦٥٠ الى سنة ٥٢٩ قبل المسيح وأراد حاكم (ميديا) الاستيلاء على بلادهم ولكنهم تغلبوا عليه وطردوه من البلاد

وقد جاءت الصين الكورجستان بقيادة البرنس (اور بايان) واستوطنت الوادي الشمالي لعاصمة الكرج (ميتسخت) حوالي سنة ٣٥٠ ق . م وسيجيء الكلام فيما بعد عن المساعدات القيمة التي قدمها أمراء الصين من عائلة (اور بليان) للروسيا عند استيلائهم على القفقاس (مورجان المجلد الثاني صفحة ١٥٦)

و يقسم مورجان تاريخ ايبريا (الكرج) الى خمسة أدوار :

أولا — الدور الأول من سنة ٥٥٠ الى سنة ٣٣١ ق . م وهو دور الاحتلال الفارسي لبلاد ايبريا وابتدأ اعلان الايبريين استقلالهم

ثانيا — الدور الثاني من سنة ٣٣١ الى سنة ١١٢ ق . م دور الاستقلال

ثالثا — الدور الثالث من سنة ١١٢ الى سنة ٦٤ ق٠م دور احتلال ايبريا على يد (ميتريداد) الرومانى

رابعا -- الدور الرابع من سنة ٦٤ الى سنة ١٦٤ ميلادية دور انتقال البلاد الى التبعية الرومانية ـ اسماً ـ واعلان استقلالهم ثانيا

خمسا — الدورالخامس والأخير دخول البلاد تحت نير «الهون» و «الأوار»[١] الآتين من الشمال الزاحفين الى آسيا حين مرورهم من ققفاسيا ٠ و يقول مورجان :

وأمام هذه القلبات والحروب الدائمة خصوصا فى دورهم الخامس حينما داهمت بلادهم الأمم الغازية الآتية من الشمال دافع (الايبريون) مستميتين عن كيانهم و بلادهم ولكن كثرة المغيرين سحقتهم حتى أشرفوا على الانقراض

وفى هذا الدور انقرض الايبريون واختفى معهم اسم ايبريا وحل محله عنوان جديد «بلاد الكرج»

وانك لتجد فى كتاب هيرودت شيخ المؤرخين ان (أيبريا) تعرف أيضا باسم (ساسپير)

وصفوة القول أن بلاد الكرج كانت تعرف بساسپير ثم بأيبريا وأخيرا ببلاد الكرج وهذا مااتفق عليه المؤرخون .

***

واذا استعرضنا الحوادث والظروف التى مرت على بلاد القفقاس نجد أنها كانت بمركز المنفذ الحصين بين القارتين آسيا وأوروبا كما بينا فى مقدمة هذا الكتاب وان من ملكها ملك مابعدها من البلاد فلهذا كانت ققفاسيا مسرحاً لهذه الأطماع وأهليا ضحايا لهؤلاء المغيرين

وقد ضم اسكندر الأكبر جنوبى ققفاسيا والكرج فى القرن الرابع قبل الميلاد لامبراطوريته حينما غزا آسيا الصغرى وأقام رجلا يدعى (يازون) حاكما على

(١) «Huns» و «Avars»

كورجستان وحاول هذا أن يغير عقيدة أهل البلاد الذين يعبدون الكواكب ليعبدوا بدلها الأصنام فكانت هذه المحاولة عاملا قويا لقيام الشعب ضده . فظهر بين الكرج (فارنواز) ودعاهم الى الاتحاد وتوحيد الصفوف وجعل يبث فيهم روح الحرية والاستقلال وقدسية الوطن ويشعل فيهم نار الحقد ضد الغاصبين والفاتحين الذين يحتلون بلادهم ويتحكمون فيهم بالظلم والاستبداد .

ولقد نجح (فارنواز) فى حركته هذه والتف الناس حوله واستولى على سلطة جميع رؤساء القبائل الكورجية والف جيشا عظيما وطرد (يازون) عامل الاسكندر وجنوده من البلاد وصار أول ملك على كورجستان المتحدة

***

واستمر فى تنظيم الشؤون وقسم البلاد الى ثمان ولايات (أريستاو) على رأس كل منها وال وقد نشأ أخيراً من هؤلاء الولاة طبقة النبلاء من الكرج المسماة (مازناؤور) الذين يمتون بالصلة الى « ماما سحليس » القديم وعمم اللغة الكرجية وجعلها اللسان القومى والرسمى للبلاد وأوجد الحروف الأولى للكتابة ونظم الجيش وأنشأ المدن وبنى القلاع والحصون وأصلح كثيراً من شؤون البلاد

وأقام ابنه ولياً للعهد على المملكة من بعده وبقى القوم على مذهبهم يعبدون الكواكب والنجوم

وفى سنة ٢٣٧ قبل الميلاد توفى (فارنواز) واعتلى العرش ابنه (سورماغ) وحكم من سنة ٢٣٧ الى ١٦٢ وأثناء ذلك تألب عليه حكام الولايات وجاهروا « بأنهم لا يطيعون فرداً أصله منهم » فقمع هذه الثورة بمعونة الآستين (القوصحه) ومات « سورماغ » من غير عقب فتولى الملك من بعده ابن أخته (ميروان) وفى عهده اختل نظام الملك وحدثت ثورات داخلية ولم يطل الأمر حتى توفى (ميروان) سنة ٩٣ ق . م وتولى بعده ابنه (فارناجوم)

ولما أراد فارناجوم أن يغيّر عقيدة القوم ويدخلهم فى مذهب (مزدق [1]) أرسلوا الى حاكم أرمينيا ونصبوا ابنه (ارشاق) ملكا عليهم (مورجان المجلد الثانى ص ١٦٧)

* * *

كانت حكومة الكرج قوية عظيمة مدة حكم (فارنواز) وأولاده وأحفاده وكم تغلبت على ميديا والخزر والفرس وغيرهم عندما هاجوها للاستيلاء عليها وطردتهم ومزقتهم شر ممزق

* * *

وفى أثناء ذلك استولى جيش (پومپى) القائد الرومانى المظيم على الكرجستان فى سنة ٦٦ ق . م وأتبعها لروما وأبقى « ارشاق » ملكها حاكما عليها باسم الرومان . وفى سنة ٣٦ ق . م ثار الكرج ضد الاحتلال الرومانى وطردوا المحتلين من البلاد فجردت عليهم روما جيشاً بقيادة (قانى دى) وأرغموهم على السكينة وألحقوهم بروما مرة أخرى

ولكن هذه المرة كانت روما تعاملهم معاملة الحكومات المتفقة المتحابة ولم تتداخل فى شؤونهم الداخلية وبهذه الوسيلة أمكن للرومان الاستفادة من القوة الكرجية المحافظة على أملاكهم ضد الأقوام الآخرين بقفقاسيا . وبسبب دخول الرومان تلك البلاد أمكن تدوين تاريخ اقفقاسيا ووجد مطابقاً لما كتبه المؤرخ « استرابون [1] » عنها

* * *

يقول استرابون المؤرخ أن ايبريا (بلاد الكرج) كانت آهلة بالسكان وكانوا أغنياء خصوصاً سكان ضفاف نهر « كر » فانهم امتازوا بتفوقهم فى الزراعة والبناء

---

(١) أو مزدك

(٢) « Strabon »

والصناعات وكانت لهم آثار مشيدة ومبان ضخمة بالاحجار بل كانت لهم مدن عظيمة تدل على تقدمهم فى فن البناء

وقد امتازوا أيضا بدماثة الأخلاق و بغضهم للحروب بخلاف سكان سفوح الجبال « سكيت » Scythes و « سارمات » Sarmates فكانوا رجال حرب وضرب بعيدين عن التمدن والرقى ·

* * *

و يقول استرابون أيضا ان المُلك فى ايبريا كان وراثياً و ينقسم الأهالى الى أربع طبقات رئيسية :

١ — طبقة النبلاء و ينتسب اليها الملك والقواد والحكام

٢ — طبقة الكهنة والرهبان

٣ — طبقة المحاربين والزارع

٤ — طبقة الأسرى والخدم

وطبقة الأسرى هذه يحرم عليها الاشتراك فى الحروب وعليها أن تحافظ على المنازل والعائلات فى زمن الحرب وتقوم بخدمتها

* * *

مرَّ على الكرج خمسة قرون وهم تحت النير الرومانى ورغم هذا الاحتلال فان الحكم كان بيد ملوك الكرج أنفسهم وكانت البلاد فى هذه المدة غارقة فى بحبوحة من السعادة وتقدم فى العمران · وشق الرومان فى البلاد طرقا كثيرة وأحدثوا منشآت عظيمة وتقدموا بالبلاد تقدماً مذكوراً

وفى هذه المدة كان الملوك من عائلتى « فارنواز » و « ارشاق » ولما توفى الملك « اسياغور » من عائلة ارشاق سنة ٣٥٢ ميلادية ولم يعقب سوى بنت اسمها (أبشورا) اعتلت العرش بعد أبيها وفقاً للقانون الذى وضعه الملك « فارنواز »

فرأى من بيدهم زمام الأمور أن يستقدموا (ميروان) بن خسرو الثانى ملك العجم ويزوجوه (ابشورا)

وفعلا تم ذلك وأجلسوه على العرش باسم « ميروان الثانى » وقد قيل ان حكمه دام ٧٧ سنة وعقب وفاة زوجته ابشورا تزوج بكرجية أخرى اسمها « نينا »

✲ ✲ ✲

وفى مدة حكمه امتدت حدود المملكة لغاية بحر الخزر واستولى على جزء من (الجزيرة) واستمال اليه الآستين . و بعد ميروان الثانى اعتلى العرش « اختانغ الأول » وكان عاقلا رزينا واليه يرجع فضل جمع شتات التاريخ الكرجى وهو الذى استغنى عن الرهبان الذين كانوا يرسلون من « بوظنطيا »[١] وأحل بدلهم رهباناً من الكرج ودام ملكه من سنة ٤٤٦ الى سنة ٤٩٩ م

ومن بعده رجعت البلاد القهقرى واستولى الفرس على قسم منها وبوظنطيا[١] (بوزنته) على القسم الآخر مرة ثانية كما استولت أيضا على بلاد « الأبخاز ».وفى سنة ٥٨٦ م جلس على عرش الكرجستان (غوريم) من قبل حكومة بوظنطيا بدلا من آخر ملك من عائلة « باغرات » وفى سنة ٦٢٦ استولى على بلاد الكرج امبراطور الرومان (هرقل) وأعمل التخريب والتدمير فيها وأحرق مدينة « تفليس » عاصمة البلاد

✲ ✲ ✲

وفى خلافة (عمر) رضى الله عنه سنة ٢٢ لهجرة خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام الموافق سنة ٦٤٧ م . وصل جيش اسلامى عربى تحت امرة (سراقة ابن عمرو) الى حدود العجم لنشر الدين الحنيف و بعد أن استولى على اذربيجان

(١) «Byzance» الاسم القديم لقسطنطينيه (مدينة قسطنطين) وكتبت بصور مختلفة فى غضون هذا الكتاب

انفصلت منه قوة بقيادة (بكر بن عبد الله وعبد الرحمن بن ربيعة) وقصدت جنوب القفقاس للفتح.

فدخل فى دين الله جميع بلاد (شروان) وجزء من (الداغستان) ثم استمر زحف المجاهدين حتى استولوا على بلاد (الأرمن) و بلاد (الكرج) وفتحوا (تفليس)

وأسسوا حكومة عربية ودعوا الناس الى الاسلام

ورغم هـذا أبقوا ملوك الكرج على عروشهم من غير سلطة وقد حبطت جميع المساعى والدسائس التى تذرعت بها حكومة « بيزانته » لوقف هذا الفتح الاسلامى ودخل الناس فى دين الله أفواجا حتى الأمراء والملوك وأما من لم يقبلوا الاسلام دينا ففروا الى الجبال .

و بذلك قضى الاسلام فى هذه الفترة القصيرة على النصرانية التى كانت منتشرة فى تلك الأصقاع منذ ثلاثة قرون .

ودامت حكومة العرب لغاية سنة ١١٠٠ م تقريباً أى الى أوائل ابتداء الحروب الصليبية وفى خـلال هذه المدة حل الاسلام محل النصرانيـة وسرى حتى وصل الى الجهات الشمالية . ولاشـك أن الدين الاسلامى امتدّ الى بلاد القوصحه (الآستين) والچركس ـ وفى أيام ادارة العرب انقسمت البلاد الى قسمين :

بلاد (الكرج الأصلية) و بلاد (الابخاز) وكل من هاتين القاطعتـين تجزأت الى أجزاء صغيرة و بذلك انحلت وحدة الدولة ودبت فيها الفوضى

***

ولما اشتدت الحروب الصليبية واستفحل أمرها اضطر العرب الى توحيد قواتهم أمام الصليبيين فصاروا يخلون البلاد من عساكرهم و يوجهونهم الى ميادين القتال فانتهز الكرج هذه الفرصـة ونادوا بـ « باغرات الرابع » بن « جورجى الأول » ملـكا عليهم وزحفوا الى تفليس واحتلوها سنة ١٠٢٦ م

وبينما كان هذا جاريا فى بلاد الـكرج كان أتراك ايران (السلجوقيون) قد احتلوا

لأول مرة سنة ١٠٤٩ م جنوبى القفقاس وأرمينيا والكرج وبلاد الروم فى شرق آسيا الصغرى وفى سنة ١٠٧٢ احتل « ألب أرسلان » بلاد الكرج من جديد

***

وأثناء حكم « باغرات الرابع » ضربت النقود وكتب عليها بالكرجية ما يأتى :
« ياعيسي ارفع شأن باغرات ملك القارتول والابخاز »

***

ثم بدلت حكومة « بيزانس [١] » لقب ملك الكرج « يوركى الثانى » بلقب (قيصر) لأن ملوك الكرج كانوا يتلقون من بيزانس القاب الشرف والامارة

واستمر « القيصر يوركى » فى محاربة (الملك خان) و (ألب أرسلان) حتى انهزم أمامهما وترك لهما البلاد وفرّ الى جبال قفقاسيا

فيؤخذ من الحوادث التى مرت فى هذه العصور أن ملوك الكرج وان استمروا فى ملكهم الا أنهم لم يكونوا ملوكا بالمعنى الصحيح بل كانوا تارة عمالا للرومان وأخرى عاملين لغيرهم بالكرجستان

***

واذا نظرنا لضعف هؤلاء الملوك والتزامهم الحياد فى حكم البلاد نجد العكس فى الملك « داويد الثانى » [٢] اذ أنه كان ملكا حقا .

حكم هذا الملك بلاد الكرج من سنة ١٠٨٩ الى سنة ١١٢٥ م وتقدمها وجعل منها مملكة متحدة متماسكة الأطراف وقضى على البقية الباقية من نفوذ العرب وضم الى ملكه كل جنوبى القفقاس وبلاد الابخاز حتى بحر الخزر

(١) بوظنطيه

(٢) المفهوم ان (داويد) هو (داود)

وكان عمره ست عشرة سنة عندما اعتلى العرش فوجد البلاد لا تزال تئن من مظالم الاحتلال والاستبداد والأهالى يسكنون الكهوف والخرابات ويلتجئون الى الجبال والمغارات خوفا من الغزو والتقتيل حتى ان الملوك أنفسهم كانت لهم مآو وملاجىء فى جبال (ليخى) بقرية (تأغوليستاو)

فوطد الأمور وطمأن النفوس ونشر السكينة بين الناس وأسكن قبائل الآستين الوديان التى خلت من سكانها وبالاجمال فقد نهض بالمملكة وأحياها بعد مواتها وجعل منها حكومة قوية قادرة على حفظ كيانها

***

وفى سنة ١١٢٢ م . زال نفوذ العرب نهائيا من القفقاس على يد هذا الملك

ونجد فى كتب العرب تاريخا مفصلا عن الادارة والحكومات العربية التى حكمت جنوبى القفقاس وكل ما يتعلق بهذا الموضوع وان كتبهم لمن أصدق الحجج المعتبرة فى هذا الشأن .

***

وقدتوفى « داويد الثانى » وله من العمر ٥٣ سنة وكانت له عند الشعب الكرجى مكانة مقدسة وترك لابنه « ديمترى » من بعده ملكا عظيما وحكومة قوية .

وتولى « ديمترى » الملك ونسج على منوال والده ووضع أمام عينيه قدسية الوطن ووجوب المحافظة عليه وعلى وحدة الأمة وتقوية المملكة ، وفى عهده كان ينقش على النقود بالعربية اسمه واسم الحاكم السلجوقى بايران (مسعود ـ ديمترى)

ودام ملكه من سنة ١١٢٥ م لغاية سنة ١١٥٤ م

ومن بعده تولى الملك ابنه « جورجى الثالث » الذى ضم الى بلاده (أرضروم) (وآنى) وما حولها كما أنه استولى على (اچميادزين) التى تعتبر أقدس الأماكن الدينية عند الأرمن ومركزهم الروحى وكعبتهم المعززة .

وبقى ملكه من سنة ١١٥٤ م لغاية سنة ١١٨٥م ومن هنا يبتدىء دور الاستقلال الحقيقى لمملكة الكرج .

* * *

ومات « چورجى الثالث » ولم يعقب سوى (طامار) ابنته الوحيدة فاتفق الكهنة والشعب على تنصيبها ملكة عليهم وزوجوها بالپرنس (نوغرود) الروسى الذى أجبر على تطليقها لانغماسه فى اللاذ والشهوات وزوجوها من بعده بالپرنس (داويد سوسلان) أحد أمراء القصحه (الآستين) سنة ١١٩٣ م (مورجان المجلد الثانى ص ٢٥٠)

* * *

جلست « طامار » على عرش الكرج وهى فى الثالثة عشرة من عمرها وكان حكمها من سنة ١١٨٥ م لغاية سنة ١٢١٢ م وعرفت أيامها بالعهد الذهبى لمملكة الكرج

وفى زمنها تقدمت الفنون والصناعات وبلغت شوطا بعيداً وكان للعلوم والمعارف التقدم المعلى كما أن الدولة كانت قوية الشكيمة بجندها وجحافلها وقهرت جيوش الفرس والسلجوقيين ولقد تجد الآن فى محفوظاتهم آثاراً لتلك الانتصارات ينشدونها ويتغنون بها وبالاختصار فان « طامار » قادت البلاد الى التقدم والارتقاء وكان عصرها من أزهى العصور التى رأتها البلاد

ولقد كانت هذه الملكة محبوبة ومحترمة لدرجة التقديس عند الجميع خصوصاً عند « الآستين » و « السوآناتى »

وتوفيت « طامار » بمنزلها الريفى (روز) الكائن بجهة قارتلين وللأسف فقد بات قبرها مجهولا لم يوقف له على أثر بسبب التخريب الذى أحدثته الأمم المغيرة على البلاد .

ايراقلي — ملك الكورج

ومعظم الفضل فى رقى الكرجستان يرجع لزوجها «البرنس داويد» الذى ضم الى المملكة كل بلاد (الكرد)حتى (ملاز كرد) ووقف أمامزحف الحكومات الاسلامية ومنعها من الاستيلاء على بلاده

وله موقف مشهور أمام جيش « روح الدين بن قلنج اسلان » الذى أتى مهاجماً من الجنوب لاحتلال البلاد

وأسلحة الكرج فى هذه الموقعة كانت من القسىّ والنبال

وتوفى « البرنس داويد » سنة ١٢١٠ وبعد وفاته استولى الكرج على بعض المقاطعات من خراسان والعراق وكان يكتب فى زمن « طامار » على أحد وجهى النقود بالعربية وعلى الآخر بالكرجية .

***

وتركت طامار عند وفاتها ابناً وابنة من زوجها داويد فاعتلى ابنها (لاسا) العرش سنة ١٢١٢ وفى مدته دخل البلاد جيش « جنكيزخان » المغولى بامرة (سوباده بهادر وجبه نويان) وهزم الكرج فى وادى (بردوسوج) ومزقهم وأفناهم وقسم البلاد الى ادارتين مستقلتين لامكان اذلالها واضعافها بهذه التفرقة .

وفى سنة ١٢٢٣ جلست على العرش (رسسودان) أخت « لاسا » ابنة طومار وهى فى حداثة السن

وفى عهدها وقعت البلاد تحت نير الخوارزميين والمغول وهلك من الكرج ١٠٠ر٠٠٠ نفس

فأمام هذه الكوارث فرت الملكة ولجأت الى (كوتاييس) واختبأت هناك وقبلت دفع الجزية للمغول وقدمت ابنها رهينة لهم

وفى سنة ١٢٤٧ توفيت هذه الملكة المنكودة الحظ وهى فى أشد حالات البؤس والشقاء وبوفاتها انقضى عهد الملوك الكرج وفقدت البلاد استقلالها

* * *

فيعلم من ذلك أن القرن الحادى عشر والثانى عشر كانا من أزهى العصور للقفقاس وبخاصة لبلاد الكرج اذ بلغت فيهما شأواً عظيما من الجاه والقوة والتقدم . وآثارهم باقية للآن تدل على ما كان للقوم من فنون وعلوم على رغم الفتن والحروب التى كانوا يخوضون غمارها وقد تجد فى كتب التاريخ الافرنجية مقالات طوالا عن وصف الصناعات الدقيقة التى كانت بتلك البلاد خصوصاً ما اشتهر به الأرمن والكرج من دقة الصنعة والكل يشهد بحذق ومهارة هؤلاء الأقوام .

وفى القرن الثالث عشر للميلاد ابتدأ انحطاط الكرج وبدأ دور تفككها وانقراضها وظهرت على انقاضها بعض الحكومات الصغيرة الضعيفة التى كانت تحت النفوذ المغولى والفارسى وقدهم « ديمترى » أحد أمراء هذه الحكومات وتطلع الى الحكم الذاتى وهو تحت السيادة الفارسية فكان جزاؤه الاعدام وتعيين بدله (اختانغ) أحد أقربائه .

وكان الفرس قد قسموا البلاد حسبما أرادوا جاعلين على كل منهما حاكما من أتباعهم وأعوانهم

بعد ذلك تجيء سنة ١٣٨٨ المعدودة من أشأم السنين على الكرج التى دخل فيها « تيمور لنك » بلاد الكرج وجعل عاليها سافلها وخربها وأحرق المدن المشهورة وأجبر ملكها « باغرات الخامس » على الاسلام . ومن بعده جاء « جورجى السابع » الذى تخلى عن الحكم لابنه «اسكندر الأول» وهو فى الثامنة من عمره ودام حكمه من سنه ١٤١٤ الى سنة ١٤٤٢

* * *

دام حكم هذا الملك ثمانيا وعشرين سنة وكان رزينا عاقلا وتقدمت البلاد فى أول عهده وانتظم حالها وقوى سلطانها ولكنه فى آخر أمره قسم المملكة الى ثلاثة أقسام ادارية :

(١) – قارتلى (٢) – إيمرتى (٣) – قاختى

ونصب على رأس كل منها أحد أولاده الثلاثة: « اختانغ » و « ديمترى » و « جورجى » واعتزل العالم ودخل الدير. ولكنه بعمله هذا قد هدم بيديه ما كان قد شيده من وحدة البلاد وتسبب فى تقهقرها الى الوراء

وقد مكن هذا التقسيم كلا من «مكريل» و« غوريا » و «ساجختى» و «شروان» و « سوآنتى » و « الابخاز » من الانفصال عن المملكة الكرجية بعد أن كانوا من جسمها وكونوا حكومات (دويلات) متمددة منفصلة الواحدة عن الأخرى سياسيا ودبت الخصومات بينهم وقاموا يقتتلون فيما بينهم.

ولقد استفادت من ذلك حكومات الترك والفرس ثم الروسيا التى تداخلت متظاهرة بحمايتهم وانما كان تداخلها فى الحقيقة لابتلاعهم وضمهم اليها. ومن وراء ستار هذه الحماية انقرضت هذه الحكومات (الدويلات) وضمت نهائياً الى الأملاك الروسية بعد أن عاشت ثلاثة آلاف من السنين ذات شوكة وعظمة.

وفيما يلى سنذكر تاريخ الحكومات الصغيرة التى شبت وترعرعت بداخل بلاد الكرج ولكنها تفتتت سريعاً تحت الضغط الروسى

الحكومة القارتالية (قارتلى)

بوسط بلاد الكرج

فى أواخر القرن الثامن عشر وفى الوقت الذى هزم فيه جيش القائد العثمانى « محمد باشا البلطجى » « بطرس الأكبر » قيصر الروسيا المشهور (الملقب بالمجنون) بجوار نهر (پرون) كان يحكم البلاد القارتالية بالكرجستان (اختانغ السادس)

ودام حكمه من (١٧١١ - ١٧٢٤) ميلادية وكان اختانغ هذا ذكياً مدبراً سياسياً حاذقا فتظاهر بالاسلام وأحيى الآداب القومية الكرجية ودبر أمور البلاد.

والعباد مما أعلى قدره ورفع شأنه ولكنه لما استولى الاتراك على « ايرتى » فر الى الروسيا وطلب معونة القيصر « بطرس الأكبر »

وفى سنة ١٧٢٩ م أعلنت تركيا رسمياً ضم جميع بلاد الكرج الى أملاكها

وفى سنة ١٧٤٤ م استولى « نادر شاه » شاه ايران على مقاطعتى « قارتلى » و « قاختى » وأخذهما من العثمانيين ونصب حاكما على الأولى « تى موزار » وعلى الثانية « ايراقلى » بن « تى موزار » فاتفق الابن مع الأب وأدارا الحكومتين متحدين حتى أنه لما شاخ الأب ترك الحكم فى مقاطعته لابنه وبذلك أصبح (ايراقلى) حاكم المقاطعتين

ولما توفى « تى موزار » سنة ١٧٦٢ ببطرسبورغ سارع (باقار) ابن « اختانغ السادس » ، الذى كانت له ولاية العهد ، الى التوجه الى تفليس لينادى بنفسه ملكا ولكنه لم ينجح وفر عائداً الى الروسيا

الحكومة الايراقلية

قد برهن « ايراقلى » على عبقرية ممتازة فى مدة حكمه ومما يذكر عنه بالفخر والاعجاب أنه أزال سلطة حكام المقاطعات وضمها كلها اليه وجعلها خاضعة لسلطته ونفوذه وأنشأ المدارس والكنائس وعمم التعليم وأوجد بعض المطابع ونشر الكتب النافعة وطبع منها آثاراً كثيرة

واستقدم من أوروبا المهندسين والصناع وشاد المصانع والمعامل فى أنحاء البلاد وشجع الصناعات وأخذ بيد التجارة وساعد على كل ما ينمى ثروة الأهالى . وترجم الى الكرجية « قانون النمسا الجنائى » ونفذه فى البلاد من غير استثناء

وكان المثل الأعلى فى حياته الخاصة يقتدى به الناس ويحذون حذوه وقد أقام

الملكة طامار الكرجية
« Tamara »

قلاعا كثيرة فى بلاده وحدودها اتقاء لهجمات (اللزكى) الدائمة على المملكة ومن هذه القلاع قلعة (سيغناغ) وهى قائمة للآن .

***

وفى الوقت الذى تولى فيه « ايراقلى » الحكم سنة ١٧٦٢ م كانت « كاترين الثانية » تربعت على عرش الروسيا و « فردريك الأكبر » على عرش پروسيا .

ودام حكم ايراقلى ٥٣ سنة على بلاد الكرج وكان يسير فى حكمه على خطوات « بطرس الأكبر » من جميع الوجوه خصوصاً فيما كان يعود على البلاد بالنفع والتقدم والترقى

وقد وصفته « كاترين » فى احدى رسائلها لـ « ڤولتير » الكاتب الافرنسي القدير والفيلسوف الشهير بأنه « حاكم عاقل يتقد ذكاء وفى الوقت نفسه مقدام صاحب صولة وقوة »

ويمكن اعتباره أنه من أعظم رجال القرن الثامن عشر وقد وصل ببلاده الى درجة عظيمة من التقدم والارتقاء بفضل ذكائه ورجاحة عقله وكانت له قوة اقناع ممتازة لترجيح وجهة نظره .

ورغم هذه العبقرية والمواهب لم يتمكن من ايقاف توغل الروسيا فى جهات قفقاسيا وتوطيد أقدامها فيها حتى انهـا فى سنة ١٧٦٥ م أقامت فى بلاد القبردى فى شمالى القفقاس قلعة (موزدوق) وفى سنة ١٧٦٩ م أسكنت (قازاق الفولجا) ما بين مدينتى (موزدوق وغربان) ، هذا من جهة الروسيا ـ وأما من جهة العجم والعثمانيين فانهم خربوا بلاد الكرج الجنوبية وأثاروا فيها الفوضى .

***

أما حياته الخصوصيه فكانت مشوبة بالأحزان والأكدار خالية من السعادة والسرور .

وكانت له ثلاث زوجات « ماريا » و « نينا » و « داريا » وله من داريا ستة أولاد

وكان يرشح لولاية العهد من بعده ابنه «جورجى» من «انينا» غير أن «داريا» كانت تعارضه بشدة فى ذلك وترشح بدورها ابنها « يولون » فهذه المحاولة فتت فى عزيمته وحطت من قوته ومع ذلك كان لا يفتأ يفكر فى مصير بلاده وسلامة وطنه .

وأخيراً لم ير بدأً أمام الصعاب التى سدت عليه المنافس من الالتجاء الى أحضان الروسيا ظناً منه أنها قادرة على النهوض بالبلاد وبقائها . ومما جذبه الى هذه الناحية ونفره من الالتجاء الى الناحية العثمانية ، الرابطة المسيحية ، التى كانت متبادلة بينه وبين الروسيا وبهذه التصرفات مهد للروسيا السبيل للاستيلاء على الكرجستان وتغلغلت بأجمعها وحقق أحلامها لتكون سداً منيعاً أمام أطماع الأتراك وتمنعهم من امتلاك جنوبى سلسلة جبال القوقاز المنيعة التى كانت مبتغاهم وغرضهم .

***

والخلاصة فقد اجتمع مجلس الحكومة فى ٢٤ حزيران (يونيه) سنة ١٨٧٣ بقلعة (غورى) وحضر هذا الاجتماع مندوب من حكومة الروسيا وقرر قبول حماية الدولة الروسية على الكرجستان بشرط أن الملك يبقى لايراقلى وأولاده وأحفاده من بعده وبعبارة أصح تقرر فى هذا المجلس أن البلاد تكون خاضعة للادارة الروسية (١)

وبناء على ذلك وعدت الروسيا من جهتها بقبولها لتنفيذ تلك الحماية .

وفى ٣ تشرين (نوفمبر) سنة ١٧٨٣ أرسلت طابورين من عساكر النيشانجية (الرماة) فدخلوا « تفليس » عاصمة بلاد الكرج بين مظاهر الشعب وتصفيقهم

(١) يراجع الكتاب الروسى (قفقاسيا بعد خضوعها) جزء ٢ صفحه ١٧٣

وفى ٢٤ كانون الثانى (يناير) سنة ١٧٨٤ أرسلت القيصرة « كاترين الثانية » لجنة فوق العادة الى العاصمة الكرجية لتتويج (ايراقلى) ملكا على الكرج ولتلاوة الاعلان الرسمى بدخول الكرجستان تحت الادارة الروسية

ومن هذا التاريخ فقدت البلاد وحدتها السياسية وضُربت الضربة القاضية فى سويداء حريتها التى فقدتها الى يومنا هذا

وأجبرت البلاد من أقصاها الى أقصاها على اتباع السياسية الروسية والخضوع لسيادة وادارة الروسيا وبكلمة جامعة على أن تكون روسية .

***

وقد أزعج هذا الانقلاب كثيراً من البلدان والحكومات الاسلامية المجاورة وعلى الأخص العثمانيين وأمم القفقاس .

وترتب على ذلك نزول اللزكى (الداغستان) بقوة عظيمة ودخولهم حدود الكرج وتخريبهم وادى (الآزان) فتصدى لهم عساكر الروس بقيادة الجنرال (ساموبلوف) وأجلوهم عن البلاد بعد موقعة دامية دامت خمس ساعات بقرية (موسى) وكان ذلك فى ١١ تشرين (اكتوبر) سنة ١٧٨٤

وقد زحف (الترك) أيضاً فى سنة ١٧٨٥ على بلاد الكرج عن طريق بلاد (ايمارتى) ومن مضيق (بورجوم) وفى الوقت ذاته استأنف اللزكى التعرض للكرج بقيادة حاكم « آوار » الشهير « عمر خان » من جهات القارتلين وأنزلوا بهم خسارة عظيمة .

ولم تتمكن الروسيا من حماية الكرج كما كان ينبغى لانشغالها باخماد الثورات التى اتقدت نارها فى شمالى القفقاس خصوصاً ضد الشيخ (منصور) وضد القبردى والچچن دفاعا عن القلعة الروسية (قزلار)

وفى سنة ١٧٨٦ م رأت الروسيا توحيد ادارة البلاد التى تحت سلطتها فى شمال

القفقاس وضمها الى ولاية (استرخان) وجعلها ولاية واحـدة وأقامت عليها (بوتمكين) الشهير حاكما عليها .

***

وظهرت عظمة الروسيا وقوتها حينما اعتلت العرش «كاترين الثانية» زوجة القيصر « بطرس الأكبر »، الألمانية الأصل، بعـد أن خنقت زوجها وقتلته غدراً، وسارت فى الحـكم على خطته التى رسمها ونفذتها بدقة وعبقرية وخلفته بجدارة واستحقاق .

واتحدت مع بروسيا والنمسا على اقتسام بولونيا لأول مرة فى سنة ١٧٧٣ م ــ كما انها انتزعت من الأتراك مدة سلطنة « عبد الحميد الأول » سنة ١٧٧٤ م « الافلاخ» (رومانيا) والبغدان والقرم واكتسبت حق تسيير سفنها فى البحر الأسود بمقتضى معاهدة « قينارچى» ــ وفى سنة ١٧٧٧ ضمت القرم جميعها نهائياً لأملاكها واحتلت بلاد الـكرج كما تقدم وبذلك أصبحت القفقاس محصورة وسط املاك الروسيا .

***

وشهرت الروسيا الحرب على تركيا سنة ١٧٨٧ م تنفيذاً للمعاهدة السرية التى كانت بينها وبين امبراطور النمسا « جوزيف الثانى » لتقسيم تركيا بينهما . وفى هذا الوقت كانت تركيا باسطة نفوذها الاسمىّ على منطقة قوبان الجنوبية ومحتلة فعلا بعض المراكز على ساحل البحر الأسود خصوصاً (قلعة انابا) المشهورة عند الجراكسة باسم (بوغورفال)

وكانت خطة الجيش الروسى تقضى باجـلاء الأتراك عن هذه المواقع وبناء عليه تقدم الروس سنة ١٧٩٠ م ووصلوا الى جوار (انابا) فقاومهم الأتراك بالاتحاد مع الجراكسة حتى حدود القبردى ولـكنهم اضطروا فى النهاية الى التقهقر والانهزام بعـد أن أسر الروس القائد العثمانى « بطال باشا » (وتوجد اليوم محطة هناك بهذا الاسم) وفى سـنة ١٧٩١ تعين الجنرال (جودويچ) حاكما عاماً على قفقاسيا وفى

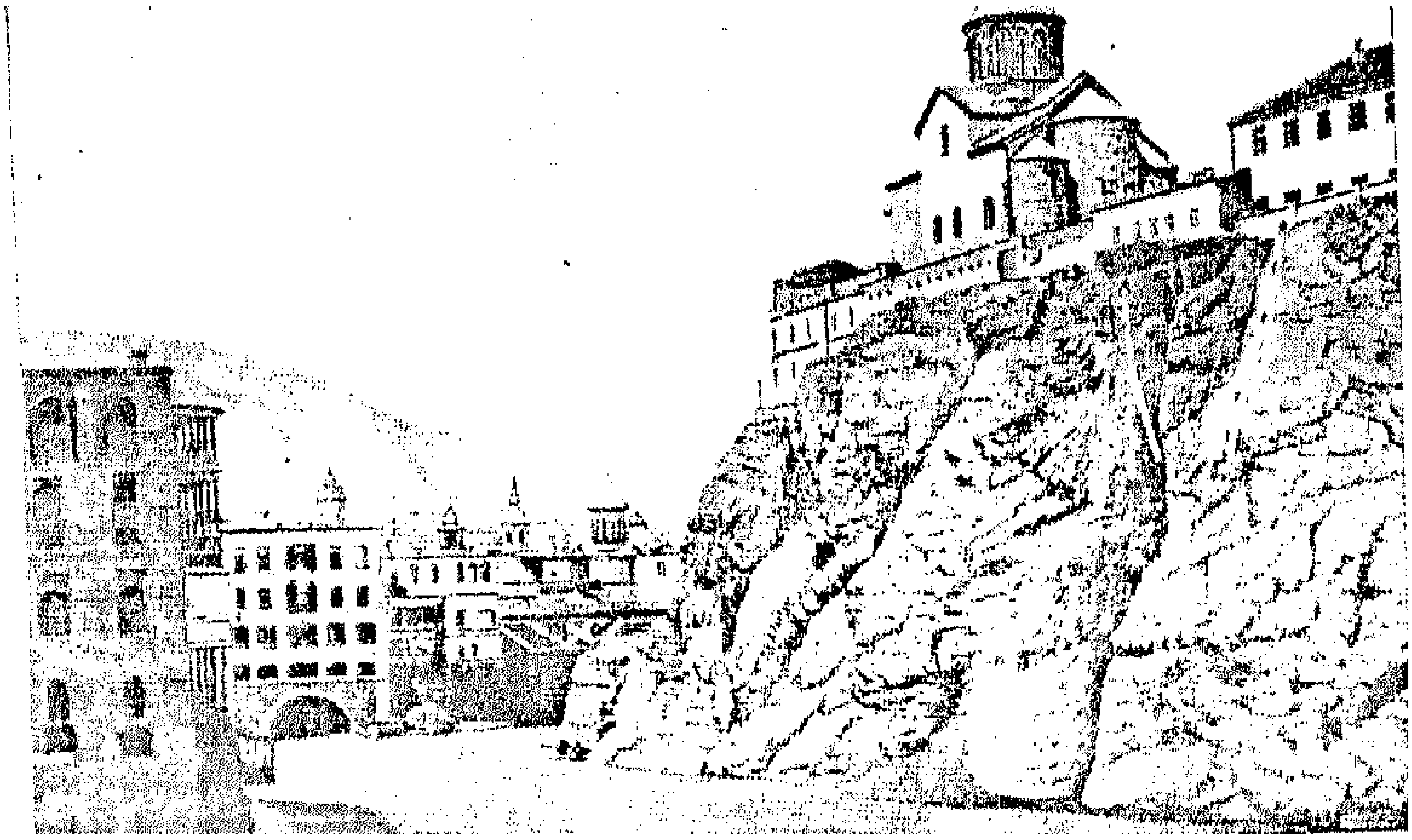

أحد مناظر مدينة تفليس

عزبة جركسية فى أوائل القرن التاسع عشر بناحية صوجى

حزيران (يونيو) سنة ١٧٩٢ احتل « انابا » ـ غير أن الجراكسة والأتراك أجلوه عنها بشجاعة فائقة . ولما رأت الروسيا حرج مركزها فى شمالى القفقاس اضطرت الى تخلية بلاد الكرج ونقلت عساكرها الى الشمال .

وفى سنة ١٧٩٢ أمضيت معاهدة (ياش) بين العثمانيين والروس فى عهد « السلطان سليم الثالث » واعترفت فيها تركيا صراحة بتبعية شبه جزيرة القرم للروسيا وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين الدلتين .

***

وبسبب تمرد « الانكشارية » وصعوبة تطبيق النظم العسكرية عليهم وما كان يجره ذلك من المشاكل على الدولة التركية رأى (السلطان سليم الثالث) حل هذه القوات وتنظيم الجيش من جديد .

وفى مدة هذا الانقلاب العسكرى الذى استغرق وقتاً طويلا اضطرت تركيا الى التزام السكون وعدم التعرض للحروب الخارجية .

وفى هذه الفترة كانت الروسيا والنمسا قد أكملتا تقسيم « بولونيا » للمرتين الثانية والثالثة سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٥ وأجهزتا عليها ومحتاها من الخريطة وفى ذلك الوقت كان « الجنرال بونابرت » الفرنساوى قد دخل مصر التى كانت جزءاً من المملكة العثمانية .

* * *

والخلاصة ان الكرجستان انتابتها ظروف سيئة ولعبت بها الأهواء السياسية خصوصاً الدينية ولهذه الأسباب لم تتمتع بحماية الروسيا ولم تتمكن من اصلاح داخليتها كما انها قعدت عن مساعدة الأمم المجاورة لها فى دفاعها عن كيانها .

وبسبب الخلاف الدينى الذى كان سائداً فيها لم تمد يد المساعدة لجيرانها المسلمين الذين كانوا هدفا لأطماع الروسيا وبذلك قضت على نفسها واستجلبت عداوة الدولتين العثمانية والايرانية .

استيلاء « أغا محمد خان » شاه ايران على بلاد الكرج

انقراض مملكة الكرج

لما وجد الشاه اغا[1] محمد خان فى سنة ١٧٩٥ م ان القوة العسكرية الروسية انسحبت الى شمالى القفقاس وأخات الكرجستان رأى أن يستفيد من هذه الفرصة خصوصاً وانه كان يحقد على (ابراقلى) ملك الكرج ويعتبره عدوه اللدود .

فلم يتردد فى تجهيز جيش عظيم والتقدم به نحو خصمه . فضم اليه فى الطريق دويلتى « روان » و « كنج » وأراد كذلك ضم « ابراهيم خان » (خان شوشا) اليه فرده هذا اعتماداً على موالاته للروسيا وعلى مناعة بلاده وقلاعه

فتركه الشاه ولم يهتم بأمره واستمر فى سيره قاصداً بلاد الكرج مخربا للبلاد حتى توقف فى (كنج) وأرسل يدعو (ابراقلى) الى التسليم والدخول تحت طاعته

فأبى ابراقلى الاذعان اعتمادا على العهود التى قطعتها الروسيا على نفسها على لسان الحاكم الروسى العام فى القوقاز بمساعدته ضد أعدائه وبنوع خاص ضد شاه ايران وبقى ابراقلى يمنى نفسه بهذا الوعد .

وبادر مستنجداً بالروسيا طالباً تنفيذ عهودها وامداده بقوة عسكرية لمساعدته وحمايته ضد عدوه الذى يفوقه عدداً .

ولكن الروسيا لم تجب نداءه لأسباب سياسية ونكثت بعهودها ووعودها له . وأهم هذه الأسباب أنها أرادت أن يفنى المتحاربان بعضهما بعضاً حتى يتم لها الاستيلاء على جنوبى القفقاس من غير مقاومة وكبير عناء . وتنفيذاً لهذه السياسة الاستعمارية ضحت ببلاد الكرج وأهلها حتى أفناهم جيش الشاه « أغا محمد خان » وخرب بلادهم وأحرق ديارهم .

---

(١) وبلغة الفرس (أقا) انقاف

* * *

فتقدم الشاه حتى صار على ثمانيـة كيلو مترات من « تفليس » عاصمة الـكرج فاضطر الملك « اراقلى » الى منازلته والوقوف فى وجهه بعسا كره ورجاله القليلين .

وأنجده جاره « سُولُومُونْ » ملك (إعارتى) بثمانيـة آلاف مقاتل والبرنس « زوراد » أمير (تسارتا) بألفين . وتصادم الفريقان وسالت دماؤهم كالأنهـار وتطايرت هاماتهم فى الهواء وتماسكوا جسما بجسم وبيعت الأرواح رخيصة فداء للوطن المفدى بالمهج وتكدست الأجساد أمام الصفوف المتراصة وداستها الخيل ودكتها تحت سنابكها دكا

فـكنت ترى الـكرج الشجعان المدافعين عن بلادهم وبيوتهم وأعراضهم قد دبت فيهم الحمية وتغلبت عليهم غريزتهم الفطرية وتمسكوا بمجد آبائهم وأجدادهم وأذكوا الموقعة ناراً حامية وقودها أجسامهم ومهجهم

* * *

ولـكن أمام الجيش العرمرم المتدفق عليهم كالسيل الجارف لم يستطيعوا الثبات لأنهم كانوا يُحصدون حصداً . وكلـا تغلبوا على فريق ظهر لهم فريقان . فاسقط فى أيديهم واضطروا للتقهقر .

وكان الملك « ايراقلى » نفسه رغم شيخوخته ممتلياً فرسه شاهراً سيفه متوسطاً المعمعة ايشعل فى قومه نار الحمية متولياً قيادة رجاله حتى قتـل جواده فتاقاه البرنس « يوان » وأردفه وراءه وخرج به من ساحة القتال . ولقد كان من « داريا » زوجة « ايراقلى » المنبوذة أن توسلت بذاتها الى الجنرال (جودوبج) أن ينجد زوجها . كما أن الملك من جهته كان يطلب النجدة منه ولو بثلاثة آلاف مقاتل .

فـكل هـذه التوسلات ذهبت أدراج الرياح فتم لشاه ايران الظفر على الـكرج ودخل « تفليس » واحتل قصر الملك واستولى على كل مافيه وأجاز لعسكره السلب

٤

تذكرابنها « يولون » بالعرش وكذلك « اسكندر » أحد أبناء « ايراقلي » الذي كان يميل الى السياسية الايرانية وله مطامع ومآرب أخرى . كما أن « ماريا » زوجة الملك « جورجي » كانت لها ميول سياسية غامضة .

فكنت ترى الأحزاب الكثيرة تمزق أحشاء الحكومة والكل يبغي كرسي الحكم تاركين وراءهم فائدة البلاد غير حاسبين لعدوتها الروسيا حسابا .

ولما علم الشاه « أغا محمد خان » بانسحاب القوة الروسية من جنوبي القفقاس فكر مرة أخرى في الزحف والاستيلاء عليه ، فسار نحو القفقاس حتى وصل (قره باغ) وهنالك اغتاله أحد المقربين اليه . فعند ذلك رجع الجيش الايراني لبلاده بناء على أمر الشاه الجديد « بابا خان » .

وبذلك نجت البلاد القفقاسية من شر ايران .

ولما رأى الملك « جورجي » الفوضى السائدة في بلاده وعجزه عن الحكم لجأ الى « پول » امبراطور الروسيا ورجاه أن يستولي على البلاد ويحميها .

فلم تتأخر الروسيا عن ارسال قوة عسكرية بقيادة الجنرال « لازاروف » واحتلت « تفليس » عاصمة الكرج وأحالت الأمور الادارية الى (كوواليسكي) وضمت الى هذه الادارة بلاد (ساختي) و (توشين) وقبائل (پشاوا) و (خاوسور) وجزءاً من بلاد (الآستين)

وبذلك أصبح قسم عظيم من جبال القوقاز شمالا وجنوبا خاضعاً للروسيا

وأمام هذا الاضطراب لجأ « اسكندر » أحد أبناء « ايراقلي » الى ايران وصار يغري الشاه « بابا خان » بالاستيلاء على بلاد الكرج .

وبينما كان « اسكندر » يهيء الظروف ويعلل النفس بالآمال لدى شاه ايران اذا بالأمير « عمر خان » (حاكم آوار)، المعتبر عندالداغستانيين بمثابة رئيس روحي، يهبط الى جنوبي القفقاس على رأس قوة عظيمة قاصداً « تفليس » ومعه « اسكندر بك » اللزكي وقومه

وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٠٠ التقى بالجيش الروسي في وادي (يورا)

واشتدت الحرب بينهما واشتركت فيه (المرتزقة) من الكرج تحت امرة البرنس « باغرات » والبرنس « يوان » .

واشتدت المعركة بين الفريقين وعظمت خسارة الكرج أمام هجمات اللزكى الصادقة عليهم وعلى العساكر الروسية . غير أن نيران مدافع وبنادق الروسيين المنهمرة عليهم جعلتهم يقاتلون متقهقرين ولم يقووا على الثبات أمام تلك النيران المبيدة .

ولا نبالغ اذا قررنا أن هذا الانتصار لم ينقذ الكرج فقط بل قد أنقذ الروسيا أيضاً وحفظ لها البقاء.

وفى ١٨ كانون أول (ديسمبر) سنة ١٨٠٠ أعلنت الروسيا رسمياً ضم بلاد الكرج اليها وبعد ذلك بعشرة أيام توفى الملك « جورجى » مقهوراً ذليلا

وفى ١٨ شباط (فبراير) سنة ١٨٠١ صارت الكرجستان ولاية تابعة للروسيا .

الحكومة الإيمارتية (ايمارتى)

هذه الحكومة كانت تعرف عند المؤرخين البيزانتيين باسم (لازيك) ومن أهم مدنها قديماً وحديثاً مدينة (كوتاييس)

ومنطقة هذه الحكومة تتألف اليوم من ولاية (كوتاييس) ونواحى (شاروپان) و (راچين)

ويقول بعض المؤرخين ان الحكومة الايمارتية كانت مستقلة تماما فى القرن الثامن للميلاد لغاية آخر القرن العاشر . وكان الأمراء « الأبخاز » (الأباظه) يحكمونها . وفى القرن الثالث عشر اندمجت فى المملكة الكرجية . وبانقسام الكرجستان عاد اليها استقلالها وحافظت على وحدتها وقوتها لغاية أواسط القرن الخامس عشر . ثم دبت فيها الفوضى والحروب الداخلية ووقعت تحت النفوذ العثمانى فى القرن السابع عشر

وبعد عدة تقلبات سياسية ضمتها الروسيا نهائياً الى أملاكها وكان ذلك فى ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٨١٠

هذه البلاد كانت تحكم فى الماضى حسب نظام (الاقطاعيات) بمعنى أن الأراضى والمزارع بكل ما فيها كانت ملكا للأمراء والأعيان . أما طبقة الفلاحين المزارعين فكانوا كأنهم أرقاء لهؤلاء السادة يعملون لسد أطماعهم وجلب الرفاهية لهم .

حكومة غوريا (كوريا)

حكومة غوريا القديمة كانت موجودة حيث (باطوم) و (أوزورگت) الآن وكانت ساحة لحرب ضروس بين « چوستنيان » امبراطور بيزانطه و « خسرو الثانى » شاه العجم فى القرن السادس للميلاد وكانت تتبع الكرجستان تارة، وأخرى تستقل بذاتها .

ثم كانت ادارتها فى القرن الثالث عشر بيد ولاة من قبل ملوك الكرج والنبلاء فى غوريا من نسل والٍ اسمه (واردونى نبرا) وبالنظر الى لفظ غوريا ذهب بعض المؤرخين الى أنهم من نسل اليهود الذين هاجروا الى تلك الجهات قديماً لأن الكرج يسمون اليهود (غوريا) والروس (أورمى) ولكن هذا خلاف الواقع ، اذ الغوريون من صميم الكرج . وفى القرن الثالث عشر كانت ادارة (غوريا) مستقلة تحت إمرة البرنس (غوريك) . وفى القرن الخامس عشر اشتبك الغوريون مع الأيمارتيين فى الحرب وفى أثناء ذلك احتل العثمانيون غوريا فى سنة ١٨٠٤ م ودخلت غوريا فى حماية الروسيا سنة ١٨١٠ م

حكومة منغرل (مكريل[١])

هذه الحكومة القديمة كانت موجودة أيضاً ما بين البحر الأسود وأنهر «ريون» و « أنكور » و « چخالى » ومكونة من منطقتى (زوغديد) و(سناق) الحاليتين ونواحيهما .

(١) Mingrélie وهى جنوبى بلاد Colchide (القولخيد)

(ومنـفـرل) هذه كانت من ضمن بلاد الـكرج وقد انفصلت عنها واستقلت سياسياً وحكمت نفسها بنفسها واستمرت هكذا خمسماية سنة تقريباً تحت إمرة حاكم يلقب (دادبان) وفلاحوها ومزارعوها كانوا أرقاء للحكام والأعيان يبيعونهم بيع الأغنام و يتصرفون فيهم كيفما شاءوا . والذى يستلفت النظر أن رجال الدين كانوا من طبقة هؤلاء الأرقاء ـ الأمر الذى جعل البرنس «داويد» حاكم البلاد فى سنة ١٨٤٦م يرفع هذا الخزى والعار و ينسخ هذه التقاليد البالية، فجعل رجال الدين من الطبقة العليا وأخذت مدارك هذا الشعب تسير تدريجياً نحو الرقى.

وفى سنة ١٨٦٧ استولت عليها الروسيا وألحقتها بأملاكها

***

وقبل أن نختم تاريخ الـكرج السياسى نرى أن نبين هنا إجماليا عادات وأخلاق هؤلاء الأماجد ومدى ماوصلوا اليه من التمدن والرقىّ.

اذا ماذكر اسم الـكرج نسل هؤلاء القوم الـكرام يجب أن يتبادر الى الذهن أنهم أرقى المخلوقات البشرية طراً : ذكاءً وملاحة وسؤدداً ، وأنهم المثل الأعلى للشرف والتضحية والوفاء ، وأنهم قوم كرام أسخياء يحافظون على كرامتهم وأعراضهم بالمهج والأرواح . وتكفيك الحوادث التى مرت بك لتعلم مقدار درجاتهم فى الشجاعة والاقدام وتفانيهم فى حب الأوطان. ولقد برهنوا أيضا على أنهم أهل فن وصناعات.

أما من حيث الملاحة وجمال التكوين وبهاء الخلقة فهم قوم لايبارَوْن ـ فتبارك الله أحسن الخالقين .

و يقول عنهم الروس انهم أهل حظ وطرب و بسبب انهماكهم فى هذا النوع من اللذة نجدهم قد أهملوا داخليتهم الخاصة و بقوا من هذه الناحية فى غاية التأخر ، واذا وصفنا الـكرج بذلك فاننا لاننسى أيضا أن جميع سكان جنوبى القفقاس كانوا متصفين بهذه الصفات . ومن هنا كان هؤلاء القوم طعمة للأرمن (يهود الشرق كما يسميهم الروس) مادياً ومالياً ، فكانوا يتحكمون فيهم كيفما أرادوا ، تحت تأثير

أموالهم . ولا تجد فى الكرج أغنياء ولا أصحاب تجارة إلا من طبقة الأمراء والأعيان فقط . أما باقى الشعب فانه من الأرقاء ومن الصناع ذوى الأجور

قبائل « خَوْسُورْ » و « پشَاوْ »

هؤلاء القبائل يمتّون الى الكرج بصلة القرابة ـ ولكنهم فرّوا منذ القدم الى جبال القفقاس وتحصنوا بها وتوطنوا فى مغاورها ووديانها

و يبلغ عدد (الخوْسور) الآن نحو ثمانية الآلاف يسكنون قمم الجبال الشاهقة وهم آخذون فى الاضمحلال والفناء .

و يتبع القوم (النصرانيـة) فى الظاهر وفى الوقت نفسه ترى العادات الاسلامية متفشية بينهم، والأدهى من ذلك أنهم يحترمون الأيام الثلاثة : الجمعة والسبت والاحد كما هو الحال عند المسلمين واليهود والنصارى ـ و يعطلون الأعمال مدة هذه الأيام .

هؤلاء قوم متعددات زوجاتهم ، وكثيراً مايطلقون و يتزوجون . ولقد حافظوا على قوميتهم ووحدتهم وعاداتهم بعدم اختلاطهم بباقى القبائل ـ ولهم فى ذلك تقاليد مرعية للآن ، منها أنهم فى هذا القرن العشرين يلبسون الزرد والدروع والأذرع الحديدية و يحملون التروس والمزار يق والقسىّ والنبال والبنادق ذات (الشُّطف)

وانك إن رأيتهم رأيت ثمّ رجالا من رجال (القرون الوسطى) وتبادر الى ذهنك أيام الفرسان الغابرين(١)

وقد دهش الامبراطور « اسكندر الثانى » أيما اندهاش لما استعرض هؤلاء الرجال عند زيارته للقفقاس بتلك الأزياء الرهيبة ـ ولقد تركوا فى نفسه ونفوس من كانوا معه أثراً عظيما

ومن عاداتهم التى يراعونها بدقة عظيمة أن لايزوجوا بناتهم إلا اذا بلغن العشرين

(١) Les Chevaliers du Moyen-Age

من سنيهن – وانه لمحظور على أى متزوج أن يستولد امرأته أكثر من ثلاثة أولاد. ويسكن رئيس العائلة بمفرده فى الدور الأعلى من بيته. أما زوجته ومن معها فيقيمون دائما فى الطابق السفلى من البيت.

فاذا نظرنا الى هذه العادات وجدناها السبب الذى سيؤدى الى انقراض نسلهم ومحو أثرهم من الوجود، واذا أضفنا الى ذلك أيضا أن طبيعة بلادهم حجرية، قحلة، لا نبت فيها، تحققنا أنهم مسوقون الى الفناء.

***

أما (البشـاوْ) جيران (الْخَوْسُورْ) فإنهم يقيمون على ضفاف نهر (يورا) بالقرب من منطقة (تَوَنَتْ) التابعة لتفليس وفى جنوبى منطقة (ارغوا)

وهم معروفون بشدتهم وشجاعتهم حتى ان (پومپى) القائد الرومانى الشهير لم ينل منهم شيئاً – وبقوا فى بلادهم المنيعة بعيدين عن كل التقلبات التى ناءت تحتها بلاد القفقاس وعاشوا بمعزل تام عن جميع الناس

ولقد كانت (طامارا) ملكة الكرج وابنها «لاسا» موضع احترامهم وتقديسهم

ومن عاداتهم احترام زوجاتهم واعطاء الحرية لبناتهم فى اختيار بعولتهن، بخلاف اخوانهم (الخوسور).

الفصل السادس

تاريخ الچراكسه (أدِيغَهْ)

كان الأجدر بنا أن نذكر، بعد الذى سردناه، تاريخ الداغستان (اللزكى) و (الچچن) ـ ولكننا رأينا ارجاء ذلك للوقت الذى سنتولى فيه الكلام عن الشهم المقدام « الشيخ شامل » (شمويل) أمير قفقاسيا، ونبين الدور السياسي الأخير الذى قامت به هذه البلاد.

***

كلمة أدغة (بتخفيف الغين) هو الاسم القومى للچراكسة ومعناها المصطلح عليه (الانسان الكامل).

وقد أجمع علماء الأنسال (علماء وصف الشعوب [1]) الذين أسموا الناس حسب لون شعور رؤوسهم : بيضاً وسوداً وحمراً على أن قفقاسيا كانت مهد الجنس الأبيض ونسبوا اليها جميع (البيض) سكان آسيا وأوروبا وأسموهم بالجنس القفقاسى .

وأشير كثيراً لجبال القفقاس فى الكتب المقدسة وذكرت فيها باسم جبل (قاف)ـ كما أن اليونان يقولون فى أساطيرهم ان « پروميتيه [2] » حامى الناس نفى الى قفقاسيا .

---

(١) لعله يقصد علم « Ethnologie » ـ الذى يبحث فى السلالات البشرية وطبائع كل منها ـ وهى دراسات طريفة كثيرا ما تلحق بالجغرافيا وتدخل أحيانا فى ابحاث علم طبائع الانسان « Anthropologie »

(٢) Prométhée ـ قد صور الانسان من الطين بحسب الاساطير الاغريقية ـ ثم اختلس من نار السماء مايحرك هذا المخلوق . فغضب عليه (جوبيتر) كبير المعبودات ثم شده بالسلاسل الى صخور جبال القوقاز ووكل به نسرا ينهش كبده الذى كان يتجدد كلما فنى ـ زيادة في العذاب ـ الخ . و «پروميتيه» يرمز به الى من يضحى فى سبيل الانسانية ـ وقال عنه بعضهم انه « مسيح الوثنية »

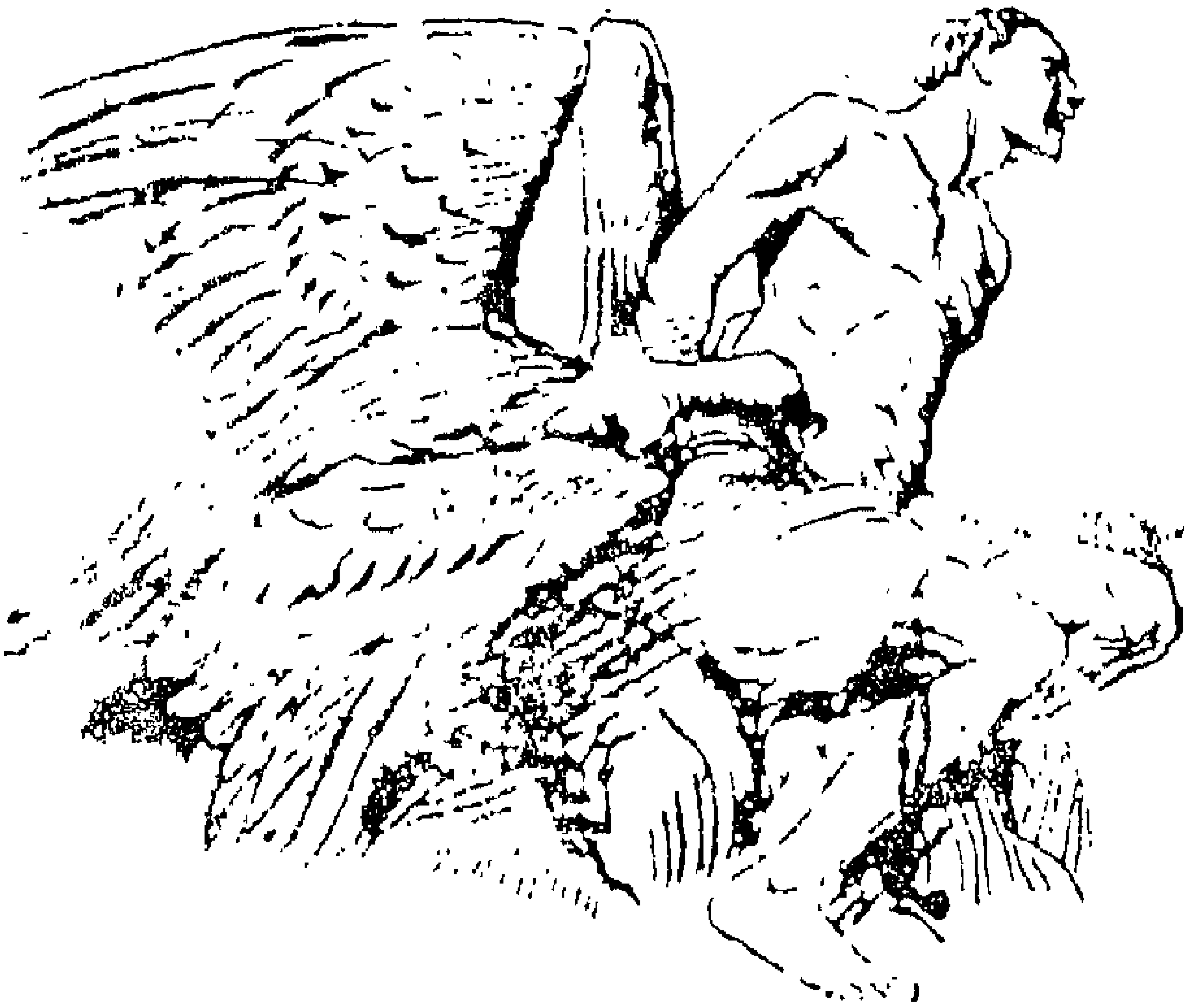

برومتيه Promethée حامل شعلة النار لبني الانسان
على قمة بجبال القوقاز

والچراكسة أقدم الأمم الذين سكنوا قفقاسيا من آلاف السنين كما أنهم المثل الأعلى للعرق الأبيض

ولا نبالغ اذا قررنا أن الچراكسة والكرج سكان القفقاس هم الوحدة القياسية للجمال الانسانى فى الوجود

وأكون قد أديت خدمة عظيمة للتاريخ وللأجيال القادمة وأكملت نقصاً وسددت فراغاً هاماً فى نظر المشتغلين بعلم الانسان (١) بتدوين تاريخ هذه الأمة الچركسية المعتبرة أقدم سكان القفقاس

***

ان أول من كتب باسهاب عن الچراكسة وتكلم عنهم هم (اليونان) (والرومان) حيث انهم امتلكوا جنوبى القفقاس وظلوا فيه قرونا طويلة وأنشأوا فيه الآثار وسبروا غور سكانه

وأهم مايرجع اليه فى هذا الموضوع ما كتبه (هيرودوت (٢)) المؤرخ اليونانى العظيم و (سترابون(٣)) و (پلين (٤))

واذا صعدنا لأكثر من ذلك نرى فى نقوش الفراعنة بمصر، والآشوريين، ذكراً لبلاد القفقاس

ويستدل من هذا أن هذه البلاد وسكانها كانوا معروفين فى أقدم العصور لدى الأمم الغابرة .

---

(١) Anthropologie

(٢) Hérodote (أبو التاريخ) ــ اغريقى من سنة ٤٨٤ الى ٤٢٥ ق . م

(٣) Strabon جغرافى اغريقي عاش من سنة ٥٨ ق.م الى سنة ٢١ أو ٢٥ م

(٤) Pline كاتب رومانى وكان حاكما على ولاية (بيثينيا) بجوار البحر الاسود عاش من سنة ٦٢ ـ ١٢٠ م

ولقد كتب (ابن جرير الطبرى) المؤرخ العربى الشهير ،وأمثاله، الشيء الكثير عن الجراكسة وتاريخهم القديم ـ كما أن المؤرخين الروسيين والانكليز والفرنسيس كتبوا باسهاب عن الجراكسة والقفقاس ، وكذلك الألمان فقد ألفوا كتباً كثيرة بشأن القفقاس الذى يعد حقاً مهد البشرية .

ومن الكتب المفيدة فى هذا الموضوع مؤلف ارنست شانتر الفرنساوى وعنوانه

Recherches Anthropologiques au Caucas

(مباحث بشرية فى القوقاز)

ومورجان الفرنساوى :

Etudes Archéologiques Historiques au Caucases

(دراسات أثرية تاريخية فى القوقاز)

ومن الكتب الخالدة عن القفقاس أيضاً ما كتبته اللجنة الروسية المنتدبة لفحص الآثار القديمة والوثائق الصحيحة فى القفقاس .

ومن هذه الآثار يتضح جلياً ما كان للجراكسة من مدنية عريقة ومجد تالد وكذلك نجد أن الأرمن والكرج كتبوا عن الجراكسة وأصولهم وتاريخهم .

وقد ظهر من بين الجراكسة رجل عظيم من (الأبزاخ) كتب تاريخاً مفصلا عن قومه باللغة الروسية وهو المرحوم (شورانوغموقه) وأسهب فى الكتابة عن القبردى وانتهى منه سنة ١٨٤٢ وتوفى سنة ١٨٤٤ من غير أن يوفق لطبعه ونشره غير أن ابنه (أروستان شورابك مرزا نوغموقه) طبعه سنة ١٨٦١ م باللغة الروسية ونشره فى ناحية (بشتاو) بالقوقاز

ونظراً لأهمية هذا الكتاب المنقطع النظير حصلت على نسخة منه بشق النفس لنفاده وندرته وعولت على ترجمته وطبعه ان شاء الله .

وانى مدين للسيد المحترم (أبوق موسى بك) بجميع أنواع الفضل والمنن لتكرمه علىَّ بهذا الكتاب المعظم النادر الوجود

محارب گرجی

واني عولت على ترجمة وجمع كل ما يتيسر لى جمعه من المعلومات الصحيحة عن تفصيلات الحياة الخصوصية الجركسية ، وأشكر مقدماً لشقيقاتى وكل من يتفضل ويتحفني من بنى جنسى ببيان عن (حياة العائلات وتفصيلات الوقائع) وكل ماله علاقة ببلادنا العزيزة،وسأذيل الجزء الثانى من هذا الكتاب بكل هذه التفصيلات .

وفى سنة ١٠٧٥ هـ ظهر كتاب (أوليا چلبي ـ واسمه الحقيق : أباظه محمد ظلى ابن درويش) الذى تعلم وتثقف باستنبول

وهو عبارة عن رحلته الى بلاد القفقاس وتكلم فيه عما رآه ببلاد الجركس وبنوع خاص عن بلاد الأباظه والكرج ويقع فى عشرة أجزاء مطبوع منها ستة والباقى مكتوبة بخط اليد وموجودة بمكتبة (برتو باشا) بدار السعادة (١) .

وكتب أيضاً عن القفقاس والجراكسة المرحوم (أحمد وفيق باشا) وقد تُرجم كتابه الى الألمانية .

ونجد أيضاً فصولا عن تاريخ الجراكسة بكتاب المؤرخ التركى الكبير « جودت باشا » (مأخوذة من مذكرات هاشم افندى ، سكرتير المرحوم على فرح باشا، الذى ساح ببلاد الجراكسة سنة ١١٩٥ هـ)(٢)

وكتب عنهم أيضاً، وألف فيهم الروايات، أشهر كتاب الترك فى زمانه الكاتب القدير والأديب الشهير (أحمد مدحت) الذى كان يقدر الجراكسة حق قدرهم ويحفظ لهم فى قلبه مكاناً خاصاً ويعترف بفضلهم

(١) وتوجد نسخة كاملة مخطوطة من الرحلة المذكورة فى المكتبة السليمية ومكتبة بشير أغا بدار السعادة (المعرب)

(٢) هذه المذكرات (مجموعة هاشم افندى) توجد بمكتبة عارف حكمت افندى شيخ الاسلام بالمدينة المنورة (المعرب)

للفيل المندثر والهيپو پوتام (فرس البحر) ببلاد القبردى والأباظه و بشبه جزيرة (تامان) بعصب نهر كوبان و بجوار (استاورو پول) وتفليس و بالدغستان فى الدور الرابع من تكوين الكرة الأرضية لما يدل على توفر شرائط الحياة لبنى الانسان فى ذلك الدور كما كانت متوفرة بغرب أوروبا (مورجان المجلد الثانى ص ٢) ومن الثابت أن المصنوعات الأولية ظهرت بآسيا وانتقلت الى أوروبا فى الدور الحجرى الحديث (دورالحجر المصقول)

ومما لانزاع فيه أن قفقاسيا كانت مهداً لصناعة الحديد والبرنز ومنها انتشر فى أوروبا وآسيا واليها يرجع فضل استعمال الحديد فى وقتنا هذا

(وسترى فيما يأتى بأن «إآله الحديد» عند الجراكسة كانت له المكانة العليا من المحبة والاحترام) و بلاد القفقاس غنية جداً بمعادن الحديد والنحاس

ان أول من خلط النحاس والقصدير معاً و كون منهما البرنز هم الصينيون ثم الهنود ومنهم انتشر ودخل الى أوروبا على يد النازحين اليها - قبل أن يعرف التاريخ - عن طريق جنوب القفقاس منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح (مورجان ج ٢ ص ٣٢-٢٩)

فيؤخذ من هذا بناء على نظرية مورجان أن - القفقاس كانت مأهولة مسكونة قبل هذا التاريخ بعصور عديدة . وأن الجراكسة كانوا يسكنونها مع أقدم سكانها لا يوجد شاهد ما يدل على أنهم نزحوا الى تلك الجهات .

فيعلم من ذلك أن الجراكسة استوطنوا قفقاسيا منذ آلاف السنين قبل المسيح وأصبحت لهم حقوق فى البلاد يصعب جداً أن يهملوها أو يتخلوا عنها وضربت بهم الأمثال فى حب الأوطان ولم تسبقهم الأمم الأوروبية فى هذا المضمار ولا أية أمة أخرى .

بناء عليه حق لهم البقاء فى القفقاس وشاهدهم على ذلك تلك الآلاف من السنين التى مرت وهم أصحاب البلاد ولم تجارهم فى تلك الميزات أى أمة كانت

منشأ الأديغه (الچركس)

قد ثبت وتحقق لعلماء الانسان أخيراً من المباحث التى أجروها بالقفقاس بعد الاحتلال الروسى ـ رغم الاختلافات التى كانت بينهم ـ أن الچراكسة من السلالة الآرية (الجنس الآرى) أى أنهم والاوربيين من سلالة واحدة Indo - Européene وسنبين هنا اجمالا النظريات والفروض التى وردت بشأن أصول القفقاسيين [1]

(١) (المعرب) تفضل عالم چركسى جليل ـ جزاه الله خيراً ـ بالتعليق على هذا البحث بالكلمة الآتية:

يقال لجبل القفقاس جبل (القيتق) أيضا على ماذكره «أبو الفداء» فى «تقويم البلدان» تسمية له باسم قبيلة تسكن عند «باب الأبواب» وهى التى تذكر فى كتب الفتوح باسم (حيداك) ويقال له أيضا (جبل الألسن) حيث كان به نحو اثنتين وسبعين لهجة من اللهجات القديمة، ولا تزال تلك اللهجات عظيمة الأهمية لمن يعنى بالمقارنة بين اللغات، باعتبار أن هذا الجبل يعد عند أهل العلم بالسلالات البشرية منشأ الجنس الأبيض. ويقال له أيضا جبل (القبق) وجبل (القبج) وجبل (القبجق) فالأولان مخففان من الثالث بحذف الجيم فى الأول، وحذف القاف فى الثانى، وها هو قد وقع ذكره باسم القبق فى شعر (البحترى) فى قصيدته السينية المعروفة حيث يقول:

مغلق بابه على جبل (القبـــق) الى دارتى خلاط ومكس

يصف ايوان كسرى ويقول كأنه مغلق الباب على ذلك الجبل الى خلاط ومكس من كثرة ما يسمع فى الايوان من لهجات تلك الجهات من حيث ان أبطال الجبل المذكور أصحاب اللهجات المختلفة كانوا حراس كسرى فى الايوان وهم كانوا تحت أمره وطاعته ويغلق باب ايوانه عليهم.

وميدان «القبق» المعروف بمصر أحدثه (الظاهر بيبرس) لتدريب الجيش المجلوب من جبل القبق على الرمى وسماه بهذا الاسم ليكون الجيش على ذكر منشأهم الأصلى، منشأ الأبطال، عند تدريبهم على الرمى حتى ينشأوا أبطالا بمعنى الكلمة بحيث يتناسب صيتهم مع صيت جبل القبق فى البطولة.

وحمل الكلمة على معنى (القرع) تعمق لامعنى له وان ارتأى ذلك «أبو المحاسن».

وأما اطلاق جبل القبج عليه فقد وقع فى شعر (سراقة بن عمرو) كما ذكره (ياقوت) عند ذكر (باب الأبواب) فى (معجم البلدان) وذلك عند ما افتتحه المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه.

بما فيهم الجراكسة وهل هم من السلالة الآرية أو من السلالة الطورانية . فقد ذهب العلماء فى ذلك مذهبين : مذهب يقول بأنهم من أصل (طورانى) ومذهب يقول إنهم من أصل (آرى) .

فيقول أصحاب النظرية الأولى ، فى توجيه رأيهم وتأييد نظريتهم ، ان قسما من سكان آسيا الوسطى وآسيا الشرقية ، المنسوبين للسلالة الطورانية، قد وفدوا الى غربى آسيا قبل أن يعرف التاريخ . ومنه وصلوا الى القفقاس ـ التى كانت غير مأهولة ـ واستوطنوها ، وجاءوا معهم بصناعة الحديد. ومنها زحفوا الى أوروبا واستولوا عليها ، ولكن لم يلبثوا حتى تألب عليهم سكان أوروبا الأقدمون وطردوهم من بلادهم فاضطر

وأما القبجق فهى كلمة جركسية الأصل معربة من (كبجك) تعنى النازح من سفح الجبل ـ وذلك أن أصول (الطبقات) كانت جرية بين سكان الجبل فى أوائل الميلاد ، وكانت طبقة الفلاحين مرهقين بالزراعة لأجل سادتهم فى سفح الشمالى من الجبل وما يليه من تلك المروج الواسعة الأرجاء . ولما ضاقوا ذرعا من هذا الارهاق قرروا الانسحاب من سفح الجبل والابتعاد عنه لى منتهى تلك المروج والصحارى فى جهة (وولجا) و (دون) حيث يكونون بمأمن من سادتهم ، فأعدوا عدتهم الانسحاب حتى تم لهم ما أرادوا وتخلصوا على هذا الوجه من الخدمة لأمراء الجبل ، فأصبحوا خدام أنفسهم ، بعد أن استعادوا حريتهم على هذه الطريقة حتى سموا القبجق باعتبار أنهم نازحون من سفح الجبل

وهؤلاء القبجق تمكنوا بسعيهم واجتهادهم على مضى الزمن من تأسيس حكومة قوية اشتهرت فيما بعد باسم دولة (الخزر) فالبيض منهم هم النازحون من الجبل ، والسمر هم المستجندون من (الخوارزميين) وبعد أن قويت شكيمتهم زحفوا الى الجبل واستولوا على القفقاس بلادهم وبلاد سادتهم فأصبحوا حاكمين بها بعد أن كانوا محكومين . فبدأ الناس يسمون الجبل جبل القبجق

وقال « شيخ الربوة أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الدمشقى » فى كتابه « نخبة الدهر » : وأما القبجق فساكنهم فى جبال وغياض من وراء (دربند شروان) مما يلى بحر الروس اه

وكذلك سمى الناس تلك الصحارى الواسعة فى شمال الجبل بين بحرى الخزر والأزق الى نهرى (وولجا) و (دون) (دشت قبجق) أو (صحراء الخزر)

والخزر بلغة الجراكسة بمعنى البحر المفرد وقد يسمون الأقوام القاطنين فى الدشت المذكور المشاركين لهؤلاء لحما ودما بالخزر باعتبار مجاورتهم للبحر المذكور

سكان آسيا الغربية لا نواشهم بينهم . وبينما كان هؤلاء المطرودون عائدين الى آسيا داهم الطوفان قسما منهم في الطريق بالقرب من جبال القفقاس فاعتصموا بها حتى تسكن الطبيعة وزوال الطوفان ، فاستطابوا الاقامة بين تلك الجبال ووديانها واستوطنوها ولم يرحلوا عنها - هكذا يقول أصحاب هذه النظرية .

وأما أصحاب النظرية الثانية فيقولون ان سكان قفقاسيا الأصليين من السلالة الآرية ، و كذلك سكان الهند ، وغربي آسيا ، وسكان أوروبا الأقدمون ، الذين ينتمون بنسبهم الى أبناء (يافث بن نوح) عليه السلام .

. . . .

ويقول بعضهم انهم سموا الخزر لانحراف في حدقتهم من قبيل مايقال ان كلمة (آدم) مأخوذة من الأدمة بمعنى السمرة لأن هذا الاسم كان يطلق عليهم قبل اتصال العرب بهم ولأن هذا الانحراف شاذ في الفطرة . ولا يوجد سبب عنائه على هذه الحالة ولأنهم انما يسمون الخزر بفتحتين لا الخزر بضم فسكون وحمله على أنه مصدر أريد به جمع أخزر بعيد .

وأما مايقوله (القلقشندي) من أن الخزر ثم (التركمان) فغلط مكشوف وان كان له في ذلك سلف فيظهر من ذلك أن القبجق مرادف للقفقاسي على هذا الوجه . ويوجد في آسيا الوسطى قبيلة تركية كثيرا ما تقصد الدشت المذكور الانتجاع كما هي عادة الأقوام الرحل على بعد دارهم فيقيمون به في الصيف ثم يرجعون الى بلادهم الأصلية فبهذه المناسبة سماهم جيرانهم (القفجاق) وهم غير هؤلاء القبجقيين لحما ودما وان شاركوهم في الاسم .

وأما مايقوله بعض (الطورانيين) عند ذكر قبيلة قفجاق في آسيا الوسطى : ان اسمهم مأخوذ من كلمتي (قوف) و (شاخ) (فقوف) بمعنى الأجوف و (شاخ) بمعنى الشجر سمي بهذا التركيب أناس تناسلوا من امرأة أحد الأمراء (الطورانيين) في قديم العهد وكأن تلك المرأة كان قد جاءها المخاض عند شجر أجوف قديم ووضعت في جوف ذلك الشجر حتى سميت أنسالها بهذا الاسم ، فتخريج غريب خرافي ، لاحظ له من الحقيقة . على أن كلمة (شاخ) كلمة فارسية بمعنى (الغصن) لا بمعنى الساق الغليظ للشجرة . وتلك أمور كثيرا مايغلط فيها من يعنى بالتاريخ في الدور الأخير لاضطراب أقوال القدماء من مؤلفي كتب التاريخ عن أحوال هؤلاء ، من العرب وغيرهم ، بسبب بعدهم عن تلك الديار ، وهذا هو الباعث للافاضة فيها بعض الافاضة ؟

سلالة العرب الساميين[1] وانهم من قبيلة (قريش) . وقد تجد هذا القول فى بعض كتب العرب التاريخية. ويدّعون أن قسما آخر من أمرائهم من سلالة مصرية قديمة أمام هذه الادعاآت والخرافات، يجب علينا أن نوضح الأمر جليا تنويراً للاذهان واظهاراً للحقيقة .

يقول« مورجان » فى الجزء الثانى من كتابه ص ٧٩ ، أن هذه الفكرة لم تطرأ على الچراكسة وحدهم بل يشاركهم فيها الكرج والقوخيد (االاز) والجميع يعتقدون أن أصولهم عربية .

وقد تجد أكراد (ارزنجان) و (خربوط[2]) و (درسم) يدعون الانتساب من قديم الزمان لقبيلة قريش العربية . و كذلك بعض الامم الاسلامية الأخرى تميل وتبتغى الانتساب للامة العربية حبا فى النبى العربى عليه الصلاة والسلام . والحقيقة أن هذه الادعاءات غير صحيحة بالمرة .

و يتبادر الى الذهن أن تعلق هؤلاء الأقوام والشعوب بالانتساب لأُمة العرب نشأ بعد ظهور الاسلام ببلادهم على يد العرب .

ولكن هذه الفكرة قديمة جداً وموجودة قبل الاسلام

وبهذه المناسبة يقول المؤرخ (دوروى[3]) ان الامم يعجبهم التفاخر دائما بأن ينتسبوا الى أصول قديمة وأنهم عريقون فى القدم ، وهذه الانساب يرتاحون اليها ويفتخرون بها . وتجد هذه الصفات متجلية بوضوح فى الامم والشعوب الشرقية ، ويضاف الى ذلك حبهم الانتساب الى الانبياء والمرسلين وكل ما هو سام وعظيم .

(١) من ابناء سام بن نوح

(٢) وتسمى (خرتبرت)

(٣) Duruy

ومن هنا يعلم سبب أساطير الجرا كسة وخرافاتهم وتخبطهم فى الانتساب تارة للعرب وأخرى للمصريين ·

يقول أبو التاريخ « هيرودت » انه عندما كان يجول بلاد القولخيد (اللاز[1]) رأى بين أهالى تلك البلاد ، وفى القفقاس نفسها ، بعض الناس من سود الوجوه فتحير من ذلك ودهش، فعمد الى البحث والتدقيق حتى علم أن هؤلاء السود يمتد أصلهم الى المصريين . فلم يكتف بذلك بل بحث بدقة مع السود أنفسهم والقولخيد فاتضح له صدق هذه الرواية بدليلين قويين:

الأول ـ سواد بشرتهم · والثانى ـ الختان (اذ من الثابت أن عادة الختان جاءت القفقاس من المصريين الذين كانوا يختتنون من القديم)

فاذا تحقق ذلك بقى علينا أن نعلم كيفية مجىء هؤلاء المصريين الى القفقاس الأمر الذى اهتم له هيرودوت كثيراً، فعلم بعد الفحص والتدقيق مع (اللاز)وهؤلاء المصريين أن (رمسيس الثانى) فرعون مصر، وصل فى حروبه الى القفقاس الجنوبية وعند عودته ترك فيها حامية من المصريين · فيحتمل أن يكون هؤلاء السود من نسل أولئك المصريين .

و(رمسيس الثانى) معروف عندالجرا كسة باسم(ساءوسريس) وكانوا يقدسونه ويحترمونه . ويقول مؤرخ الجرا كسة (شورانوغموقه) انه من المحتمل أن يكون ساءوسريس هذا (سيزوستريس)

***

أما بعض المؤرخين الآخرين ، وخصوصاً البروفسور (ريتّـتر) فيذهبون الى أن هؤلاء السود قد جاءوا من الهند .

ولكننا نميل بالأكثر الى نظرية (هيرودوت) الذى أثبت انهم مصريون، من

[1] Colchide

الآثار التي اكتشفها بنفسه ببلاد القوخيد (اللاز) والبرهان على صدق نظرية هيرودوت وجود بعض النقود المصرية بجهات حوض نهر (ريون) والنقوش الهيروغليفية التي عليها والعثور على بعض النواويس [1] المصرية كذلك .

فهذا وذاك مما يثبت أن هؤلاء السود جاءوا من مصر وسكنوا هذه البلاد ردحاً من الزمن .

أما (مورجان) فانه لايسلم أن (رمسيس) أمكنه الوصول الى القفقاس . وعلى فرض وصوله فانه يستحيل بقاء حامية قليلة من المصريين في وسط أقوام أشداء محاربين مدة طويلة . بل يقول ان دخول هؤلاء السمر الى القفقاس كان من الهند ، بسبب التجارة وتبادل السلع ، وبهذه الوسيلة أمكنهم التوطن والبقاء

(مورجان الجزء الثاني ص ٧٩)

***

هذه الفكرة، التي يبديها هيرودوت بأن السود كانوا من سكان القفقاس، ترجع الى القرن الخامس قبل الميلاد ـ وهو العصر الذي عاش فيه هيرودوت ـ والحال ان الذي صادفه في تجواله في ذلك الوقت، وبنى حكمه عليه ، بقية ضئيلة باقية من نسل هؤلاء المنقرضين الذين يرجع تاريخ وجودهم الى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد (مورجان ج ٢ ص ٨١)

أما (استرابون) و (اجزانفون [2]) فانهما لم يجدا أثراً للجنس الافريقي مطلقا بالقفقاس في القرن الأول للميلاد ، ولم يذكرا شيئاً عنه .

ومع كل هذا فان هؤلاء السود انتهى أمرهم بالانقراض قبل الميلاد ، اما لعدم ملائمة الجو لأمزجتهم، أو لاضمحلالهم واندماجهم ضمن سكان البلاد .

(١) ابيت لموتي

(٢) قائد ومؤرخ يوناني مشهور

بناء على ما تقدم، نرى أن ما ورد فى أساطير وخرافات الجراكسة من أن أصولهم عربية أو مصرية لا صحة له بالمرة. وبهذه المناسبة نقول ان الحيثيين الذين هم جراكسة (كما سيأتى تفصيل ذلك) والذين كونوا حكومات الحيثيين المتحدة[1] فى حوض الدجلة والفرات من الخطأ اعتبارهم ساميين لمجرد مجاورتهم اياهم واشتباكهم معهم فى الحروب

***

بناء على المباحث الأخيرة قد رأينا من الفائدة أن نبين هنا ماورد بشأن ما يتقوّله الجراكسة من أنهم من سلالة (السومريين)[2] تلك النظرية التي يمكننا الاستدلال عليها استناداً على ماورد فى الكتب المقدسة .

وتجد أيضاً فى كتب الكرج والأرمن التاريخية والدينية أساطير وخرافات يقصد منها أنهم يمتون الى الأنبياء الأقدمين بنسب، مثال ذلك أن الأرمن يدّعون أنهم من أحفاد (آرام) الذى ينتهى أصله الى (يافث بن نوح) ويقولون إن اسم قفقاسيا مشتق عن اسم (قاوقاس) أحد أجدادهم الأسبقين .

والكرج كذلك يزعمون انهم أحفاد (قارتلوس) الذى ينتهى أصله أيضاً الى (يافث بن نوح) ويقولون ان اسمهم الحقيقى (قارتول) نسبة الى جدهم الأكبر .

وقد يلاحظ أن الأرمن ادّعوا ، بعد ظهور النصرانية ببلادهم ، أنهم من سلالة (توغرماخ) حفيد (غومارْ ـ غَومر) من أحفاد (يافث) الذين ورد ذكرهم فى التوراة فى سفر التكوين، وزاد تمسكهم بهذا الادعاء لما رأوه فى الانجيل من الأسانيد التى تقوى اعتقادهم هذا . ونسج الكرج على منوالهم فى اعتقادهم بصحة أصولهم لما اتبعوا المسيحية بعد الأرمن (مورجان الجزء الثانى ص ٤٨ ـ ٤٩)

بناء على ما تقدم ترى أن ادعاء الأرمن والكرج ، فى شأن سلالتهم وأنسابهم، اعتماداً على ماذكر بالتوراة والانجيل ، غير صحيح .

(١) Les Etats Unis des Hittites

(٢) Cimmériens ـ شعب قديم سكن سواحل البحر الاسود (Pont - Euxin) وغزا مملكة (ليديا) فى القرن السابع قبل المسيح

بيد أنهم أرادوا التبرك بما ورد فى هذه الكتب المقدسة فقط . لأنه لا يوجد فى كتب التاريخ ولا فى علم الانسان (السلالات البشرية) ما يدعم تلك الأساطير .

* * *

واذا بحثنا بدقة وامعان فيما يتداولون رأينا أن التوراة ظهرت قبل ميلاد (عيسى) عليه السلام بألف وخمسماية سنة تقريباً .

وبما أنه ثابت ان الأرمن عند ورودهم عن طريق (البسفور) الى آسيا الوسطى «أرارات» وماجاورها، المعروفة عند الأرمن منذ القدم أنها بلادهم الأصلية وكانت (التوراة) منشرة فى تلك الجهات منذ سبعة قرون، والمعروف أن آياتها وأحكامها كانت خاصة بقوم (موسى) عليه السلام . فليس من الحق فى شيء أن يأخذمنها الأرمن مايشاؤون وينتسبون اليه . لأنهم دخلاء على التوراة وما التوراة الا كتاب (بنى اسرائيل) فبناء عليه تكون دعوى الأرمن أن جدهم هو (توغرما) غير صحيحة وخصوصاً اذا لاحظنا أن ادعاءهم هذا زاد رسوخا لما ظهر (الانجيل) بينهم واعتنقوا النصرانية (مورجان الجزء الثانى ص ٥٢)

* * *

ومن المؤكد أن أصل الكرج والأرمن غير متحد بالمرة ، لاسيما اذا علمنا أن الكرج من أقدم سكان قفقاسيا الأصليين وأنهم ملكوا جنوبى القفقاس .

وقد نجارى الكرج نوعاً ما فى ادعائهم ونسلم معهم أنهم من أحفاد (غورما ـ غومر) و (توغرما) ـ لأنه وارد فى التوراة فى سفر التكوين ما يفيد أن آسيا الصغرى والقفقاس كانتا معروفتين بمملكة (غورما) أو (غومر) وانها كانت مأهولة ومسكونة بقبائل أولاد . (ريفات ، آشر كناز ، توبال ، مشش ، تيراس ، توغورما)

* * *

اذا نظرنا لما وصل اليه علماء الانسان فى أبحاثهم الأخيرة ـ وبخاصة العالم الروسى

فرقة كرة القدم لطلبة البعثة الجركسية بالجامعة الأزهرية مع رؤسائهم وبعض رجال وزارة المعارف المصرية
من بينهم رئيس التربية البدنية — وهى أول فرقة رياضية تكونت بالازهر

(باشيوهوف) ـ فى كتابه «تقويم القفقاس» سنة ١٩١٠ صفحة ٥٣٩ ، يتضح لنا أن الچراكسة ـ الذين سكنوا من قديم الزمان منطقة سواحل بحر آزوف [1] الشرقية وسواحل البحر الأسود وحوض نهر (قوبان) ـ ينتسبون أصلا الى سلالة (السومريين (Les Cimmeriens

وهؤلاء (السومريون) حاربوا (السكيت) الآتين من آسيا حوالى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد فى جهات شمالى قفقاسيا الغربية ، وبسواحل بحر ازوف الشرقية عند مرورهم للاستيلاء على أوروبا (مورجان الجزء الثانى ص ٢١٧)

ويقول أبو التاريخ (هيرودوت) و (پلين) و (بطليموس) وغيرهم من المؤرخين والجغرافيين أن رأس السومريين هؤلاء هو (غورما ـ أو ـ غومر) الوارد ذكره فى التوراة فى سفر التكوين (الفصل العاشر)

ويؤيد هذا الرأى ماجاء فى آثار (الآشوريين) أيضاً الذين وجدوا قبل ظهور التوراة وتكلموا عن هؤلاء السومريين . (مورجان الجزء الثانى ص ١١٧)

يقول (ماسپرو) فى كتابه (تاريخ الأمم الشرقية القديمة صفحة ٣٩٢) : ان الأشوريين كانوا يسمون جبال القفقاس فى عصر « السارغونيين» [2] الجبال السومرية Monts Cimmeriens

و بعد كل هذه المباحث الدقيقة تظهر للعيان ارومة أصول الچراكسة و يتحقق أنهم من سلالة (غورما ـ غومَرْ) أو بعبارة أخرى من نسل السومريين أولاد أحفاد يافث بن نوح عليه السلام

* * *

و بناء على ماذكر وما مر بك من أن الكرج أحفاد (غُومَرْ) وأن الچراكسة

(١) بحر (أزاق) وكذلك (منتطش) فى كتب العرب
(٢) مؤسس الامرة Sargon أو Sharraukin وآل سارغون : Sargonides

ولانكون مخطئين اذا قلنا ان (سقروپس) المصرى ، هو أول من أدخل نظام الزراعة وأسس محكمة ، وأول من وضع قانوناً للزواج فى بلاد (أتيكه)[1] باليونان القديمة مبدأ مختلف الصناعات التى أتى بها المستعمرون من آسيا وقفقاسيا وأفريقية الى بلاد اليونان كما أنهم أنشأوا فيها ديناً أرقى مما كانوا يعبدون (التاريخ العام - دوروى سنة ١٩١٠ ص ٦٢)

***

ولتكوين فكرة حقة عن منشأ الشعب الچركسى يجدر بنا أن نبحث الأسماء التى سماهم بها المؤرخون والأمم المجاورة لهم .

واذا تصفحنا تاريخ (هيرودوت) نرى انه يبحث بإسهاب فى تاريخ الشعب العظيم المعروف بالسوميرين عندما يتكلم عن الأمم والشعوب القفقاسية ويروى أن هذه الأمة استولت على كل جنوبى القفقاس ثم على ممالك (الكلدانيين) و (الأشوريين) وبعد ذلك استولت أيضا على بلاد (الأناضول الصغرى) وأعملت فيها النهب والتخريب كما شاءت ، ثم وصلت لغاية (الحدود المصريه) بعد أن استولت على (سوريا) وناوأت المصريين (الفراعنة) وخربت بعض بلادهم - وانك تجد كذلك هذه الحوادث مبثوثة فى التواريخ الكلدانية والأشورية والسورية ومنقوشة على آثارهم . وسنوفى الكلام على هـذا الشعب العظيم الذى أدهشنا بفتوحاته الهائلة واستيلائه على جملة قارات . وسنتكلم أيضا عما ورد بهذا الشأن فى تاريخ الأشوريين والمصريين عند ما ندخل فى البحث عن (الحيثيين)[2] أى الأديغه .

***

ونقرأ كذلك الشىء الكثير فى تاريخ (هيرودوت) عن بحر « أزوف »

(١) Attique

(٢) Hittites

(المعروف قديماً باسم پالوس ماؤتيس [1]) وعن قبائل (السِّبَنْدِي) والأبخاز (الأباظه) الذين يعدون من أُمَّهات القبائل الجركسية الكبيرة كما اتفق على ذلك سائر المؤرخين .

أما (استرابون) الذى كتب فى القرن الأول للميلاد - فيسمى الجراكسة (جِيكَسْ أو جيكَتْ)

و (أدريان) يسميهم (تسُورخى)

و (پلين) يسميهم (سَرَستْ) أو (كَرْ كَسْ)

والحقيقة أنّ كل هذه الأسماء ان هى الا أسماء خاصة ببعض قبائل الجراكسة ، وعلاوة على ذلك قد كانت هناك قبيلة چركسية تسكن فى شمالى هذه القبائل وتسمى (سِيراكَسْ)

وقد ذكر (الرومان) بلاد الجراكسة باسم « تسوخيا » أو « جيخيا » وقد سماهم « الابرون »(الآستين)الذين جاوروهم مدة سبعة قرون قبل الميلادباسم(قازاخ - كاساك) ومؤرخو بيزانطه قد اصطلحوا على تسمية بلاد الجراكسة (قازاخيا) . كذلك أطلق الروس على الجراكسة اسم (قاسوغى [2]) . كما أن أكثر قبائل (القوزاق) التى تسكن شمالى نهر (قوبان) كانت تعرف قديماً باسم (سَركَسْ) حتى أن قبائل (القبردَيْ) - بعد أن نزحوا من مصب نهر قوبان واستولوا على « القرم » وجهاته الغربية وعادوا ثانية الى بلادهم وانتقلوا بعدها الى مصب نهر « ترَكْ » - كانوا يعرفون باسم (قازاخ مِيَهْ) وهذا نقلاعن « الآستين » . كذلك «قسطنطين بوغرانورى» الروسى كان يسمى القبائل التى بساحل البحر الأسود باسم (ياجيك).والقبائل التى تسكن الجبال باسم (قازاخ) وبلادهم (قازاخيا) (من كتاب شورانوغموقه ص ٦٥ و ص ١٩)

---

(١) Palus Méotis

(٢) Kassoghi - ويقول شورا نوغمرقة أنها قبيلة (الشابوغ) الحالية

ويستخلص مما سبق بيانه أن لقب (چركس) مأخوذ من اسم (كركس) أو (سرست) الذى لقب به قدماء اليونان احدى قبائل الچركس أو من اسم (سراكس) الذى سموا به أخيراً قبيلة أخرى من القبائل الچركسية

والچراكسة معروفون بين العرب باسم (سركس) و (سراكس) وليس هذا اللقب (چركس) مأخوذاً من اللغة التتارية كما يزعم واحد أو اثنان من مؤرخى الترك (١)

(١) ومن هؤلاء المؤرخين من يقول : ان لقب چركس أطلقه عليهم (أوغوز خان) المعاصر لسيدنا ابراهيم عليه السلام باعتبار براعتهم في الجندية لأن « چرى » بمعنى الجندى فى لغة الأتراك لقولهم « يكى چرى » بمعنى العسكر الجديد (الانكشارية) و « كس » بفتح الكاف بمعنى الرجل فيكون معنى كلمة چركس : « الرجل الجندى » ــ الا أن « كس » فارسى الأصل دخيل فى لغة الأتراك

ومنهم من يقول : ان « آتيغ خان » بن « كمر خان » الملك الحيثى الذى استولى على آسيا الصغرى كان تزوج « چيرغاس » بنت « كون خان » بن « أوغوز خان » المذكور ، فاشتهرت أنسال « آتيغ خان » من زوجته المذكورة باسم « چركس » بنوع من التغيير لاسم « چير غاس » (تاريخ أماسيا جزء ٢ صفحة ٤٧)

وذكر « البستانى » فى « دائرة المعارف » جزء ٩ ص ٤٠٤ أن مؤرخي القرون الوسطى يذكرونهم (أى الچراكسة) باسم « سيراكس » ثم قال : وشركس كلمة تترية معناها قطاع الطريق أطلقها عليهم التتر . اهـ

فكأن البستانى استخلص ذلك من كلام « چول هنرى كلاپروت » (١٧٨٣ ــ ١٨٣٥ م) ذلك العالم الألمانى الذى كانت دولة روسيا انتدبته ليقوم بتحقيقات علمية فى القوقاز فى أوائل القرن التاسع عشر حيث يقول فى مؤلفه المشهور عن القوقاز المطبوع سنة ١٨٢٣ م : « والاحتمال ــ أن لفظة چركس مركب من كلمتين تركيتى الأصل : « چر » بمعنى الطريق و « كس » بمعنى القطع . فيكون چركس بعد هذا التركيب بمعنى قاطع الطريق » اهـ

وتجويز هذا التخريج يستغرب جدا من مثله وان كان ذكره على سبيل الاحتمال دون الجزم . وأغرب منه تحويل « البستانى » ذلك الاحتمال الموهوم الى الجزم كما سبق أن نقلنا نص عبارته

والحق أن هذا التخريج خطأ صراح فان « چر » لا تأتى فى أى لهجة من لهجات الأتراك بمعنى الطريق كما لم ترد بهذا المعنى فى أى معجم من معاجمهم على كثرتها ما بين قديم وحديث . وكلمة

محارب حيثي
بمتحف برلين

تمثال حيثي
بمتحف اسلامبول

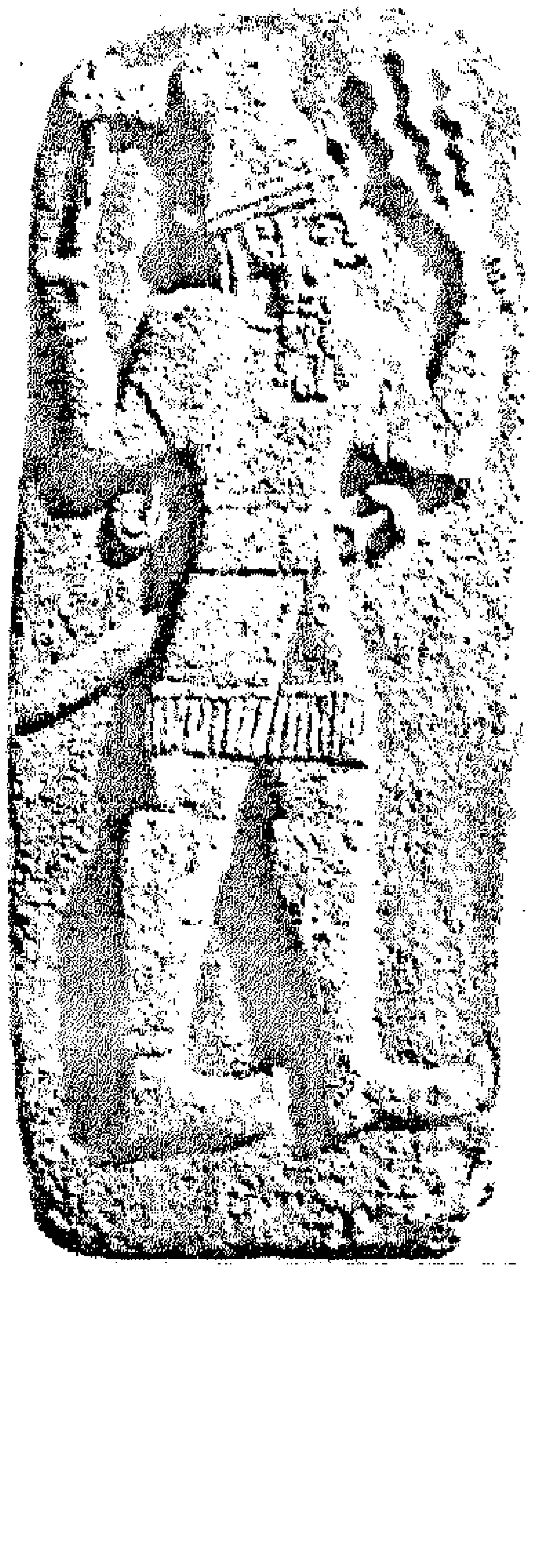

محارب حيثي
بمتحف برلين

وقد اصطلح الچراكسة وأجمعوا على أن اسمهم القومى (أديغه) التى أصلها (اتى - خه) وبمرور الزمن بدلت التاء دالاً فصارت (أديغه) أما الخاء فتلفظ ما بين الخاء والغين بخفة (شوزانوغموقه ص ١٨)

وبما أن (خه) أداة جمع واضافة بلغة الچركس ، كما قدمنا ، فيكون أصل أديغه (هاتى) أو (أتى)

وسنذكر هنا أهم النظريات التى تبين سبب هذا التعبير الذى اتخذه القوم اسماً لهم وشماراً .

« كس » وأن كانت صيغة أمر تفيد الأمر بالقطع فى اللغة التركية لكنها لا تفيد معنى القاطع الا اذا ألحقنا بآخرها نونا وقلنا « كسن »

ولغة الترك وان كانت تشارك لغة الفرس فى أن المادة الأصلية فى اللغتين هى صيغة الأمر بيد أن المادة الأصلية فى لغة الفرس اذا ركبت مع كلمة أخرى تتقدم عليها يزول عنها معنى الأمر ويفيد هذا المركب معنى اسم الفاعل بخلاف اللغة التركية فانه لايجرى فيها مثل هذه القاعدة أصلا كما لايخفى على من له أدنى المام باللغتين . فلا يكون لهذا التخريج وجه صحة لا من حيث الأفراد ولا من حيث التركيب

ويذكر (ابن خلدون) و (البدر العينى) وغيرهما من ثقات المؤرخين أن الچركس لهم أربع قبائل وهى « تركس » و « أركس » و « كسا » و « آص » وتتفرع من تلك القبائل الأربع بطون وأفخاذ كثيرة ذكروها. فعلى هذا يقرب جداً أن يكون هذا التلقيب — چركس — أتى من جيرانهم الفرس بمعنى الرجال الأربعة . وذلك أنه ورد فى كتب التاريخ العربية القديمة اطلاق اسم « جهاركس » و « چاركس » على « الچركس »

ومعنى « جهاركس » و « چاركس » بلغة الفرس الرجل الأربعة لأن « جهار » و « چار » بمعنى أربعة و « كس » بمعنى رجل

فقبيلة « تركس » هم سكان ضفاف نهر ترك (بفتح التاء والراء) فى الشمال الشرقى من جبل القوقاز ويقال لهم أيضا « تركس » و « سركس » و « تراكه » الى ألفاظ أخرى متقاربة على اختلاف اللهجات وامتداد الأزمان والعصور

وقبيلة « أركس » هم القاطنون دون نهر « أركس » القديم من مصب نهر (الرس) و(الكر) فى بحر الخزر الى الجهات الواقعة فى الجنوب الشرقى من الجبل المذكور قبل استيلاء السلجوقيين والمغول على تلك الجهات

***

مذكور فى القاموس الكبير الذى جمع ونشر بمعرفة لجنة علمية برئاسة العالم (چول تروشـو) بالجزء الثانى صفحة (٩٥) مايأتى :

« أديغـه اسم الجراكسة الأصلى ومعناه : نجيب أصيل ، انسان ، نبيل والجراكسة من السلالة الآرية وكلمة (آرى) معناها باللغة (السنسكريتية) أصيل، نجيب ، ومنها اشتقت كلمة « اريستوقرات » المدلول بها على النبلاء ذوى الأصالة »

والمصطلح عليه بين الچراكسة ، عرفا وتقليداً ، أن يقولوا لمن يريدون تقدير صفاته السامية ونبل أخلاقه : « إنك أديغه حقاً »

***

ويقول «شورانو غموقه » أن قدماء اليونان الذين قطنوا سواحل البحر الأسود الشرقية كانوا يسمون الچراكسة (تسوخ وكركت وجيخ وكركس وسرست) ومؤرخو الكرج أسموهم (جيخ) وأطلقوا اسم (جيكت) على بلادهم

أما الچراكسة فكانوا يسمون أنفسهم (تسُوخْ) أو (تسي فى) بمعنى «انسان» ولكن الأمم المجاورة لهم أسمتهم بأسماء تتناسب مع أوصافهم ومزاياهم أو بحسب طبيعة المناطق التى يقيمون فيها (تاريخ الأديغه ص ١١ و ١٧)

وقبيلة « آس » هم « الالان » كما يذكره « الحافظ الشهاب العجمى » فى ذيل « لب اللباب » وهم مقيمون فى الجنوب الغربى من الجبل من قمة (البرز) الى البحر الأسود

وقبيلة « كسا » يقال لهم أيضا « كاساك » و « كساق » وهم وراء (البرز) فى الشمال الغربى من الجبل الى سهول نهر (قوبان) وتلك الجهات

فتلك القبائل الأربع تندرج تحتها جميع البطون والأفخاذ القوقازية الأصلية وكان اطلاق الچركس على هذا المعنى الأعم قديما . وكان لفظ الچركسى والقوقازى بمعنى واحد ثم خصته (الروس) بقسم من سكان شمال القوقاز لأغراض خاصة حتى تنوسى الاطلاق الأصلى واشتهر الاطلاق بالمعنى الأخص فى المدة الأخيرة

ويستخلص ماتقدم من كتب الفتوح وكتب المسالك والممالك القديمة ومن مؤلفات الأقدمين من ثقات مؤرخى العرب — ل . م .

وقد تكون كلمة (أديغه أو أتيخه أو أديكه) مشتقة من كلمة (أنْتْ) اسم القبيلة العظيمة التى تعتبر أمّ القبائل الجركسية (أنْتْ مفردة وجمعها أنتخه وبتخفيفها مع التحريف تصبح أديخه أو أديغه)

ومصداقا لهذا الرأى فان شيوخ القبردَىْ المسنّون يلفظون هذه الكلمة على علاتها الأصلية ، فيقولون (أنتخه) وبعضهم يخففها فيقول (أتخَهْ) . وبما أن (خه) أداة جمع ونسبة ، كما قدمنا ، فيكون المقصود بأتيخه النسبة الى القبيلة العظيمة التى تسمى (أنْتْ)

ويلاحظ أن الجراكسة يعبرون عن أطفالهم بقولهم (أنتيكى صاوْ) وعن الفارس (انتيكى شـو) . وكثيراً ما توجد فى أشعارهم وأغانيهم كلمة (أنْتْ) للدلالة بها على القبيلة العظيمة المار ذكرها

وفى أساطيرهم أن أقدم شجعانهم كان يدعى (نارْتْ) وهذه الكلمة مشتقة من (نرْ ـ آنت)ومعناها (عين الأنتْ) يعنى (عين القبيلة العظيمة)(1) ولكن صحتها (آنت نرْ)

ولقد اختار قدماء المؤرخين كلمة (أنتيخه) ودلوا بها على المنطقة الكائنة عند اتصال فرع (لاب) بنهر (قوبان) .

وانك تجد ذلك فى الخريطة القديمة التى وضعها ونظمها (لاپ M. Lappes)

اعتماداً على خرط (بطليموس) و (پلين) التى ظهرت من قبل .

واذا رجعنا الى الكتاب الذى كتبه (استرابون) قبل الميلاد باثنتين وعشرين سنة نراه يطلق على نهر قوبان الحالى اسم (انتيكى تيس)

كما أن مؤلف « دربند نامه » يسمى سكان المناطق الممتدة من نهر ترَكْ الى سواحل البحر الاسود الشرقية « جولى أنتْ » . (تاريخ الأديغه صفحة ١٨)

(١) تاريخ الاديغه صفحة ١٨

ويستدل مما هو منقول من تاريخ الچراكسة على أنهم كانوا يقطنون المناطق الواسعة الواقعة فى شمالى نهر (ترك) لغاية نهرى الدون وڤولجا وعلى ساحلى بحر « أزوف » (أزاق) وغرباً صحارى (القرم).

وقد ذكر (پروقوب پاول) السائح المشهور، أنه صادف قبائل « الأنْتْ » بجوار نهر (دنيپر) Dnieper على سواحل البحر الأسود الشمالية أثناء سياحته فى القرن الأول من الميلاد

***

ويجب أن نبحث جدياً عما اذا كانت قبيلة (أنْتْ) چركسية أم لا . لأن نتيجة هذا البحث التاريخى مرتبطة أشد ارتباط بأرومة الچراكسة وأصولهم أكثر من النظريات والاستنتاجات التى قيلت فى ذلك . لأن هذا البحث مهم جداً بالنسبة الى القومية وعلم أنسال البشر . وقبل الدخول فى تدقيق هذا البحث أرى أن أسرد بعض البيانات ايضاحاً لرأى « شورانو غموقه » القائل ان لفظة (تسوخ) هى أول ما عبر به عن الچراكسة وان لقبهم (أديغه) مشتق من اسم (هات تى ـ خه) القديم . وسيظهر من بيانى وإيضاحى تاريخ أمم الچراكسة القديم منذ آلاف السنين قبل الميلاد .

***

من أكثر أسماء القبائل ذيوعاً فى التاريخ أسماء (كَرْكَتْ) أو (سَرْسَتْ) و (جيخ) أو (تسيخ) . ومن الراجح جداً أن تكون كلمة (جيخ) أو (تسيخ) مشتقة من (تسوخ) أو (تسى ق) [1] التى تأتى بمعنى (انسان)

واذا علمنا ذلك فلننتقل الى ضفة نهر (الرين) اليمنى باوروبا فى القرن الثالث الميلاد

(١) هذا الترديد فى الاشتقاق راجع الى اختلاف اللهجات بين القبائل الچركسية . فكلمة (تسوخ أو تسوخى) تلفظ بها بعض القبائل (تسى ق) والمدلول واحد عند الجميع ولا خلاف بينهم فيه ومعناه : انسان

لنرى أنه كان مسكوناً بقدماء الجرمان (Les Anciens Germains)

وكانوا يسمون سكان الشمال باسم (الالمان) (Les Allemands) بمعنى (انسان) وهم الألمانيون الحاليون ، ويطلقون على سكان الجنوب اسم (الفرناك) (Les Francs) بمعنى (الشجعان) وهم الفرنساويون الحاليون . (التاريخ العمومى لدوروى سنة ١٩١٠ ص ٢١٩)

واذا طبقنا هذه النظرية على اشتقاق (تسوخى) أو (تسى فى) نخرج منها بنفس النتيجة التى ذكرت بشأن الألمان والفرنسيس. لانه من الثابت أن (قبيلة تسوخ) أو (تسوخى) كانت ضمن الاتحاد الامبراطورى لحكومات «خات تى» (الحيثيين) .

ومن الثابت أيضاً أن (الحات تى) الجنوبيين لما ذهبوا الى جبال القفقاس واستوطنوا فيها كانوا يحملون اسم (أتيخه) كما أن قبيلة تسوخى بقيت ساكنة فى موطنها (تسيخى) أو (جيخيا) بقفقاسيا

هؤلاء (التسيخ) كانوا يسكنون فى المكان الذى يتصل فيه نهر (الخابور) بنهر (الفرات) وفى الأماكن المجاورة له فى عهد « رمسيس الثانى » فرعون مصر ، وقبل هذا كانوا يقطنون فى الجنوب الأقصى من ذلك وحوالى مدينة (بابل) التى كانوا مستولين عليها .(مورجان الجزء الثانى ص ٦٨ وماسپرو تاريخ الأمم الشرقية القديم ص ٢٠٠ و ٣٩٢)

وعدا ذلك، يلاحظ أن (القاسخى) وهم من أقدم القبائل الجركسية ومن أعضاء (اتحاد حكومات الحيثيين) قد عرفوا أخيراً باسم (قاسوغى) [1] وهم أول من حارب الروس المستعمرين بالقرب من شبه جزيرة (طامان) عند مصب نهر قوبان فى البحر الأسود، وكان ذلك فى القرن العاشر للميلاد .

[1] ويقول شورانوغموقه انها قبيلة (شابسوغ) الحالية

ومما يلفت النظر بهذه المناسبة تسمية « الآستين » للقبائل الچركسية التى فى شماليهم (قاسَكْ) [1]

***

بعد ذلك تجىء قبيلة (كيرقاش) الداخلة فى (اتحاد حكومات الحيثيين) أو من القبائل المجاورة لها . وقد نجد تشابها عظيما بين (كيرقاش وسركس وچركس) ونكاد نجزم بأن قبيلة كيرقاش قد تكون قبيلة (سيراكس) التى ثبت وجودها بشمالى القفقاس فى القرن الأول للميلاد (مورجان الجزء الثانى ص ٦٨)

وخلاصة القول، بعد كل هذه المباحث التاريخية الدقيقة، انه يوجد تناسب قوى بين لفظ (اتى خه) أو (هاتى خه) و بين لفظ (هات تى خه) بل يظهر أن مسمّى هذين اللفظين أمة واحدة

***

والآن نقرر ماأثبته المؤرخون وعلماء الأنسال، أن الچراكسة من أقدم الشعوب التى وجدت على وجه البسيطة ، وأنهم حافظوا على قوميتهم وجنسيتهم ، ولم يختلط بدمهم دم آخر ، ولم يدسّ فى عرقهم عرق أجنبى ، رغم تقاب وتعدد الفاتحين والمغيرين على بلادهم ، وأنهم كافحوا وحاربوا وصبروا وصدوا عنهم مصائب جمة فى سبيل بقائهم وبقاء نسلهم وعقبهم خالصين من الأجناس الأخرى .

ومما لا شك فيه أنهم استولوا قبل المسيح بقرون كثيرة على جنوبى القفقاس ، وآسيا الصغرى ، ونصف مجرى الدجلة والفرات ، وسوريا ، وفلسطين حتى حدود مصر الشرقية .

وقد هابهم الكلدانيون والآشوريون والمصريون والأقوام المجاورة لهم لعظمتهم وجبروتهم — ودام ملكهم آلاف السنين وهم ضمن «الاتحاد الامبراطورى لحكومات

(١) معناها بلغة الآستين « بعيدالنظر » (المعرب)

الحيثيين» ونشروا مدنيتهم العظيمة بين جميع شعوب آسيا الصغرى وسوريا. ويوجد في تلك البلاد من الآثار مايثبت ذلك .

وقضت سنة الله في خلقه أن تنقشع الغشاوة التي كانت على عيون الكلدانيين والأشوريين ليبصروا بريق النور وتنكشف أمامهم الحقائق ويفهموا مزايا الاستقلال فشمروا عن ساعدهم ووثبوا كرجل واحد ـ وسرعان ماتشتهي النفوس ذلك ـ وشكلوا حكومتيهم وتقدموا شمالا مستولين ، متوسعين على حساب حكومات الحيثيين (الهيتيت) وباستمرار التقدم والترقي في الخليقة البشرية ، دبّت هذه الروح أيضا في اليونانيين الذين كانوا داخلين ضمن امبراطورية الحيثيين بآسيا الصغرى فأرادوا التضخم والتوسع . فزحفوا الى شرقي وشمالي غرب الحيتيين وهددوهم هناك . وحانت الفرصة للمصريين للاستيلاء على سوريا ولكنهم احجموا ولم يستفيدوا منها .

وبقيام هذه الشعوب على الحيثيين انقسمت امبراطوريتهم شيعاً وقبائل ودبّت الفوضى في صميمها ولم تقو على الثبات أمام ارادة هذه الامم . فتراجعوا الى منابع الدجلة والفرات . وفي نهاية الأمر وصلوا الى جنوبي القفقاس وسواحل البحر الأسود واستقر رأيهم على التوطن في جبال القفقاس

وهذا كله ثابت في تاريخ الأشوريين والمصريين (مورجان ـ ج ٢ ص ٥٣ و ٧٦ لوحة ٤ وماسپرو الطبعة الرابعة ص ١٨٠)

وقد ثبت أخيراً من البحث في نواويس وتوابيت موتى الحيثيين التي صنعها المصريون في عهد الفراعنة وحفظوها بمصر ، ومن التدقيق في وجوه وتكوين هيا كل هؤلاء الموتى ومن ملابسهم وأزيائهم ومعتقداتهم أنهم أجداد هؤلاء الجراكسة بلا نزاع .

ومما هو جدير بالنظر أن الخط (الميخى) وباقي العلامات (الهيروغليفية) التي اخترعها الحيثيون واستعملوها لا تزال مستعملة عند الجراكسة للآن كشارات وعلامات للعائلات ، والأفخاذ ، والقبائل .

ومن البراهين القاطعة على أن الجراكسة أحفاد الهاتيين (الحيثيين) ان البقية الباقية من لغتهم مع قلتها تنطبق تمام الانطباق على لغة الجراكسة وتنسجم معها ولا يفرق بينهما فارق .

ومما يؤسف له حقاً أن الجراكسة لم يفكروا يوماً ما فى تدوين لغتهم ومدنيتهم، لتكون مرآة لهم يتلقاها الأعقاب عن الأسلاف، وتكون أثرا خالداً لعظمتهم وشوكتهم ومدنيتهم ، خصوصا اذا علمنا أن أجدادنا « الهاتيين » لهم القدح المعلى فى نشر المدنية العظيمة بالقفقاس وآسيا القديمة لغاية الحدود المصرية . ولهم فى ذلك آثار تدل على ما كان للقوم من عزة وجاه تزدان بها بطون التاريخ الافرنكى .

وعلماء الآثار يكشفون القناع ليومنا هذا عن آثار هؤلاء « الهاتيين » والذين يحلون الكتابات التى على آثارهم القديمة يقرون أنه لاتشابه مطلقاً بين لغة هذه الكتابات ولغات العرب أو الروم أوسائر الأقوام القديمة و يكتفون بالقول بأنها محررة بلغة القوقاز، و يئسوا من نسبتها الى أى لهجة من لهجات الشعوب القفقاسية .

* * *

وانى آسف أيضا لعدم وجود مرجع صحيح قوى يعول عليه عند البحث فى لغة الجراكسة ومصدرها وانتسابها لأى اللهجات فى القفقاس .

ومن المعلوم أن أقوام تلك البلاد القديمة هم : الجراكسة ، والكرج ، والقوصحة والداغستانيون، والأرمن .

فالقوصحة جاءوا القفقاس من جهات ايران والأرمن من جهات وسط وغرب الاناضول فى القرن السابع قبل الميلاد ولم يدخلا ضمن اتحاد حكومات الهاتيين ـ وكان الهاتيون ومشخى (الكرج) شعبين مختلفين عند ماتراجع الحيثيون الى جنوبى قفقاسيا وانتقل الحكم الى (تابال) من الهاتيين ثم الى مشخى (مورجان ج ٢ ص٨٤ و ٩٣) والداغستانيون معروفون قديماً باسم (ليك) أو (ليكس) كانوا فى جنوبى القفقاس،

مجاهد — حامل العلم

وداخلين ضمن اتحاد حكومات « الحيثيين »

بقى عندنا الچراكسة الذين حافظوا على اسم (اتيخه) التى مصدرها (هات تى) أعنى الهاتيين عنوان أجدادهم الأولين ، فلا ندحة اذن من القول بأن لغة الحيثيين هى لغة الچراكسة

ومما يثبت ذلك بصورة قاطعة البيان الآتى :

فى عهد (ستى الأول) ، من ملوك الفراعنة كان (ماؤو ـ زير Maou-zir) من الحيثيين ، ملكا على آسيا الصغرى . وفى عهد (رمسيس الثانى) ملك مصر، سنة ١٣١١ قبل الميلاد كان (ماؤو ـ طوْر Maou – thour) ملكا على آسيا أيضا (مورجان ج ٢ ص ٨٠)

وبتحليل اسمى هذين الملكين من الحيثيين نجد أن انقاطع الأخيرة لهذين الاسمين وهى : «زير» و«طور» تدل على أسماء اعداد ومعناها بالجركسى كالآتى :

«زى» معناها واحد ـ « طؤ » معناها اثنان

« زير» معناها: الأول«طؤر»معناها: الثانى بناء عليه يكون معنى هذين الاسمين : (ماؤو[1] الأول) و(ماؤو الثانى) وهذا دليل على أن لغة الچراكسة هى لغة الحيثيين (الهاتيين)

واسم (ماؤو) و (داؤو) منتشرين فى الچراكسة و يتسمون به كثيراً الى الآن

وقد وجد فى أواسط القرن الرابع الميلاد حاكم من أمراء الچراكسة باسم داؤو[2] فى وادى (باقسه) بشمالى القفقاس (شورانو غموقة ص ٤٣)

ولبّ اللباب من بحث الكاشفين والمؤرخين المشهود لهم بعلو كعبهم فى علومهم أن الچراكسة أحفاد الحيثيين

وانى مدين فى بحثى هذا لحضرة الاستاذ الجليل «احمد رفيق بك» صاحب كتاب (التاريخ العام) وأتوجه بالثناء الى ادارة مكتبة (اسلام وعسكرى) التى يصح لها الفخار بأخذها على عهدتها طبعه ونشره

---

(١) ماؤو بمعنى الترس بلغة الجراكسة « المعرب »

(٢) وداؤو بمعنى المصغى « المطيع » بلغة الجراكسة « المعرب »

تاريخ الأديغة القديم

١ ـ مباحث عامة

قد علمت مما سبق ما كان للأديغة ـ المعدودين من أعرق وأقدم الأمم ـ من مدنية عظيمة ودولة ذات شوكة وجبروت ومجد تالد فى تاريخهم القديم ـ ثم أتى عليهم حين من الدهر تضاءلوا فيه وابتدأوا فى دور الانحطاط .

هكذا سنة الله فى خلقه ـ ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ وما من شئ فى هذه الدنيا الا ويبتدئ صغيراً ثم يترعرع ويكبر حتى يبلغ منتهى الكمال ، ثم يجئ دور الشيخوخة والهرم حتى الانحطاط والزوال .

فنرجو من الله القدير أن لا يحكم على هذا الشعب النجيب بالفناء، بل ينفخ فيهم روحاً من عنده ويهديهم لما فيه بقاؤهم ودوامهم واعادة مجدهم القديم .

واذا بحثنا عن تاريخ وجودهم ومبتدأ خلقتهم نرى أن ذلك يتلاشى ويختفى فى ظلمات الأجيال الأولى التى لم يعرف لها بداية . اذ من المعلوم ، كما قدمنا أن الجراكسة وجدوا منذ آلاف السنين قبل التاريخ المسيحى . والفضل فى بقائهم وبقاء أعقابهم وذراريهم من بعدهم الآن ، رغم ماعانوه من فظائع الحروب وخوضهم غمارها أمام الفاتحين والمغيرين من غير انقطاع، راجع الى طبيعة بلادهم المنيعة وشدتهم وشجاعتهم واستبسالهم ضد أعدائهم ، وصفاتهم الحربية الجيدة التى ضربت بها الأمثال وصارت حديث العالمين .

ولاعتقادهم الراسخ أنهم أمثل الأكمل نامرق الأبيض، وأنهم يرون الغير دونهم أرومة ، ترفعوا عن الاختلاط بهم حفظاً لهذا العرق الممتاز من أن يخالطه من هو دونه .

وبهـذه الوسائل المشرفة أمكنهم البقاء مطهرين فى أنسابهم من غير أن يمسسهم عرق أجنبى ، فحق لهم الافتخار بينما ترى الأمم الأخرى – التى أصابها ما انتاب الجراكسة من حكم المغيرين والغالبين – قد اختلطت أنسابهم وجرت دماء الغير فى عروقهم ولم يحافظوا على صفاء نسلهم، فـكانوا خليطاً من أقوام مختلفين

كذلك بقيت لغتهم مصونة من الدخيل عليها والغريب عنها الى يومنا هذا ، كما يقرر ذلك كل علماء الانسان.

وقد قرر العلماء المشتغلون بتقسيم وتصنيف السلالات البشرية خصوصا العالم (بانتيوهوف) بعد البحث العميق فى تكوين أجسام الأديغة ودرس أجزائها بأنهم من السلالة (الهندية – الاوربية)الـكيمريين (السومريين Les Cimmeriens) أحفاد (غومَرْ) الذى كان علما للأمم والشعوب الذين سكنوا جبال ققفاسيا وسهولها وآسيا الصغرى منذ آلاف السنين .

ويوجد اليوم باوروبا عدا الجراكسة ، شعوب كثيرة يمتون باصولهم ونسلهم الى (الـكيمريين) ، أحفاد غومر من السلالة (الهندية – الاوربية) .

***

فى القرن الثامن قبل الميلاد كان السيت (السكيت) مستولين على شمالى جبال القفقاس لغاية الجهات الجنوبية لبحر أزوف (ازاق) – وربما كان ذلك قبل التاريخ المذكور – فهؤلاء السّـيت ضغطوا على (الـكيمريين Les Cimmeriens) أهالى تلك البـلاد وشطروهم الى شطرين : فبقى قسم منهم بجبال القفقاس وحواليها ومنهم ظهر (الأديغة) والـكرج (قارتول) ، واقسم الآخر سار نحو الغرب أمام ضغط (السّـيت) حتى توسطوا أوروبا – وفيما بعد، واصلوا سيرهم لغاية « الجول » (فرنسا القديمة) واستوطنوا فيها .

ومن المحتمل أنهم واصلوا زحفهم الى جهات الشمال حتى وصلوا الى شواطئ

الجزر البريطانية التي كانت خالية من السكان أو ان سكانها كانوا قليلين جداً واستوطنوا بريطانيا وايرلانده والجهات الشمالية للجزائر البريطانية

وقد أجمع علماء الانسال البشرية والمؤرخون الاوربيون على حقيقة حصول هذا الاستيطان بتلك الجهات . وتصديقا لذلك نجد أن أسماء بعض الجبال والأنهار حتى أسماء الأعلام من الناس خصوصا فى بريطانيا وايرلنده تؤيد هذه النظرية .

(وسنبين فيما بعد التقارب والتشابه بين تلك الأسماء وبين ما يقابلها او يتفق معها فى لغة الجراكسة) .

***

وقد يلاحظ شدة تمسك أشراف الانكليز وأمرائهم بعاداتهم وتقاليدهم القديمة الموروثة عن أسلافهم منذ آلاف السنين، ومباهاتهم بأصولهم وتمسكهم فى ذلك للدرجة القصوى .

وكذلك نلاحظ هذه الظاهرة ـ وبالاسلوب عينه ـ عند نبلاء وأمراء الجراكسة ووجه الشبه فى الامتين فى هذا الموضوع يكاد يكون واحداً

كما أن التقاليد والعادات القومية الجركسية حكمها حكم القانون بينهم ، يتقاضون ويحتكمون بموجبها ، كذلك قانون الانكليز مصدره عاداتهم وتقاليدهم ،جرت عليه محاكمهم واكتسبت قوة القانون المتعامل به فى باقى الممالك

ورغم أن عادات وتقاليد الجراكسة غير مدونة فى كتب ، فأنها مرعية التنفيذ ومعمول بها بدقة ونظام منذ آلاف السنين .

ويمكن القول بأنها محفوظة ومرعية أكثر من مثيلاتها المدونة فى الكتب .
وهذا القانون يعرف بينهم باسم (أديغه خبزه) . واذا دققنا جيداً فى لغة الجراكسة التي حفظت نقاوتها وصفاوتها من الدخيل عليها والغريب عنها لتأكدنا أنها معدودة من اللغات الاوروبية التي مصدرها (الهندية ـ الاوربية) .

وسنوفى هذا البحث حقه فى الباب الخاص بذلك .

٢ ـــ العصر الأوليّ

لمعرفة تاريخ الدور الأولى للچراكسة يجب أن نبحث عن مصدر ومنشأ اسمهم (آدى غه) الذى عرفوا به · وقد وفيت هذه الكلمة حقها باحثا عن مصدرها وكيفية التلفظ بها وما الى ذلك من المباحث التى مرت بك

كذلك أثبت فيما تقدم بجملة براهين أن الأديغه هم أحفاد (الهات تى ـ الحيثيين ـ Hittites)

واذا تقرر ذلك فان تاريخ وجود الحيثيين يعنى الچراكسة فى بلاد القفقاس وحواليه واستيلائهم على آسيا الصغرى لا يمكن تعيينه مطلقا ، لأنه كان قبل التاريخ ـ وغاية ما يمكن الاستدلال عليه أن الحيثيين (الهاتيين) و(قدماء المصريين) و(الاشوريين) عرفوا من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد (مورجان المجلد الثانى ص ٥٣ ـ ٥٥)

وبناء عليه فالچراكسة يعتبرون كالمصريين والصينيين فى القدم ، ويرجع الفضل كل الفضل فى معرفة تاريخ الهاتيين (الحيثيين) للعلامة الانجليزى (سايس[١]) الذى حل رموز الكتابات والنقوش التى وجدت على آثار الحيثيين الكثيرة بآسيا الصغرى واستدل منها على تاريخهم ومدنيتهم العظيمة وما كانوا عليه من تقدم ورقى ، وقد خدم العلامة سايس التاريخ خدمة جليلة لاحدّ لها بكشفه القناع عن رموزهم وآثارهم

كذلك يرجع الفضل للعلامة الفرنساوى مورجان صاحب الكتاب القيم (تاريخ ومنشأ أمم القفقاس) الذى أظهر للملأ بعد البحث الدقيق ان الحيثيين هم أجداد الچراكسة وأن باقى الأمم التى كانت ضمن « الاتحاد الامبراطورى لحكومات الحيثيين » هم أيضاً أجداد الشعوب الاخرى التى توجد بالقفقاس ·

(١) Sayce

ويقرر العلامة الكبير (لونورمان Lenormant) صراحة أن الحيثيين (Les hittites) أصلهم من القفقاس

وفي الواقع ان ما أظهره هؤلاء العلماء من خفايا عادات وتقاليد الحيثيين وملابسهم ولغتهم وتكوينهم الخلق وأحوالهم الاجتماعية تتشابه وتنطبق تماماً على أحوال ونظام وعادات الجراكسة .

***

ويجب أن لا يتطرق الى الأذهان أن الحيثيين جاءوا بلاد القفقاس بعد تشتيت امبراطوريتهم العظيمة التي كانت تمتد وتشمل آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وسوريا الغاية الحدود المصرية . بل انهم كانوا يقطنون وطنهم وبلادهم الأصلية ، قفقاسيا من قبل هذا التوسع العظيم وتكوين امبراطوريتهم الكبيرة

والتاريخ القديم مملوء بالأدلة والبراهين على أنهم كانوا أمة عظيمة كثيرة العدد تسكن منطقة واسعة مترامية الأطراف .

والثابت في التاريخ أن عصرهم الذهبي كان في القفقاس في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وأعظم ملوكهم في قفقاسيا الغربية على سواحل البحر الاسود كان (أإيتس Aètes) كما قدمنا الشهور بعظمته وجبروته وأمواله الطائلة حتى كان ذلك سبباً في اشهار الحرب عليه طمعاً في ماله - جاء ذكر ذلك في أسطورة (أرجونوت) Argonautes عند قدماء اليونان

ويعلم مما تقدم أن (السّيت) قسموا الحيثيين سكان القفقاس الى قسمين :

الأول - « هتيت » القفقاس وهم القسم الشمالي

الثاني - هتيت (قاپادوسيا Cappadoce - آسيا الصغرى) وهم القسم الجنوبي

وبناءً على هذا التقسيم الذى لا يعلم مبدؤه بالضبط - نبدأ بحثنا . وقد دام هذا التقسيم بين الحيثيين سكان قفقاسيا لغاية القرن التاسع قبل الميلاد

وفى هذا التاريخ تراجع الحيثيون من آسيا بعد انتصارات الأشوريين وغيرهم كما قدمنا الى وطنهم الأصلى وسكنوا مع مواطنيهم وعشائرهم الأولين . ومن هنا يبتدىء تاريخ (الهات تى : Hittites) فى القفقاس .

* * *

أما تاريخهم قبل ذلك فان المعلومات والمراجع الخاصة به معدومة الى الآن ولذلك لايكاد يكون لهم ذكرى الا لصناعتهم الحديدية التى اكتسبوا فخر ايجادها وابتكارها.

وقد اختلطت ذكرياتهم فى أساطير الأولين وخرافات اليونانيين ولم نجد لهم خبراً يعتمد عليه سوى ماخلفه هيرودوت المؤرخ اليونانى وما كتبه (شبْلو ـ Cheblot) فى كتابه المشهور .

وبعد أربعة قرون من هذا التاريخ يجىء (سترابون) بمعلومات أوفى ومباحث أوسع عن القفقاس .

وعلى ضوء هذه المعلومات وما جاء به الفرنسيس من المباحث سنبنى بحثنا عن تاريخ (الهتيت ـ الحيثيين ـ hittites)

(المعلومات والمباحث الآتية منقولة من كتاب مورجان والتاريخ العام تأليف أحمد رفيق بك وقد ذيلت بمطالعاتى على بعض المواضيع المهمة)

* * *

لمحة من تاريخ الحيثيين

من المعلوم أن الحيثيين كانوا موجودين فى وسط آسيا الصغرى (قاپادوسيا [1]
من قديم الزمان وقد توسعوا فيما بعد نحو الجهات الغربية . وكذلك زحفوا الى جبا
(طوروس) وتخطوها واستمروا فى زحفهم حتى (كيليكيا) ومنطقة (أطنه) وأواس
الدجلة والفرات حتى وصلوا فى وقت ما لغاية الحدود المصرية .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن الحيثيين يمتون بعرق الى (الهكسوس) وأنه
اشتركوا معهم فى الاستيلاء على مصر .

وقد عنى قدماء المصريين بتحنيط جثث الحيثيين وحفظوها بعناية فى نواويه
وتوابيت ونقشوا عليها كتاباتهم ووصفوا شمائلهم وصفاتهم وأزياءهم وأسلحتهم و
الى ذلك من آثارهم وها هى محفوظة لليوم بمصر شاهدة بما كان لهذه الأمة من مج
باذخ وهى برهان صادق على صحة ما كتب عنهم المؤرخون والمنقبون عن مدنيتهم ورقيه

واذا دققنا النظر فى وجوههم وخلقتهم وتركيبهم الجسمانى نرى أن لا فرق ولا تمي
بينهم وبين شعوب القفقاس الحاليين كما أن نتيجة البحث عن لغتهم أثبتت أنها م
لغات أهل القفقاس .

١ — ملابسهم وأزياؤهم وأسلحتهم

كانوا يلبسون على رؤوسهم غطاءً من الفراء (Poileux) ويرتدون (جاكيت
لغاية الركبة أو أطول منها لغاية كعب القدم تلتحم على الكتف اليمنى بمشبك
ويتمنطقون عليها بنطاق ضيق على خصورهم ويشتملون فوق ذلك بمعطف من غي

(١) Cappadoce

المخيط مفتوح فى طوله من الأمام. ونعالهم،قصيرة كانت أو طويلة، فان مقدمها مرتفع الى الأعلى. وكانوا يحملون فى مناطقهم خنجراً طويلا (قاما) وكثير منهم يحملون المزاريق وبركبون الخيل.

ويظهر أن الحيثيين كانوا يطيلون جزءاً من شعور رؤوسهم قدره قبضة اليد (مورجان الجزء الثانى ص ٦٢ و ٦٦)

ونظراً لمباحث العلامة مورجان ومقارناته المتعددة بينهم وبين الجراكسة ومطابقة لغاتهم وأزيائهم وملابسهم وأخلاقهم وعاداتهم بعضها لبعض لانشك مطلقاً فى أنهما عنصر واحد ، وشعب واحد، من أرومة واحدة.

وبمقارنتنا نحن وحدات ملابس الحيثيين بوحدات ملابس الجراكسة التى يلبسونها اليوم، نجد أن (القلباق) وهو لباس الرأس القومى فى القوقاز،ماهوالا وليد (قلباق) الحيثيين، بل هو هو بعينه.

أما الجاكيت التى يسميها الجراكسة (تسه بى) فهى نفسها التى كان يلبسها الحيثيون. كذلك النعال التى يلبسها الجراكسة هى بعينها النعال ذات المقدم المرتفع

أما المعطف غير المخيط فهو ذاك الملحف الجركسى المسمى (صَاكُوْه) المصنوع من الصوف الخالص (نوع من اللباد) المرسل لغاية الكعوب والأقدام (وعندما يحتاجون لاستعمال سلاحهم وهم على ظهور جيادهم يشبكون طرفها الأيمن على كتفهم)

أما (القاما) فهو السلاح الذى لا يفارق الجراكسة حتى أنهم كانوا يحملونه فى حضرة الأباطرة الروسيين ولا يتخلون عنه لأنه من مميزاتهم وعنوان رجولتهم الملازمة لهم.

وجمال هذه الملابس ولطيف رونقها قد اتخذه القوزاق [1] لباساً لهم وبدأ الروس

---

(١) القوزاق هم غير أهل القوقاز ، وهم من أصل سلافى ويسكنون جنوب الروسيا ، ويكونون أحسن فرسان الجيش الروسى

بتعميمه فى بلادهم كما أن الأمم جيرانهم خصوصاً بعض البلاد العثمانية لا يتأخرون عن لبسه والتزيي به . ولا تنسى ما للسرج والسوط الچركسى من المزايا فى نظر من يعرفون الفروسية ويعنون بها

أما عادة ترك جزء طويل من شعر الرأس فكانت جارية بينهم من قديم الزمان ليتعرفوا بها على موتاهم بعد المعارك والحروب لامكان معرفتهم ودفنهم ، اذ من عاداتهم المرعية أن لا يتركوا قتلاهم لأعدائهم .

٢ — طريقة الحكم عند الحيثيين وأحوالهم الحربية

يتبين من المنقوشات والمخطوطات المصرية على توابيت الحيثيين المحفوظة بمصر أن طريقة الحكم والادارة عندهم كانت على نظام حكم (الأشراف والاقطاعيات) .

فكان للملك وزراء يعاونونه وعلى رأسهم كبير لهم وهو الذى يعبر عنه فى وقتنا هذا بوزير الدولة أو مستشار الدولة (١)

وكانت المملكة مقسمة الى اقطاعيات وكل منها تختار حاكمها وتنصبه عليها ويدير دفة الأحكام تحت سيادة الملك .

وضمن المملكة كانت توجد بعض الممالك الصغيرة وعلى رأسها ملوك تابعون لملك الحيثيين أمثال ملك قاديش Kadesh وكيلبو Kilbou وغيرهما من الحكومات

ويتضح أن الحيثيين كانوا رجال حرب وطعان ولهم جيش عظيم غاية فى النظام مسلح أحسن تسليح خاضع للنظم العسكرية أتم خضوع .

وقد تجلت عبقريتهم العسكرية فى حروبهم مع المصريين وظهر تفوقهم فى فن التعبئة والتكتيكات الحربية ، اذ كانوا يشكلون صفوفهم فى ميدان القتال على طريقة الأضلاع المتراصة الممتدة . وهى طريقة فنية مستعملة الآن فى الجيوش النظامية .

(١) Chancelier

وجيوشهم تقسم الى قسمين : الجيش الوطنى وجيش المرتزقه والمأجورين . وكلاهما كان تحت أمرة وقيادة ضباط وقواد من الحيثيين .

وكانت العساكر النظامية المشاة تنقل الى جهات القتال فى عربات حربية .

أما أسلحتهم فكانت المزاريق والسيوف القصيرة (قاما) (مورجان ص ٦٥ و ٦٦) وقد شيدوا حصوناً متينة فى أهم النقط الواقعة فى ممر الجيوش وطريقها . وانك ترى آثار ذلك فى آسيا الصغرى وجهات نهرى الدجلة وأورونتْ (العاصمة) ومن أهم قلاعهم الحصينة قلعة (طاپِسْن) أو (تحاپْشن) التى كانت تتسلط على الممر الجنوبى من آسيا وقلعة (غارغاميش) الشهيرة .

و (غارغاميش) هذه كانت مدينة كبيرة ومركزاً هاماً لتموين الجيش . والمظنون أنها كانت عاصمة تلك الامبراطورية العظيمة لوقوعها فى وسط تلك الحكومات المتحدة (مورجان ص ٦٤و٦٥)

* * *

هذه هى المعلومات القيمة عن الحيثيين Les hittites الذين كانت لهم حكومة منظمة شديدة الضبط والربط فى داخليتها .

هذا ، وفضلا عما عرفوا به من فطرتهم الحربية، فانهم كانوا رجال أخذ وعطاء مشتغلين بالتجارة .

وبينما هم مشتبكون مع الفراعنة فى الجنوب كانوا كذلك فى الشمال مع قبائل سام وحام أولاد نوح وغيرهم من الأقوام .

وكانوا يعبدون الأصنام خصوصاً المسمى (ايسطار أو ايسطارطه[1]) وقد عبدها الأشوريون والفينيقيون مما يدل على أنهم كانوا تابعين لهم ومختلطين بهم .

وانك تجد هيا كل وآثاراً لهذا الصنم وتوابعه فى جبال القفقاس خصوصاً تراها

(١) « عشترة » عند الساميين (الزهرة)

بكثرة فى مدافن (١) جهات كوبان (مورجان ج - ٢ ص ٦٦ و ٦٧)
(وأظن أن هذه الآثار لا تزال مرتسمة فى ذهن الذين لم ينسوا ذكريات الوطن « قفقاسيا »)

ويؤخذ من الهيريوغليفية المصريةأن ايسطارطه (معبود) الحيثيين كان هو بعينه معبود الـكسوس والسُّوتَخْ وكان الها (للأُورْأرتورْ) أيضاً ويعرفونه باسم (ساريس) - « مورجان »

وكان للحيثيين كتابة يستعملونها وقد حل رموزها وكشف القناع عن معانيها العلامة الانجليزى (سايس Sayce) كما مر بك فى هذا الـكتاب .

وعلامات الحيثيين « الهيروغليفية (٢) » التى ا كتشفت فى بلاد الـكلدانيين لا تتفق بحال، مع هيروغليفية المصريين ولا الـكلدانيين . الأمر الذى يثبت واحـداً من أمرين : إما أن الحيثيين اخترعوا وأوجدوا الحروف الخاصة بهم - وهو الأصح - وإما أنهم اقتبسوها من أقدم الأمم التى ظهرت بآسيا فى فجر الخليقة البشرية - وهذا حدس ، وتخمين ضعيف جدا - « مورجان »

ومن المحقق أن (هيروغليفية الحيثيين) أساس (هيروغليفية قبرص)

٣ — العلامات

وقد يلاحظ جلياً ان الشارات والعلامات التى يضعها أمراء الجراكسة وعامتهم لغاية يومنا هذا على أدواتهم المنزلية وأسلحتهم المختلفة وسروجهم وسياطهم - خصوصا

(١) Necropoles

(٢) hiéroglyphe - أى الكتابة المقدسة . عرفت بأشكال مختلفة عند بعض الأمم القديمة وحسبها من جاء بعدهم رموزا سحرية حتى وفق علماء العاديات الى كشف أسرارها . ويطلق لفظ هيروجلفى - مجازا - على كل خط غير واضح

خيولهم ــ والتي اصطلحوا على أنها علامات مميزة لعائلاتهم ماهي إلا بعض العلامات والأشكال المقتبسة من (هيروغليفية الحيثيين)

وهذا دليل آخر على أنهم أجداد الجراكسة ــ على رغم القول القائل بأن الحيثيين أخذوا علاماتهم عن « الفينيقيين »

ودليلنا على استقلال علامات الحيثيين ، وأنها خاصة بهم ، وأنها من بنات أفكارهم ، عدم العثور على أمثالها فى الحفريات الجارية بآسيا وغيرها من البلدان ، بل يمكننا أن نقرر أن (الفينيقيين) هم الذين أخذوا هيروغليفيتهم عن الحيثيين .

و يقال إن الحيثيين جلبوا معهم علاماتهم الهيروغليفية الى القفقاس عند عودتهم من الجنوب ، كما يقال أيضا انها كانت موجودة بقفقاسيا . وسواء كان هذا أو ذاك فمن الثابت المؤكد أن الحيثيين أوجدوا واخترعوا هيروغليفية خاصة بهم توارثها عنهم أحفادهم الجراكسة

***

وقد عثر القائمون بالحفريات فى وسط آسيا الصغرى والقسم الجنوبى منها مبدئيا على بعض الآثار الصناعية للحيثيين . وهذه الآثار ــ رغم أنها لهم ــ يغلب عليها النمط الكلدانى والأشورى . وهذا التأثر والتغلب يرجع الى ما قبل مصادمة والتحام الحيثيين مع المصريين بسوريا . ومن المحتمل أن يكون مصدر هذا التأثر يصعد الى القرن الأربعين قبل الميلاد ، فى العصر الذى حارب فيه الحيثيون (مملكة اغاده) حيث كانوا مجاورين للكلدانيين والأشوريين فاختلطت صناعاتهم بعضها ببعض بحكم القرب والجوار (مورجان ج ٢ ص ٦٨)

***

والجملة الآتية وجدت مكتوبة على قطعة من « نتيجة » أو « تقويم » بدار كتب (نينوا) عملت بمعرفة المنجمين الكلدانيين :

(فى السنة العشرين ـ خسوف القمر ـ استولى وارهاتى ملك الماتيين[1] على المملكة وعلى تخت الملك)

وسنة ٢٠ هذه تصادف سنة (٣٧٥٠) قبل الميلاد (مورجان ج ٢ ص ٥٥)

يقول ماسپيرو فى كتابه (تاريخ أمم الشرق القديم) فى الصفحة ١٨٠ : إن الحى تى (الحيثيين) منسوبون للعناصر التى استوطنت القفقاس والتى هى من جنسهم وأرومتهم أمثال (التّابال والوشق)

***

بعد ما استوطن الحيثيون فى بادئ الأمر وسط آسيا الصغرى اخترقوا جبال (طوروس) واستولوا على شمالى سوريا وكيليكيا (قيليقيا) وحوالى أطنه (ادنه) وطاردوا أثناء ذلك قبائل (الهيكسوس) لغاية نهر الشريعة بشرق الأردن . وتوقفوا عند سواحل بحر لوط (البحر الميت) .

واحتشدوا بعد ذلك على حدود بلاد العبرانيين (Hebreux) بينما كان أكثرهم محتلا شواطئ (أورونت ـ نهر العاص) (وباليك Palic)[2] ومنحدرات جبال (آمانوس) وقسم من سهول كيليكيا (ماسپيرو ص ١٨٠ ومورجان ج ٢ ص ٦٤)

***

وبلاد الحيثيين كانت مركزاً هاما للتجارة ومن أغنى أسواق الشرق خصوصاً اذا علمنا أنهـا كانت نقطة الاتصال بين فلسطين وسوريا ودجلة والفرات ، ومحط رحال القوافل الكثيرة الآتية والذاهبة ما بين بابل و بلاد الفينيقيين ، وباباً لتجارة العراق عن طريق الصحراء ـ وذلك بفضل موقعها الجغرافى .

ومن جهة أخرى كانت على اتصال ببلاد (أرمينيا) وسواحل البحر الاسود ،

(١) أى الحيثيين

(٢) باليك هذا علم على منطقة من بلاد قفقاسيا الشمالية وله فى قلوب الچراكسة ذكريات هامة

ومن الجنوب ، ببلاد فلسطين . وكانت تتبادل مع مصر أسرى الحرب من قلب آسيا والمصنوعات الزجاجية والمعادن .

وظروف الحيثيين كانت مساعدة لهم جداً للهجوم والاستيلاء على ممتلكات مصر بآسيا (منطقة سوريا) عقب اخراج الرعاة (الهيكسوس) وطردهم من مصر - ولكنهم لم يستفيدوا من ذلك . مع أن مركزهم الحربي كان وطيداً ، خصوصاً اذا تحققنا أن عرض جبهة القتال كان قصيراً ، ومؤخرتهم كانت فى مأمن من تعرض ما وراءهم من الأمم الضعيفة غير القادرة على الحرب .

وبفضل هذه المزايا كان فى امكانهم تجديد قوتهم الحربية وتعزيزها باستمرار ، بخلاف (فرعون مصر) اذ كان عليه أن يقطع كل بلاد سوريا ، وتتعرض قواته أثناء ذلك من الجنب لصدمات وضربات خطرة مميتة حتى يصل الى نهر (أورونت) العاصي .

***

(طحوتموس الثالث) - ارتقى عرش مصر سنة ١٤٦١ قبل الميلاد . وفى السنة التاسعة والعشرين من حكمه سار الى سوريا وتقدم لغاية وسط بلاد ما بين النهرين (ناهارانّا Naharanna) الكائنة ما بين الفرات والعاصي . ونهب أثناء مروره بعض المراكز والقرى وسار بعد ذلك نحو « الفينيقيين » .

وكان ملوك الحيثيين يدفعون الخراج لملوك مصر حتى سقوط العائلة الثامنة عشرة وبعد ذلك امتنعوا عن دفعه وثاروا على المصريين واحتلوا من جديد بلاد قوم (لوط) و (ارام) وضموا اليهم أقوام تلك البلاد المتحدرين من سلالة الساميين ، واحتلوا مدينة (عماط . حماة . hamath) ، بأرض « كنعان » (سايْسْ المجلد السابع ص ٢٥٢ و ص ٢٧٠) وفرضوا الجزية على مدينتى (قاديش) و (أماؤور) الكائنتين

على نهر اورونت (العاصي) وضموا اليهم جميع الأراضي والبلاد لغاية دمشق الشام (مورجان ص ٦٩)

***

يقول المؤرخ (لونورمان Lenormant) فى كتابه فى الجزء الثانى ، قسم ثان ص ٣٣٨) عند الكلام على الحيثيين ما يأتى :

كان الحيثيون فى هيئة حكومة عظيمة جداً ، ولهم حيش كثير العدد ، شجعان الرجال ، ويلاحظ أنهم يمتون عرقاً وقرابة لقبائل الرعاة الهيكسوس [1] وناوأوا المصريين فى ممتلكاتهم بسوريا حتى استأصلوا نفوذهم منها ، وحلوا بدلهم فيها ؛ ودام هذا التنافس بينهما قرناً كاملا .

وقد انتشر صيت الحيثيين فى جميع الجهات والبلاد وخشى الناس بأسهم وبطشهم وأصبحوا يحسبون لهم حساباً .

وامتد نفوذهم الى بلاد (نهارانّا Naharanna) و (غارغاميش) و (قودشو Quodchou) . ولم يعبأوا بمصر ولا بهجماتها ، وامتد نفوذهم أيضاً الى ما وراء جبال (طوروس) حتى أواسط آسيا الصغرى ولم يعلم مدى تقدمهم شمالا ، سوى أنه ثابت أنهم لم يتعدوا بلاد (قاتاؤونى) وأودية (كيليكيا) و (كيدى Quidi)

والثابت أنه كانت لهم علاقات مع أولئك [2] الأقوام الذين كانوا يقتسمون فيما بينهم القسم الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى . وكان فى امكانهم ـ استناداً على الاتفاق مع هؤلاء ـ أن يحاربوا مصر بارسال عصابات عسكرية (مورجان ص ٧٠)

---

(١) La tribu royale des pasteurs d' Egypte

(٢) Les Lyciens — Les Myciens — Les Dardaniens
Les Ilyons — Les Pedasos

ويقول المؤرخ الكبير ماسپيرو فى كتابه صفحة ٢١٥ ما يأتى :

ولما رأى (سيتى الأول) ملك مصر أن محاربة (الحيثيين) مستمرة بلا نهاية وكلما خبتْ نار القتال أشعلوها وألهبوها بعناد وثبات وأمدوها بقوات جديدة ـ لما رأى ذلك خاف أن ينتهى أجله قبل أن تنتهى الحرب معهم ، فاضطر لطلب الصلح من ملكهم (ماؤو ـ زير) « ماؤو الأول » وبذلك انتهى تقدم المصريين فلم يتجاوزوا فيما بعد منابع نهر أورونت (العاصى)

ويقول مورجان ان من يقرأ شروط الصلح بين الفريقين يرى أن مصر نزلت الى أدنى الدرجات أمام عظمة وقدرة حكومة الحيثيين (مورجان ج ٢ ص ٧٠)

***

وعند ارتقاء (رمسيس الثانى) عرش مصر فى سنة ١٣١١ قبل الميلاد كان (ماؤو طوثر Maou Thour) « ماؤو الثانى » ملكا على الحيثيين فتغيرت الأحوال بين المملكتين . وأخذت كل منهما تستعد لمحاربة الأخرى بصورة لم يسبق لها مثيل .

فبدأ رمسيس الثانى فى الاستعداد واقامة القلاع والحصون والمدن وملاجئ الجيش فى أملاكه بسوريا وعلى حدود الحيثيين .

كما أن الحيثيين شعروا أن الواقعة آتية لا ريب فيها ، فجعلوا يستعدون لها فى سكون وخفاء .

***

وعلى ذكر ملك الحيثيين « ماؤو طؤر » نكرر ما سبق قوله بأن كلمة « طؤر » باللغة الجركسية معناها (الثانى) فيكون اسمه (ماؤو الثانى)

ومن أسماء الجراكسة الشائعة الاستعمال ليومنا هذا : ماو ـ داو ـ تاو ـ راو ، وكل هذه الأسماء وما شابهها اسماء عند الحيثيين

وقد عثروا فى منظومة (بن طؤر Pentaour)[1] على أسماء القبائل التى اتحدت فى تلك الحرب ضد مصر وهى :

جوزان	Gozan	قيطا	Kila
قاتساناتان	Quatsanatan	ناهارينّا	Naharinna
كيلبو	Kilbou	أراطو	Arathu
قووادى	Quoadi	قيرقاش	Kirkash
اناجاس	Anangas	غارغاميش	Quarguamich
اكاريت	Akarites	داردانى	Dardani
ليقا	Leka	نازو	Nasu
موشارت	Mucharet	بادازا	Padaza
		مانّا	Manna

وجميع هؤلاء الأقوام كانوا من سكان آسيا الصغرى ويقطنون من ساحل البحر لغاية جبال أمانوس بما فيهم أهالى بعض الجزر .

* * *

ويمكن الاستدلال مما وجد فى كتابات عهد (سيتى الاول) ملك مصر على أسماء البلاد التى تغلب عليها وانضمت فيما بعد للحيثيين وتكونت منها امبراطوريتهم العظيمة وهى :

ناهارانا واروزا (بلاد ليزياس اليونانية) وأينوأمو وسينجار (الكائنة فى مابين النهرين بالعراق ولم تدخل ضمن الاتحاد الحيثى) و تُوأ وقاديش وتونْبْ (كلاهما على نهر اورونت ـ العاصى) وتاخيس أو بعبارة أخرى تسوخى (على نهر الفرات من

(١) شاعر مصري قديم

المكان الذى يصب فيه فرع « الخابور » لغاية بحيرة مَسْرُو) ـ (تسوخ معناه بالجركسي انسان وتسوخى مدلول بها على قبيلة جركسية بلا نزاع وقد بينا ذلك مفصلا كما مر بك فى هذا الكتاب) وسَسُّوا وبالانو (البلاد الواقعة ما بين سولوكيا القديمة وفينيقيا والبحر) وأرَرَاپْخا (واقعة فى شمالى بلاد الأشوريين) والتى يسميها (بطليموس) « أررابايخْتْ » (مورجان ص ٧٢ ج ٢)

***

هذا هو مركز الحيثيين لما أعلنت الحرب بينهم وبين (رمسيس الثانى) فى عهد الملك (مؤو ـ طؤر) « مؤو الثانى »

ووقعت الواقعة بين الفريقين فى السنة الرابعة من حكم رمسيس ـ أى فى سنة ١٢٩٧ ق ـ م .

وكانت سوريا الشمالية ووادي نهر العاصى مسرحاً لهذه المذابح والحرب الضروس التى جرت فيها الدماء انهاراً .

واجتمع لدى الحيثيين جيش عظيم وخلق كثير فى نواحى مصب نهر أورونت (العاصى) وقد التحقت بهم بلاد كثيرة بأمل السلب والنهب والارتزاق ، حيث ان أغلبهم كانوا من جهات الشمال القليلة الخيرات

وقد لبوا دعوة الحيثيين سراعاً ، طمعاً فى فتح بلاد معروفة بخيراتها الكثيرة بفلسطين وبلاد نهر العاصى ولبنان (لبّان) ، وفينيقيا المشهورة بمركزها التجارى العالى ، وهكذا جاء هؤلاء الأقوام من آسيا الصغرى لمساعدة الحيثيين ومشاركتهم فى الغنائم .

أمام هذا الأمر الواقع والاستعداد الكبير كانت ممتلكات المصريين بآسيا مهددة بخطر عظيم قريب الوقوع . ولم يعبأ (رمسيس) بذلك ـ اتكالا على جيشه العرمرم الذى يقوده قواد مهرة ـ ولم يحفل بجموع أعدائه الذين جمعوا من هنا وهناك .

زحف المصريون وعلى رأسهم الفرعون (رمسيس) الى شمالي سوريا وبعد احتلال جميع الحدود بطولها تقدم نحو بلاد (قودرشو) وعسكر بمدينة (لاپ تونا) وبقي فيها منتظراً أخبار جواسيسه عن مواقع العدو واستعداده .

وكان مركز المصريين دقيقاً محفوفاً بالمصاعب اذ أنهم كانوا في بلاد كلها معادية لهم بعيدين عن قواعدهم الأصلية ، وفوق ذلك كانوا مضطرين لاجتناب أهالي سوريا خوفاً من أن ينقلبوا عليهم ؛ بخلاف الحيثيين الذين كانوا في بلادهم تحيط بهم القبائل الموالية لهم ، حتى عشائر البادية الرحل كانوا مظاهرين لهم يمدونهم بأخبار العدو وحركاته .

فوضع ملك الحيثيين خططه بعد إمعان وتدقيق وجمع قواته كلها وهجم على المصريين وشطرهم قسمين وفرق بين فرعون وجنوده وأنزل بهم الدمار والهلاك .

ولما رأى (رمسيس) أن قوة عساكره أخذت تتلاشى عمد الى سيفه وهجم بنفسه وبخاصة عساكر حرسه وأشعل نار الحمية بين صفوفه ورجاله .

فلما رأوا من ملكهم هذا الاقدام وهذه الشجاعة تقوت عزائمهم وهجموا هجمة صادقة . ودامت المعركة بين الفريقين بشدة حتى المساء ، واذ ذاك وصل جيش مصر الأعلى وعزز الموقف واشتد القتال وسالت الدماء غزيرة فلم يقو الحيثيون ومن معهم على الثبات فتركوا الميدان وانسحبوا متقهقرين ، ولدخول الظلام لم يتمكن المصريون من تعقبهم(١) واستؤنف القتال في الصباح بصورة فظيعة ولم يلبث الا قليلا حتى ظهر تفوق المصريين وفقد الحيثيون مواقع كثيرة ، ورغم مقاومتهم الشديدة واستبسالهم العظيم فانهم خسروا الموقعة وأفلت النصر من أيديهم .

وقتل معظم عساكر الملك (ماؤو طؤر) الخاصة ومزق الجيش شر ممزق وغرق الكثير منهم في نهر أورونت (العاصي) عندما كانوا يخترقونه سباحة فراراً من فرعون وجنوده .

---

(١) ومما يلفت النظر أن هذه الوثائق كتبت ووجدت بمصر فيرد على الخاطر أنها موضع نظر «المؤلف»

أنواع مختلفة مما تتخذه العائلات الجركسية شعارا لها
وهى تشبه الكتابة الحيثية

فلحق بهم (رمسيس) . فتعرض له أهالى مدينة (قودَرْشُو) وعرقلوا تقدمه فاستفاد الحيثيون من هذه الفترة ولموا شعثهم وجمعوا صفوفهم وعادوا لمحاربة المصريين بشدة عظيمة .

فرأى الملك « ماؤو طور » ـ حقناً للدماء ـ ان الارجح والأوفق وقف القتال وعقد الصلح .

فوافق « رمسيس » على ذلك . ويظن أن قبوله هـذا الاقتراح كان مبنياً على احتمالات كثيرة أهمها بعده عن مركز ملـكه ، وتفادياً مما عسى أن ينتابه عقب سفر طويل شاق فى بلاد معادية (مورجان ص ٧٤)

وتم الصلح بين الفريقين باحتفال عظيم ومظاهرات كبيرة من غير امتياز لفريق دون الآخر ، وذيل هذا الصلح بمعاهدة هجومية دفاعية ، وأن يسلم كل طرف للآخر الفارين والجناة من الطرف الآخر .

وعلى هذا الأساس تم الصلح بينهما . وهـذه المعاهدة تعتبر من أقدم الوثائق السياسية (الديبلوماتيكية) المصرية لغاية الآن . وقد كتبت بحروف الحيثيين ولغتهم على لوحة من فضة وأهم ماجاء فيها ما يأتى :

(اذا تعرض العدو لاحدى الممتلكات المصرية وأرسل ملك مصر لملك الحيثيين قائلا له « تعال واحضر لى قوة ضدهم » فيجب على ملك الحيثيين تلبية النداء وتنفيذ طلب ملك مصر ، وعليه أن يمحو أعداءهم ويبيدهم ، واذا فرض أن ملك الحيثيين لم يلب الطلب ولم يذهب ضد أعداء ملك مصر فانه يرسل عليـه عجلاته الحربية . كذلك اذا دخلت الأعداء بلاد ملك الحيثيين فيتعهد ملك مصر بدوره بإبادتها ومحوها بنفس الشروط المتقدمة)

وبعد ذلك ذيلت المعاهدة بقسم عظيم ذكرت فيـه أسماء آلهة الحيثيين جميعها (مورجان ص ٣٣٣)

وقد ترجمت هذه المعاهدة للغة المصرية ونقشت على معبد (الكرنك) .

وتوثيقاً لعرى الاتفاق بين المصريين والحيثيين تزوج (رمسيس) بنت (ماؤوطؤر) وبعد بضعة سنين سافر الى مصر لزيارة صهره وبنته (مورجان ص ٧٧) وتوكدت أواصر المحبة والارتباط بين الامتين عقب هـذا الصلح وأصبحتا صديقتين متحابتين ولم يعكر صفوهما شيء بعد هذه الحرب الأخيرة

***

وفى أوائل عهد العائلة العشرين وقعت مصر بين أنياب شعوب آسـيا الصغرى وجزر بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) خصوصاً أمم (البيلاز) و (توكوربان)

ولم يقتصر ضرر هؤلاء على المصريين فقط بل عم قبائل وحكومات (قارقاميش) و (اراطؤ) و (الألوزا) (مورجان ص ٧٦) .

وبينما كانت مصر تئن من الاضطرابات الداخلية وتكاد تمحى من جراء الحروب الأهليـة كانت كذلك امبراطورية الحيثيين ، أعداء مصر الأقدمين ، قد دب فيها الفساد ، وابتدأ اضمحلالها وأخذ نجم سعدها فى الأفول ، وأصبحت غير قادرة على صون البقية الباقية من أجزاء امبراطوريتها العظيمة بآسيا الصغرى .

أمام هذا الضعف والذبول لم تر بداً من الانسحاب شمالا أمام ضربات (البيلاز) الشديدة وتضييق الأقوام التى تهاجمها ويزداد عددها يوماً بعـد يوم ، والذى زاد فى مصيبة الحيثيين وعجل عليهم فى التقهقر شمالا انقلاب المصريين عليهم ونكثهم عهودهم وخترهم بلحاقهم من الخلف والجنب فى عهد (رمسيس الثالث) اذ حرر مصر من المستولين عليها وقهرهم وفرق شملهم

وقد أخذ المصريون الحيثيين على غرة من خلفهم بينما كان هؤلاء مطمئنين من جانبهم يعتبرونهم حلفاءهم وأصدقاءهم .

وزد على كل هـذا قيام الأشوريين ، وتوسعهم شمالا ، وتقدمهم المظفر ، وعدم

مصادفتهم مقاومة تذكر ، واستيلاءهم التام على كل بلاد الحيثيين .

بعد ذلك أسدل الستار على امبراطورية الحيثيين بآسيا الصغرى وقفلوا راجعين الى وطنهم الأصلى قفقاسيا .

***

هذا ومن الفائدة أن نذكر هنا ما كتبه المؤرخ احمد رفيق بك عن مدنية الحيثيين وآثارهم بآسيا الصغرى :.

قد وصل الحيثيون الى جوار جبال (طوروس) الشمالية لأول مرة قبل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد وامتزجوا كثيراً بسكان سوريا عند تقدمهم فيها حتى صاروا يتكلمون العبرانية ويتسمون بأسماء الساميين لما وصلوا بلاد اليهود فى الجنوب .

وكانت لهم الزعامة على جميع شعوب سوريا لسمو أفكارهم وتفوقهم عليهم فى المدنية والرقى .

ولهم فى أغلب جهات الأناضول هياكل وآثار منقوشة وان جميع الهياكل والآثار المنسوبة لمصر بالأناضول ماهى الا من آثارهم وصنعهم .

وقد تجد لهم الشيء الكثير ابتداء من شمالى سوريا ووسط آسيا الصغرى (قابادوقيا) لغاية منتهى الغرب من شبه جزيرة الأناضول أو بعبارة أخرى بامتداد الطريق القديم الموصل لبلاد (سارده) وأشهر هذه الآثار بجهات الجنوب من آسيا الصغرى فى النواحى الآتية :

(إيبريز) و (بلغار معدنى) و (قونيه) وما بين بحيرة (بكشهر) و (قره بل)

أما ما كان فى جهات الشمال فانها توجد على امتداد خط يبتدئ من (طوروس) ويمر بـ (مرعش) ومنها يتجه الى (بوغازكوى[1]) ثم الى (أويوك) متجهاً الى (جادور قلعه سى) ومنها يلتقى بـ (قره بل) ثانية وقد حفروا على هذه الآثار بجهات

(١) حيث كانت مدينة هاتوشا Hattussa أعظم مدن الامبراطورية الحيثية

كثيرة بالأناضول وتولت تلك الحفريات هيئات علميـة أوروبية وأهمها ما كانت على مسيرة بضعة أيام من (اسكندرونه) فى المكان المعروف باسم (زنجيرلى) بمعرفة (البعثة الألمانية الشرقية) وجماعة من الانجليز بجهات (جرابلس) و (قارقاميش) بساحل الفرات . كذلك بعض الفرنساويين بنواحى (بوغاز كوى) و (اويوك) وبقرب بحيرة (دان)

وأهم ما عثروا عليه من آثار الحيثيين : أسد (مرعش) وتمثال لأحد الحكام وهيكل أبى الهول ذى الرأسين وبعض الكتابات . وكل ذلك محفوظ بدار الآثار العثمانية باستنبول .

***

بحث فى كتابة الحيثيين وملابسهم وأسلحتهم

كتابة الحيثيين عبارة عن أشكال ورسوم ورموز كرؤوس الآدميين والحيوانات وأيديهم وأرجلهم وسيوف ورماح وقسى . وللبدء فى قراءة هذه الطلاسم كانوا يبدأون من الجهة التى كانت الرأس ناظرة اليها . ومع ذلك فان هـذه النظرية كانت تخطىء أحياناً ولا تنطبق على كل كتاباتهم .

وقد عثروا للآن على خمس وثلاثين كتابة لهم ، وثابت أنهم أكثر من نشر وعمم أصول الهيروغليفية بآسيا الصغرى كما أنه وجد فى بعض الكتب أنهم وفقوا الخط (الميخى) لأصول لغتهم وكتبوا به .

وأكثر هذه الكتابات عثر عليها بجهات (وان) و (بوغاز كوى) . ويرجع الفضل فى حل رموز وطلاسم تلك الكتابات للعلامة الانجليزى الأثرى « سايس » (Sayce)

وقد وجدت جملة كتابات بلسان الحيثيين مكتوبة بالخط (الميخى) و يفهم من ذلك أنهم اختاروا هذا الخط وأدخلوه فى كتاباتهم واستمروا فى استعماله . وترى آثار ذلك فى شارات الچراكسة وعلاماتهم ليومنا هذا ، وما تلك الشارات والعلامات إلا حروفا من الخط الميخى .

* * *

أما أزياؤهم وملابسهم وأسلحتهم فهى كما وصفها العلامة مورجان ومن ذكرها من قبل وأهمها (القامه) .

وكان جيشهم المحارب يتألف من مشاة وعجلات الحرب . و يظهر من كتبهم أنه كان لهم فرسان أيضاً (خيالة) . فالمشاة كانوا يرتدون ملابس قصيرة وغطاء مدبباً على الرأس و يلبسون حذاء طويلا وكانوا يتسلحون بالقسى والرماح والحراب وسيوف ذات حدين وبلط حادة ذات رأسين وكانت لهم تروس ذات أربع زوايا .

أما «عربات» الحرب فكانت منخفضة ذات عجلتين، قصيرة الجوانب ، مفتوحة من الخلف ، يجرها فرسان ويركبها ثلاثة رجال أحدهم لقيادتها ، والثانى لحمل التروس والثالث لرمى النبال .

وكانوا يستعملون هذه العجلات كثيراً فى الصيد والقنص لتعقب السباع والوعول والأرانب .

* * *

وكانوا مشهورين بنحت التماثيل وصقلها ، وقد ترقوا فيها لدرجة ما ، وأكثر تماثيلهم لآلهتهم .

وثابت أنهم أول من اخترع « النسر المزدوج » واتخذوه شعاراً لهم ثم أخذه عنهم حكام (الساچوقيين) ثم اتخذه « أبا طرة » الألمان لوقتنا هذا (تاريخ أحمد رفيق بك ص ٣٣٦)

ومصنوعات الحديد والفضة كانت من صناعتهم . وكانوا يعملون التروس وغيرها من البرنز . وهم الذين أوجدوا صناعة الفسيفساء (الموزاييك) من خلط البرنز مع الأحجار الملونة بالأحمر والأسود والأبيض .

والخلاصة أن الحيثيين كانوا أصحاب مدنية عظيمة فى قديم الزمان وظلت مدنيتهم مجهولة مدفونة فى بطون الأرض لا يعلم عنها شئ حتى اكتشفت آثارهم بالأناضول

وربما كشف القناع عن أشياء كثيرة أخرى لأنه لم يظهر للآن كل ما كانوا عليه من تقدم ورقى كما أن نظريات كثيرة هامة لم يبت فيها للآن .

وقد شاركوا (بنى إسرائيل) فى بلادهم ردحاً من الزمن وتكلموا بلغتهم وذكر اسمهم فى التوراة وكان من أمرهم ما كان .

* * *

ظهور حكومة الآشوريين

يقول مورجان : —

بعد أن دحر المصريون الحيثيين ومن معهم من قبائل وشعوب آسيا الصغرى وأقصوهم إلى جهات الشمال كان قدماء اليونان جادين فى تكوين ممتلكات لهم على سواحل البحر الأسود ، كذلك شرعت مملكة الدجلة والفرات فى الأخذ بأسباب القوة والتقدم شيئاً فشيئاً .

وبدأت بعض الممالك الصغيرة بغرب آسيا فى الظهور والتكون : (ليدى ، فريجى ، منيرى ، كارى ، البيلاج) وكانت الشعوب الأخرى التى بأرمينيا وققفاسيا مشتتين متفرقين ضعفاء ، من جراء غزو واحتلال البيلاج لبلادهم . ولم يبق للحيثيين بسوريا إلا بعض بلاد قليلة وكانت (پاتنا) و (عماط) الكائنتان بشمالى سوريا و (دمشق

الشام) تابعة لحكومات الساميين الصغيرة أما جميع ساحل بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) فكان للفينيقيين . كذلك أخذت مصر تستعيد قوتها بعد ما أصابها من ضعف وخسارة بسبب غزو البيلاج والفتن الداخلية .

أمام هذا الاضطراب العظيم الذى كانت تتخبط فيه شعوب آسيا الصغرى بعد جلاء الحيثيين عنها ، لعدم وجود دولة قوية لحفظ التوازن بين الأمم والقبائل ، ظهرت حكومة الأشوريين ، وعلى رأسها الملك (تفلات ـ پار اثار) فى سنة ١٢٧٠ قبل الميلاد واستولى على (بابل) مدينة الكلدانيين ومنها بدأت فتوحاته بآسيا . واستمر فى الفتح شمالا واستولى على (ران) و (بتليس) و (موش) حتى (ملاطيه) وبينما هو كذلك ثار الكلدانيون واستردوا مدينتهم (بابل) وأعلنوا استقلالهم وحريتهم .

وبسبب هذا الانقلاب اضطر الأشوريون للتوقف فى زحفهم واضطربت أحوالهم فاستفاد من هذا الظرف شعوب قفقاسيا واستردوا بلادهم وعدلوا حدودها وحافظوا على قوميتهم ووجودهم فابتعدوا عن خطر الاضمحلال .

وبينما كان الحيثيون يعانون الشدة فى التقهقر من آسيا ويقاومون أعداءهم فى كل مكان تطرق الوهن والضعف إلى نفوذهم فى القفقاس حتى زال تماماً وتبوأ الزعامة هناك (التابال) وانتقلت من بعدهم إلى (المشاكو) وهم طبقة الزراع [1] .

وفى سنة ١٠٢٠ قبل الميلاد نقل ملك الأشوريين مقره من (فالاش) إلى (الاثار El Asar) قاصداً الابتعاد عن بابل وفى هذه المدة امتد نفوذه لغاية بلاد (الخوموق [2]) وبسبب ضعف حكومة الأشوريين وملوكهم الذين كانت قوتهم

---

(١) كلمة مشاكو باللغة الجركسية معناها الزراع (المعرب)

(٢) ولعلها قوموق التى بالقوقاز (المؤلف)

لا تتعدى عواصم ملكهم أضاعوا كل البلاد التي استولوا عليها ـ فاستعادت (بابل) وقسم من (سوريا) حتى بلاد (ما بين النهرين) استقلالها وحريتها . وكان ذلك سنة ١٠٠٠ قبل المسيح

ومن دواعي الأسف العميق ونكد الدنيا على أمم القفقاس التي كانت بآسيا الصغرى أنها لم تتحد كأمة واحدة وتنكل بالأشوريين الذين كانوا في حالة ضعف شديد وتستفيد من الظروف السيئة التي كانوا يئنون تحتها .

فلو فعلوا ذلك لكانوا شيدوا لهم ملكا عظيما على انقاض حكومة الآشوريين وحافظوا على كيانهم وبقائهم . ولكنهم لم يفكروا في هذا قط ، واستمر كل منهم في حكومة مستقلة منعزلين بعضهم عن بعض لا يعبأون بما هو جار حولهم ، والأدهى أنهم لم يقتبسوا شيئا من مدنية جيرانهم ولم يرقوا معارفهم وأحوالهم الاجتماعية ، بل لم يفكروا في تغيير أسلحتهم وادخال الاصلاح عليها .

وأراد ملوك الأشوريين أن لا يفيق قفقاسيو آسيا من رقادهم العميق الذي كانوا فيه . فأخذوا يشغلونهم من آن لآخر حتى لا يفكروا في مصالحهم ويظلوا في غفلتهم يعمهون . وقد تكررت هذه الغفلة ومرت على أحفاد المذكورين ، شعوب قفقاسيا الحاليين ، ولم يستفيدوا من فرص وظروف سنحت لهم كان فيها خصومهم ضعفاء عاجزين . (مورجان ج ٢ ص ٨٣ ـ ٩٢)

ورغم أن الأشوريين لم يقووا على صد هجمات شعوب الشمال إلا أنهم احتلوا بلاد البلاج[١] وبلاد شعوب قفقاسيا وحوالي جبال طوروس وأجلوهم عنها وأسسوا لهم

---

(١) Pelasges — عريقون في القدم . وكانوا فيما قبل التاريخ يسكنون بلاد الاغريق القديمة والجزر المجاورة لها وسواحل آسيا الصغرى وايطاليا — ولم يكونوا أمة بالمعنى الصحيح — وكانوا زراعاً وادعين مسالمين . وكانوا يقيمون حول قراهم أسوارا ضخمة لا تزال قائمة مكونة من الصخور الكبيرة المتراصة بودون مؤنة يلتحم بها بعضها الى بعض — والبيلاج على الرأي الغالب هم آباء شعوب كثيرة مثل أهل تراقيا الاقدمين وفريجي وليديا والالبانيين وغيرهم

بعض الحكومات كحكومة فريجى (منطقة قونيه) وكيليكيا (منطقة أطنه) وايدى الخ الخ . وكان ذلك فى القرن العاشر قبل المسيح (مورجان ص ٩٢٠) .

واضطرت شعوب القفقاس أمام هذه الفتوحات والحكومات المتعددة أن تنقسم وتتشعب وتتبع الغالب وتخضع له — وقد لحق بهم ضرر بليغ من جراء ذلك . وانتهى بهم الأمر للالتجاء والتحصن فى جهات (طرابزون) وسواحل (جانيك) وقفقاسيا أى فى الأماكن التى صادفهم فيها المؤرخان المشهوران « اجزانيفون » و«استرابون» (مورجان ج ٢ ص ٥٣ — ٩٣)

وفى سنة ٨٨٢ قبل الميلاد ارتقى الملك (اشونازيربال) واتخذ (نينوا) مقرا لحكومته وابتدأ فى التوسع شمالا مارا بوادى الدجلة حتى وصل الى الجبال المجاورة لبحيرة « وان » التى كانت مأهولة (بالنائريين) وبجملة حكومات مستقلة وأعمل فيها التخريب والتدمير ولم يسلم من شره وظلمه أغلب بلاد تلك النواحى .

فضج الأهالى من ظلمه وشره فثار النائريون ضده واختل النظام بينهم فقاوم هذه الاضطرابات بشدة زائدة وقتل منهم كثيرا ، وقد لاقت مدينة (نَيْسُونْ) من جوره وعسفه الأمرّين . وأمر بتصفيد بابو (ابن بابوان) الذى قاد الثورة بالقيود والأغلال وبعد تعذيبه العذاب الأليم أمر بسلخ جلده حيا .

وتقدم بعد ذلك نحو منابع الدجلة واستولى على مدينة (أدقون) و(أوشباق) و (بيلارجى) وماجاورها من البلاد .

وعلى ذكر « بابو » فان (بابوقوه) بالچركسى معناها عائلة بابو ، وهذه التسمية شائعة كثيرا بين الچراكسة الآن .

وفى سنة ٨٥٧ قبل الميلاد اعتلى (سلمان — اثار) ابن (اشونازيربال) عرش

الأشوريين وبدأ زحفه وحروبه بجهات سوريا التى كانت مأهولة بقبائل الساميين فاغتنم أهالى آسيا الصغرى وبلاد أرمينيا والنائيريون هـذه الفرصة واتحدوا فيما بينهم ضده . غير أن الأمر لم يتم لعدم الاتفاق على تعيين الرئيس عليهم فظلوا متفرقين .

فلما علم « سلمان ـ أثار » بهذه الاضطرابات قفل راجعا الى آسيا وأخضع كل هذه الشعوب من جديد بادئاً ببلاد (اورارطئو) فاحتل مواقعها المنيعة وأحرق كثيرا من جهاتها وسار نحو عاصمتها (آرسْكا) (الكائنة فى حوض نهر الرّس) قاصدا ملكها (آرامى) .

وبعد ذلك استولى على جميع بلاد (التسوخى) . وفى سنة ٨٣٥ استولى أيضاً على بلاد (تابال) وفى سنة ٨٤٣ قتل ملكها . وأرسل جنوده نحو الشمال لمقاومة الاتحاد الذى بدأ بين أممه وشعوبه ولئلا يتمكنوا من تنظيم قوتهم من جديد .

***

هنا انتهى ما أمكن عمله من تاريخ الهاتيين الجنوبيين . وان أظهر الشعوب وجودا فى الفترة ما بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد هم (الأورارطئويون) أما الفترة التى مرت بين القرن الخامس والقرن الرابع قبل الميلاد وهى المدة التى ظهر فيها « هيرودوت » المؤرخ اليونانى فانها كانت حالكة الظلمة لم يعلم عنها شىء بالمرة .

كذلك لا علم لنا ـ اللهم الا حدساً وتخمينا ـ بالزمن الذى تركت فيه شعوب ققفاسيا بلاد (وان) و(أرارات) و(أرضروم) والتجأوا فيه الى سلسلة جبالهم الأصلية واجتمعوا بقومهم وعشيرتهم (مورجان الجزء الثانى ص ١٠٧)

وكان من عادة ملوك الأشوريين أنهم اذا أرادوا استعمار بلد من بلاد الأمم التى استولوا عليها أنهم يسكنون بينهم أسراهم المجلوبين من جهات أخرى نائية مثلا انهم جلبوا الى بلاد (ميديا) أسراء (الفينيقيين) والى (بابل) أسراء (النائريين) والى بلاد (أرمينيا) أسراء (الاسرائيليين) .

والدليل على ذلك أن المسيو (بَايْرَنْ) عثر فى سنة ١٨٧٢ م بمدينة (ميسختى) عقر بلاد الكرج على كتاب مخطوط بالحروف العبرانية ويصعد تاريخه الى سنة ١٣١ قبل المسيح الى مدة حكم الأشوريين (مورجان ص ١٠٨) .

الحيثيون سكان قفقاسيا (هيثيت الشمال)

وبتعبير آخر حيثيو قفقاسيا أو قدماء الچرا كسة

بناء على مافصلناه من البحث الذى مر بك يعلم أن الحيثيين أجداد الچرا كسة انقسموا الى قسمين : قسم بقى فى بلاده الأصليـة بقفقاسيا ، والقسم الآخر نزح الى الجنوب . واستولى باقى شعوب القفقاس القـدماء على اسيا الصغرى ومجارى الدجلة والفرات : واستولى أيضا على سوريا .

والمعلومات التى بين أيدينا عن هؤلاء الحيثيين تصعـد الى أربعة آلاف سـنة قبل الميلاد .

أما تاريخ الحيثيين الشماليين الذين نحن بصددهم فى بحثنا هذا فلم يعرف الا ابتداء من القرن الخامس عشر قبل الميلاد .والفضل فى كشف ذلك يرجع الى المؤلفين المحققين والمورخين المدققين Les auteurs Classiques الذين استخرجوه من المعلومات القليلة التى عثروا عليها مبعثرة ضائعة ضمن أساطير اليونان وخرافاتهم خصوصا مما كان مسطورا بشأن الملك (أَإيتس Aétès) وحروب اليونانيين معه طمعا فى ثروته الطائلة مما فصلناه من قبل .

وأساطير شعوب أوروبا الأقدمين مشحونة بأن قفقاسيا هى مهد البشرية . أما اليوم فالعرق الأبيض يعد بحق من السلالة القوقازية .

وقد ظهرت هذه الحقيقة واعتمدها العلماء الأقدمون.وكما أن لقفقاسيا مكانة خاصة

فى تاريخ شعوب أوروبا فانلها تاريخاً مجيدا يشاراليه بالبنان ، الاانهذا التاريخ يترك فراغا جوهريا بين تاريخ الأمم لعـدم ترتيب أدواره وانسجام أزمانه لنقص المواد الأولية التى يقوم عليها صرح تاريخها وهيكل مجدها القديم .

ولنا وطيد الأمل فى أن يُملأ هـذا الفراغ قريباً بمعلومات قيمة واضحة بفضل تزايد الاكتشافات الأثرية بقفقاسيا حتى يظهر املأ تاريخ تلك البلاد التى سميت بحق مهد السلالة البشرية البيضاء « Berceau de la Race Blanche »

* * *

بعد هذه المقدمة الوجيزة ننتقل الى الموقعة التاريخية الأولى التى تعتبر أولى الوقائع بقفقاسيا وهى هجوم (السِّـكيت ـ أو السِّيت)النازحين من آسيا الشمالية على سكان قفقاسيا الأصليين المعروفين فى ذلك العهد باسم الـكيمريين (Les Cimmeriens) فى القرن الثامن قبل الميلاد .

استمر القتال بينهم حتى شطروهم الى قسمين عظيمين فلجأ قسم منهما الى جبال القوقاز والقسم الثانى الى أوروبا غربا واستوطن مبدئيا وسطها وانتقل فيها بعد ضغط « السيت » الى جهات الغرب حتى استقر أخـيرا بفرنسا وجزائر بريطانيا وايرلانده

هـذه الحروب تعتبر من الأهمية بمكان عظيم بالنسبة لتاريخ القوقاز . وفى هـذا العهد لجأ حيثيو الجنوب مغلوبين مقهورين الى جنوبى القفقاس بعد زوال امبراطوريتهم العظيمة بآسيا الصغرى كما سبق البيان .

وسنوضح فيما يلى الأسباب التى أقعـدت أجداد الجراكسة عن مقاومة هـذا التقهقر وسبب ضياع ملـكهم العظيم .

* * *

كان الـكيمريون يسكنون قفقاسيا بالذات وساحلى بحر ماؤوت (أزوف) من آلاف السنين . وقد استولوا فى قديم الزمانـ وبعـد حروب كثيرة على آسيا

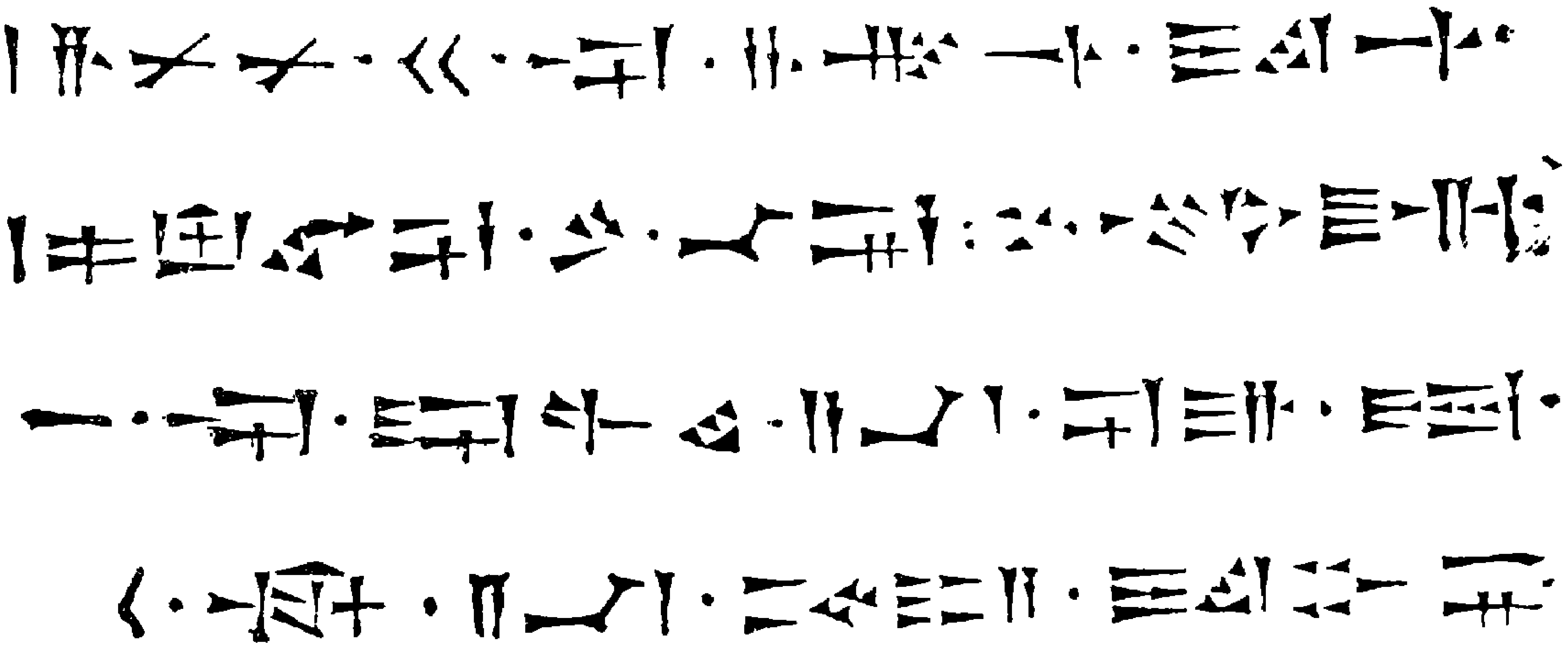

خطوط ميخية

الصغرى ولهم فى ذلك وقائع مذكورة فى كتاب استرابون (مورجان ج ٢ص١١٧)

بناء على ذلك يتضح أن تاريخ «الكيمريين» ونسلهم وتاريخ «الهاتيين» وأعقابهم واحد، خصوصا اذا علمنا مما كتبه « استرابون » أن «الكيمريين» كانوا عندفتوحاتهم فى آسيا الصغرى يعملون تحت النفوذ الحيثى وإمرتهم . مثال ذلك أن مدينة (سارده) التى كانت عاصمة حكومة (ليديا) استولى عليها « الكيمريون » واحتلوها مرتين . الأولى فى سنة ١٠٧٧ ق.م كما هو وارد فى كتاب (كالّيستين) حفيد ارسطاليس الفيلسوف اليونانى. والثانية فى سنة ٦٩٥ ق . م التى بسببها انتحر (سيدياس) ملك سارده بالسم .

يقول مورجان إن بعض الكيمريين [1] لجأوا الى شبه جزيرة (القرم) أمام ضغط أقوام « السيت » وبقوا فيها وانقسموا فيما بعد الى أقسام رجع قسم منهم الى جهات الشمال وهاجر آخر الى مصب نهر الطونة (الدانوب) ورحل منها ماراً بتراقيا حتى وصل الى بلاد « ليديا » واستولى عليها كما مر بك (ج ٢ ص ١٧٧) .

ولا شك مطلقا أن الحتيين احتلوا « ليديا » واستولوا عليها وبسطوا نفوذهم غربا لغاية (قره بل) الكائنة بنواحى « أزمير » قبل أواسط القرن الثامن قبل المسيح

والدليل على فتحهم « سارده » واحتلالها وانتشار نفوذهم فيها (الأبدات) الخالدات الكثيرة التى اكتشفت بتلك الجهة ممثلة للنصر والظفر (احمد رفيق ص ٣٢٩ ـ ٣٣١) [1] .

---

(١) وفى القوقاز بعض قبائل تلحق بأواخر أسمائها تاء مفتوحة تدل فى لغة الجراكسة على أن الاسم المذكور أبو القبيلة مثل سرمت . وأبزت . ونمرت . وسرست . وكركرت . وجيكت واوست (استين) وكيسشه (ججين) وقبرت (قبرتاى) وصلة قبيلة قبرت بشبه جزيرة القرم المنسوبة للقيمريين القدماء ، معروفة قديما وحديثا . فيعلم من ذلك أن هذه القبيلة من الجراكسة وهى من بقايا القيمريين القدماء وليس فى التسمية غير قلب الميم باء وهو كثير فى لغاتهم لتقاربهما فى المخرج كما يقولون فى (قومان) (قوبان) والحاق الياء مطرد فى لغتهم دلالة على بلاد القبيلة على أن ما يذكره « ملطبرون » فى المقالة ١٢ من مؤلفه المشهور فى الجغرافيا نقلا عن الآخرين من أن قبيلة قنبرت هى القيمريون لايدع فى ذلك ريبة (المعرب) .

فكل هذه الحوادث التاريخية والحقائق التى لاشك فيها تثبت صحة نظريتى تماماً التى بينتها فيما سبق بأن كلمة « كيمرى » كانت تنطلق بصفة عامة على جميع سكان قفقاسيا حتى أن الهيتيت الذين بقوا فى هذه البلاد وعرفوا بالشماليين (هيتيت الشمال) كانوا يعرفون كذلك بالكيمريين بدليل أن المؤرخين ذكروهم عند التدليل عليهم فى الفتوحات والاستيلاءات تارة باسم الهيتيت وأخرى بالكيمريين .

ونتيجة ذلك أن الكيمريين ماهم الا الحيثيون سواء كانوا الجنوبيين أو الشماليين فاذا تقرر هذا وجب اعتبار حيثي الجنوب قسماً متمماً لحيثي قفقاسيا .

وحيث ان سكان قفقاسيا عموما كان يطلق عليهم اسم كيمريين بناء عليه يجب اعتبار الحيثيين جميعاً جنوباً وشمالا كيمريين وأنهم من سلالتهم ونسلهم .

***

بعد هذا ننتقل الى وسط وغربى أوروبا وراء الكيمريين الذين فروا من تضييق السيت عليهم الى هناك .

عقب هجوم « السيت » على « الكيمريين » سكان قفقاسيا الأصليين وتقسيمهم الى قسمين وانحدار قسم الى الجنوب واتجاه قسم الى غربى أوروبا انقطعت كل صلة بينهما نهائيا بسبب احتلال السيت لمجارى نهر الدون وحيلولتهم بينهما (مورجن ج ٢ ص ١١٨) .

***

مذكور فى تاريخ (دوروى Duruy) المطبوع سنة ١٩١١ ص ٢١٩:

بينما كان قدماء الفرنسيس Les Frances يقطنون منابع ومجارى نهر « الرين » فى القرن الثالث قبل الميلاد كانت بلاد « الجول » القديمة مأهولة باقوام القلت (السلت) والايبر والكيمريين حتى ان يوليوس قيصر لما امتلك الجول فى القرن الأول للميلاد كانت هذه الأقوام ساكنة فيها .

(راجع كلمة جول Gaule بقاموس لاروس)

ويقول لاروس فى قاموسه أيضا ان الكيمريين كانوا يقطنون فى زمن يوليوس قيصر « چول سيزار » جهات « السين » و « المارن » وجبال « فوسيل » و « الرين » لغاية البحر المحيط .

(راجع كلمة كيمرى Kymris بقاموس لاروس قسم التاريخ)

وقد قرر علماء الانسال والألسنة الذين بحثوا فى أصل سلالات الأمم الأوروبية ولغاتهم أن « السلت » أو « القلت » هم أول من سكن أوروبا ومن سلالتهم ينحدر الأوروبيون .

وكانت لهم لغة قائمة بذاتها ولهـا لهجات مختلفة يتحدثون بها فى بلاد عديدة بأوروبا الآن :

١ — لهجة السلت مستعملة فى بلاد ايرلندة (بانكلترة)

٢ — « الارز « « شمالى انكلترا (ايقوسيا)

٣ — « الكيمرى « « بريطانيا (وسط انكلترا)

٤ — « القوربى « « بلاد الغال (ولز)

وقد جاء فى كتاب الجغرافيا المطبوع سنة ١٨٨٩ ص٩٣ بمعرفة الجمعية الفرنسوية F . I . C . أن قوم « الارز » كانوا يسكنون بايرلاندة فى شمالى انكلترة والكيمريين ببلاد الغال بوسط انكلترة وفى الشمال الغربى بفرنسا (Bas - Breton)

وثابت من مختلف الآثار والمخلفات القديمة أن الذين يتكلمون بلهجة السلت من سكان أوروبا يبلغون من ستة الى عشرة ملايين نسمة وانهم من سلالة قفقاسيا - السلالة الهندية الأوروبية .

ومن الأمور الجوهرية التى تلفت الأنظار أن « البروتون » أهالى الشمال الغربى بفرنسا Les Bretons يختلفون عن باقى الفرنسويين بعادات وتقاليد وأزياء خاصة بهم وهم مغرمون بشجاعتهم وعنادهم وشدة شكيمتهم ويمتازون بفروقات كثيرة فى

أخلاقهم وأمزجتهم ويفخرون بأصولهم البروتونية ويعتبرونها مشرفة لهم ويأبون انتسابهم للفرنساويين .

وإذا نظرنا الى ماهو جار ببلاد ايرلانده فى انكلترا وتشبث أهلها بطلب الحكم الذاتى لبلادهم (Home rul) نرى أن حب الاستقلال غريزة فيهم وطلب الحرية سجية فيهم يرجع سببها الى سلالتهم الممتازة بحريتها بخلاف سلالات « الانجلوسا كسون » التى يتألف منها باقى أهالى انكلترا وليس كما يزعمون لسبب مذهبهم الكاثوليكى .

***

وإذا دققنا وتتبعنا أسماء الأعلام والأنهار والجبال والبلاد المذكورة فى كتب الجغرافيا الانكليزية نرى أن أغلبها تكاد تكون أسماء چركسية مما يطلق على الأشخاص والقبائل أو من الأسماء التى لها مسميات ببلاد ققفاسيا نفسها مثل ذلك

ماءَتْ الشرقية Meat west	مقاطعة فى ايرلاندة الشرقية	هذا الاسم يشابه تماما اسم احدى القبائل الچركسية الكبيرة (ماءوت)
جبل غومر Montgomery	جبل بوسط انكلترا	اسم جد سلالة الكيمريين التى منها الچراكسة
أبارْدَيْنْ Alerdine	ساحل اسكوتلاندة الشرقى	يشبه قبيلة قبرداى احدى القبائل الچركسية
أنت ريم Antrim	بالشمال الشرقى لايرلاندة	مشتق من اسم قبيلة أنت الشهيرة

احمد بك غالب
الذى أظهر اهتماماً كبيراً بنشر هذا الكتاب
تعريب أخيه المرحوم عبد الحميد بك غالب

قون ناغون Connaugh Tipperary	مقاطعة بالشمال الغربى بار لا ندة مقاطعة بجنوبى ابر لاندة	اسم لعائلة چركسية شهيرة (قانه غوه ت) معناه بالچركسى أمامنا

وأمثال هذه الألفاظ التى تكاد تكون چركسية كثيرة جداً وقد أصبحت أسماء وأعلاما ببلاد الانكليز على مقاطعات وغيرها .

* * *

وتوجد أيضا بأوربا الوسطى أقوام كثيرة منحدرون من سلالة قفقاسيا محافظون على عاداتهم وأزيائهم حتى على لغتهم .

ومن هؤلاء قوم يعرفون باسم هوتسول (Houtsoules) يمتازون عما جاورهم من الأقوام السلاڤيين (الصقالبة) بطبائعهم وتقاليدهم الخاصة وأمزجتهم الرقيقة وأزيائهم الجميلة وشهامتهم وشجاعتهم النادرة والى ما هناك من الفوارق العديدة التى تميزهم عما حولهم من السكان .

وقد تحقق علماء الأنسال ان هؤلاء قوم يمتون عرقا وسلالة لقفقاسيا (من كتاب فرنساوى يبحث عن سلالة السلاڤيين مطبوع سنة ١٩١١ ص ٢٥)

يقول مورجان فى كتابه الشهير « منشأ أقوام قفقاسيا » بالجزء الثانى ص ٥٦ ما يأتى :

ولما لم توجد لدينا معلومات ثابتة عن ورود أمم « السلت » الى أوروبا الذين يعتبرون أول من سكنها واستوطنها فاننا سنبنى كلامنا وبحثنا والحالة هذه على الاحتمالات والفروض .

فمن المحتمل أن « السلت » كانوا مقيمين فى صحارى وواحات « مَرْوْ » و « خوازرم » أى « هيرڤانى » و « مرجيان » القديمتين بآسيا ووردوا بعد ذلك

الى جهات القفقاس الجنوبية وحطوا رحالهم بوديان « إيبريا » و « ألبانيا » الخضراء ذات الكلأ مارين من جنوبى بحر الخزر (بحر الچركس) .

ومن المفروض أيضا ورود أقوام أخرى من الجنس الآرى من الجنوب يعنى من « إران » وانتحوا ناحية القفقاس وبعد المرور من مضيقه الشهير تتبعوا ساحل البحر الأسود الشمالى حتى وصلوا مصب نهر الطونه (الدانوب) ومن هناك ساروا محاذين مجراه وانتهى بهم السير حتى وصلوا أوروبا الوسطى (مورجان ج ٢ ص ٥٧)

ومن البديهى أن هذه المراحل لم تتم إلا بعد وقت طويل جداً وببطء شديد ، وقد تركوا وراءهم بوسط أوروبا أسماء على بلدان وأنهر وأقوام من أسمائهم لا تزال مذكورة ليومنا هذا .

ومما يرمز ورودهم على تلك النواحى واستيطانهم فيها بعض هذه الأسماء الآتية : ألبانيا (بلادالأرناؤوط) دلماشيا ـ آلب ـ (فرانس) ايبريا ـ (اسبانيا) سلت ايبريا أومبريا . . . الخ

***

ومما يلفت النظر أن عادات وتقاليد وأزياء سكان جبال البرنية monts Pyrénées المعروفون باسم « باسك » (Les Basques) (حدود فرنسا الغربية) يختلفون تمام الاختلاف عن جيرانهم الفرنساويين لهجة وأخلاقا ويختلفون أيضا عن باقى الأمم اللاتينية كالطليان .

وان اسمهم باسك موضع نظر والتفات لأنه يشابه كلمة « باشكغ » الچركسية التى تدل على لقب عائلة چركسية .

وثابت فى التاريخ أنه قد حل ببلاد اليونان كذلك فى العصور القديمة فى عهد الفرسان أقوام نازحون من آسيا بالطريقة المتقدمة وكان آل (أشه Les achéens) يحكمون بلاد اليوناز (تاريخ دوروى) وبهذه المناسبة فان « هيرودت » و « استرابون »

أوردا ضمن أسماء القبائل الجركسية القديمة اسم « أَخَهْ » ومعناها بالجركسي (معطل احدى اليدين)

***

ومما يلفت النظر (على ذكرى بلاد اليونان) وجود تشابه عظيم بين (أديجه) التي تسمى بها الجراكسه ومعناها انسان وبين « أتيكه » اسم المقاطعة اليونانية

واذا علمنا أن قبائل البيلاج التي ينتسب اليهم اليونان والألبان وينحدرون منهم كانوا يعملون فى آسيا الصغرى تحت نفوذ وسيطرة الحيثيين فى زمن عظمتهم وشوكتهم وأنهم اقتبسوا منهم مبادئ مدنيتهم الأولى التى وضعها الحيثيون ونشروها على جميع أمم آسيا الصغرى

اذا علمنا كل ذلك وتلك العلاقات والمناسبات القديمة التى بين الامتين القديمتين الجركسية واليونانية وان اليونان أخذوا مدنيتهم عن الحيثيين أجداد الجراكسه لا تستغرب لتلك المشابهات بين الاسمين « أديجه » و « أتيكه »

ولا نستغرب أيضا لتقليد اليونان لتمثال أبى الهول ذى الرأسين والبدنين المعدود من نفيس صناعات الحيثيين ومن خوارق المصنوعات بتمثال عاثله نصفه الأعلى جسم انسان ونصفه الآخر جسم فرس (المشهور بِقَنْطُورُسْ أَوْ قِنْطير وهو مخلوق خرافى كان يأوى الى آكام « تساليا » . وقنطير عند العرب بمعنى الداهية)

وكانت لقفقاسيا أهمية خاصة عند اليونانيين وقد ذكروها وتكلموا عنها كثيراً فى أساطيرهم وخرافاتهم .

ويقولون ان (پروميتيه ـ Promethée) معبودهم نفى الى جبال قفقاسيا واعتقل بها

***

ولقفقاسيا أهمية كبرى فى تاريخ الأمم التى تنتمى الى السلالة الهندية الأوروبية

والصقالبه حتى الشعب المجرى المنحدر من السلالة الطورانية لأنهم جميعا مروا بقفقاسيا وأقاموا فيها فلهذا كانت لها أهميتها فى تاريخهم .

وقبل أن نختم الكلام فى هذا البحث نرى من الضرورة أن نفند النظرية الروسية القائلة بأن أمم (الآنت) التى كانت تسكن سواحل البحر الأسود الشمالية فى القرن السادس قبل الميلاد تنتمى الى السلالة السلاقية (الصقالبة) خصوصاً وان هذا الادعاء لا يرتكز على قاعدة ولا يبرهنون عليها بحيثيات قومية ، بل هى خالية بالمرة من البراهين والأدلة الأثرية لاسيما اذا علمنا أن هؤلاء (الآنت) يمتون سلالة وعرقاً للجراكسة وتاريخهم يرتبط تمام الارتباط بالأديغه .

وقبل الدخول فى الموضوع يجب أن نمعن النظر فيما كتبه المؤلفون السلاڤيون والمؤلفون الأجانب بشأن أمم (الآنت) وما استخلصوه بشأنهم .

يقول المؤرخ (پرقوپ پول) المتوفى سنة ٥٦٥ ميلادية (وهو أول من كتب وبحث تاريخ أمة الآنت) أن سواحل البحر الأسود الشمالية والجهات النائية الداخلية كانت مكتظة ومأهولة بقبائل الأنت وكان السلاڤيون يحيطون بهم من جهات الغرب والشمال بالقرب من نهر الطونة ومنابعه (تاريخ الأديغه ص ١٩ تأليف (شورا نوغموقة) .

فيعلم من هذا أن الآنت ليسوا من السلاڤيين بل يمتون عرقاً الى سلالة أخرى غير العرق السلاڤى .

وسنورد المعلومات الآتية بشأن السلاڤيين والآنت كما هى بالكتاب المطبوع سنة ١٩١١ بباريس (السلالة السلاڤية) la Race Slave 1911 Paris

يقول المؤلف : ان المعلومات الخاصة بالروسيين قبل الميلاد وفى العصور الأولى بعد الميلاد تكاد تكون معدومة ولا يعلم منها الا بعض النقط التى لاتشفى غليلا واذا بحثنا فى النزر اليسير الذى كتبه (بطليموس Ptolemée) من عنـدياته

تتحير فى أيهما نختار . ونظل مترددين من غير أن نلمس حقيقة يصح السكوت عليها

اننا نلاحظ أن القبائل الروسية القاطنة بين نهر الدون ونهر الطونة من الجنوب فى القرن الرابع للميلاد أطلق عليها اسم (أنت) ولكن هذا الاسم مالبث أن توارى بسرعة ولم نعد نسمع به مطلقاً .

ومؤرخو العرب لم يكتبوا عن الروسيين شيئاً مذكورا بل زادوهم غموضا وتعقيدا .

وأول ما كتب عن القبائل الروسية وخُطَّ باليد فى كتاب ولأول مرة فقط فى القرن الثانى عشر للميلاد بمدينة (كييف) ومحفوظ بها .

ولا يعزب عن البال أن الروسيين لم يتعلموا مبادئ القراءة والكتابة الا فى القرن العاشر للمسيح .

ويقول المؤلف انه عند تصفحه هذا المخطوط لم يعثر فيه أصلا على اسم (الأنت) بين الأسماء العديدة لقبائل الروس .

ثم يقول ان الروسيين بقوا فى بلادهم الصغيرة المحدودة من غير توسع نحو الجنوب أمام السيل الجارف لفتوحات (القوط والهيرول) فى القرنين الثالث والرابع و (الهون) فى القرن الرابع أيضا (والبلغاريين والمجريين) فى القرن الخامس (والأواريين) فى القرن السادس .

أمام هذه الفتوحات ظل الروسيون منكمشين فى بلادهم طوال هذه الأجيال وهم لا يقوون على التقدم والاشتباك مع هذه الأمم .

وقد جلب الهون والأواريون معهم الى أواسط أوروبا الداخلية كثيرا من القبائل السلافية ، وهذا ثابت بالتحقيق .

ولم تثبت أقدام هذه القبائل السلافية فى منابع ومجارى نهرى الدينيبر والدنيستير (Dinieper, Diniester) وبجهات حوض نهر الطونة و (بيلغاريا)

ولم يؤلفوا من أنفسهم شعبا الا بعد نهاية فتوحات الأواريين .

ولما كانت سنة ١٢٢٤ ميلادية لم تقو البلاد الجنوبية للروسيا على الثبات أمام زحف التتار وفتوحاتهم العظيمة وقد نهبوا وخربوا مناطق (كييف) و(ولهينى) (وترانسلفانيا) وفر سكانها أمام هذا السيل الجارف وفنى بسبب هذه الاغارة الفظيعة جميع أهالى حكومة (كييف) التى كان أسسها الروسيون لأول مرة ولم تقو الروسيا على تجديدها الا حوالى القرن الرابع عشر والخامس عشر بقبائل سلافية جلبوها من غليسيا .

ولم يكتفوا بهم بل غزوهم بقبائل أخرى سلافية من جهات لمستان (بوسونيا) حوالى القرن الخامس عشر وبهذه الطريقة أمكن للروسيا أن تنمو وتكبر .

* * *

وانقسم الروسيون الى ثلاث جماعات عند ما كانوا خاضعين للنفوذ التترى ومصفدين بقيودهم وأغلالهم :

الأولى : بجهات مابين أنهر (سان) و (بريبت) و (الدينيبير)وسميت بروسيا الصغرى .

والثانية : بجهات مدينة (نوغرود) وماجاورها شمالا ، وسميت بروسيا الكبرى .

والثالثة : بالجهات الغربية ، وسميت بروسيا البيضاء .

ولم تنهض الروسيا وتأخذ فى أسباب التقدم والتوسع الا سنة ١٤٨٦ فى الوقت الذى اضمحلت فيه شوكة المغول الشماليين وأفل نجمهم ودخل امراؤهم تحت السيطرة والنفوذ الروسي .

فى أواخر القرن السابع عشر توسعت الروسيا لغاية خط نهر (الدون) وفى سنة ١٧٣١ تمدت ذلك الى (أوكرانيا) وفى سنة ١٧٧١ تقدمت فى جهات مابين

الأمير الشيخ شامل مع نجليه شافع وغازى محمد
سنة ١٨٥٨

بر) وبحر (ازوف) ، وفى سنة ١٧٨٣ استوطنت بداخل بلاد (القرم) ،
١٨٧٩ بالتقدم نحو قفقاسيا .

(هنا انتهى مااقتبسناه من الكتاب المطبوع بباريس سنة ١٩١١)

* * *

خذ مما كتبه المؤرخ (راولنجتون Rawlington) أنه أتى على أوروبا حين كانت فيه مزدحمة بأقوام السومريين (الكيمريين) أجداد الجراكسة م مالسلات (مورجان ج ٢ ص ١١٨) .

المعلوم أن الكيمريين سكنوا قديما الجهات الغربية والجهات الشمالية فقاسيا واستوطنوا سواحل بحر (ازوف) من ناحيتيه .

لاشك فيه كذلك أن الكيمريين انحدروا الى جنوب القفقاس وساروا فى رى بلاد (الأشوريين) و(الكلدانيين) مخربين مدمرين نهابين واستولوا على د (الفينيقيين) وفلسطين حتى وصلوا الى الحدود المصرية .

د اليهم (بسامتى) فرعون مصر بهداياه الثمينة وعطاياه الجزيلة وبفضل ذلك ر من بطشهم وتمكن من ابعادهم عن حدودها .

ت هذه الحوادث مابين سنة ٦٣٤ و سنة ٦٣٧ قبل المسيح وهى ثابتة مما ، آثار الأشوريين (ماسبرو ٤٧٥ ـ ٤٧٩) (تاريخ أقوام الشرق القديمة)

* * *

رد الكيمريون من آسيا ورجعوا الى قفقاسيا كانوا فى حالة تعب شديد نوى لايلوون على شىء فوجدوا أنفسهم مهددين بغزو أقوام (السكيت) ازحين من شمال آسيا فلم يروا بداً أمام هذه القوة الهائلة سوى الانقسام

فانقطعت صلة الكيمريين الذين كانوا بقوا قاطنين غرب بحر از
ققفقاسيا وظلوا فى أماكنهم .

ومن المحتمل أنهم هاجروا مرغمين الى الجهات الغربيـة حتى
والكيمريون الذين كانوا يسكنون شرق بحر ازوف اضطروا أ
الجهات الجنوبية وازووا فى السفوح الشمالية لجبال قفقاسيا وها
جنوب القفقاس .

وبقى فى القرم قسم من الذين استوطنوه نهائيا ورحل عنه القسم
انقسموا الى قبائل كثيرة وتفرقوا فى البلاد (مورجان ج ٢ ص ١٧

فقصد قوم الى الجهات الشمالية وانقطعت أخبارهم وصاروا ف
آخرون جهات مصب الطونة ومروا بتراقيا ووصلوا الى بلاد ليديا .

(ذكريات نهر الطونة (الدانوب) لاتزال محفوظة عند الچرا

ولمـا أحست القبائل التى بالساحل الشرقى لبحر (أزوف) با
انتقلت وهاجرت الى صحارى قفقاسيا الشمالية ونزل قوم منهم الى الج
آسيا القديمة (الصغرى) .

فالذين دخلوا آسيا الصغرى لابد أنهم سلكوا أحد طريقين : إما طريق
الغربية يعنى سواحل البحر الأسود الشرقية ، وإما ممر (دريال) الش
سلسلة جبال قفقاسيا وهبطوا آسيا . (هذا مايقول هيرودوت) (مور

أما مورجان فيظن أن (الكيمريين) وصلوا الى آسيا الصغرى ع
قفقاسيا عند ما اضطرهم أمم السكيت للنزول الى الجنوب .

* * *

وقصارى بحثى الدقيق الثابت بالدليـل القاطع أن الكيمريين

رب بحر أزوف وسواحل البحر الأسود الشمالية وبقرب مجارى الطونة
ا فى القرن الأول والرابع والسادس للميلاد ان لم يكونوا جميعاً من أمم
) الذين كانوا مكتظين بتلك الجهات فانه من المحتم أن يكون قسم منهم أنتيتين
اذا علمنا أن الأمم التى كانت تقطن فى أوائل العصور الميلادية جهات سواحل
وانقسمت فيا بعد وانتشرت فى شمال البحر الأسود وجهات الطونة وتراقيا
يوماً ما سلاڤيين (صقالبة) بل كانوا من السكيمريين المتصلين عرقاً وسلالة
كسة .

رجعنا الى الانسكلوبيدية الفرنساوية (دائرة المعارف) فى القرن التاسع
. عند الكلام عن قفقاسيا أن اليونانيين كانوا يطلقون قديما على الچرا كسة

أمم القفقاس لم يكونوا يوماً ما سلاڤيين بل ان الشعوب السلافية المختلفة
بأوروبا الآن سيقت وجلبت من آسيا بواسطة الأمم الفاتحة إلى جنوب
وسواحل البحر الأسود استعداداً لفتوحاتهم وتوسعهم حتى وصلوا فعلا الى
روبا ومعهم هؤلاء (السلاڤيون) وكان ذلك فى القرن الثالث والرابع بواسطة
ين) وفى العصر الخامس بواسطة (البلغاريين) وفى السادس قبل الميلاد
(الاواريين) .

يلنا على ذلك ما جاء فى كتاب :
لالة السلاڤية المطبوع بباريس سنة ١٩١١
La Race Slave . Paris 1911 .
ذكره المؤرخ الشهير پرقوپ پول المتوفى سنة ٥٦٥ ميلاديه إن أمم (الأنت)
محاطة فى مواطنهم جهات شمال البحر الأسود ونواحى نهر الطونه ، بأقوام

سلاڤيه يختلفون عنهم عرقاً وجنساً والآنت أمة قائمة بذاتها ويتصلون ب
القفقاسية وأنهم يمتون إلى قدماء الچرا كسة .

وقد بحث استرابون المؤرخ والجغرافى فى العصر الأول للميلاد
وتاريخهم وسمى نهر كوبان الحالى (انتى كيتيس) نسبة إلى أمم الأنت .

وكلمة أنت مستعملة عند الچرا كسة وتدخل كثيراً فى ألفاظهم وه
الچرا كسة أنهم تجندوا فى جيوش القوطيين والهون والأواريين وحاربوا

وكل هـذه الأدلة والبيانات تثبت دعـواى أن الأنت آباء
وأجداد الچرا كسة .

* * *

يقول مؤرخو الروس : ان القبرداى وهى من أهم القبائل الچركسية ك
فى القرن السادس للميلاد الساحل الغربى لبحر أزوف وأتى عليهم زمن اسة
شبه جزيرة القرم وأنك تجد اسمهم مطبوعا على خريطة جغرافية البحر ا
رسمها (قره دوكس أنونسكى) الروس سنة ١٤٩٧ بحروف حمراء بالج
بقرب مدينة (تاغايزوك) غربا .

وتجد اسمهم منقوشا أيضا على الوادى المحصور ما بين نُهَيْرى (قاچا)
الواقع جنوب مدينة (سيوا ستپول) ويعرف باسم وادى القبرداى
الچرا كسة .

كذلك القلعة الكائنة بجوار سيوا ستپول وجنوب مدينة (إنجر
حولها من المبانى المندثرة تعرف بقلعة انجرمان أو قلعة الچرا كسة .

بناء على هذه البيانات وتلك الآثار التاريخية وما سبقتها من الحوادث
أن الچرا كسة كانوا أصحاب هذه البلاد ومستولين عليها .

* * *

ويتضح مما ذكر ومما حققه علماء الأنسال ومتخصصوه ومما هو ثابت فى كتاب La Race Slave أن القبيلة العظيمة التى كانت تسكن بلاد المجر فى قديم الزمان وتعرف باسم هو تْسُولْ Houtsoules تنحدر من قفقاسيا .

* * *

ومن الثابت أيضا عن هؤلاء العلماء أن السواد الأعظم من أهالى الروسيا السلافيين ما هم إلا چراكسة وأتراك وتتار تغلبت عليهم السلافيه وخرجوا من جنسيتهم فأصبحوا سلافاً .

ومما لا شك فيه كذلك أن قسما من أهالى بولغاريا الحاليين علبت عليهم السلافية بعد أن كانوا أتراكا .

* * *

وخلاصة القول أن جميع الشعوب التى بقيت غرب بحر أزوف وبشمال حوض البحر الأسود ما كانوا إلا قفقاسيين .

يقول المؤرخ (شورانو غموقه) : أن الآنت قبيلة چركسية قديمة . ويقول مورجان : ان القبائل التى كانت موجودة فى زمن ما بداخل الأناضول وبجهات طرابزون الجنوبية ومعروفه باسم (أپائيت) و(سان) لم تخرج عن كونها چركسيه وما هى إلا بقايا أمة السومريين التى هبطت إلى جنوب القفقاس واستولت على الأناضول .

وقبيلة سان رجعت فيما بعد إلى القفقاس وكانت تعرف هناك باسم (جان) أو (جانه) ومشهوره بفرط شجاعتها ووطنيتها .

ولا يبعد أن اسم (جانيك) الذى يطلق اليوم على قسم من ساحل البحر الأسود ابتداء من سمسون إلى طرابزون أن يكون اسما مستعاراً من كلمة جان المار ذكرها .

***

وها أنا قدمت إلى مواطنى الكرام ما تيسر لى جمعه من الأدلة والبراهين من أقوال الثقات المؤرخين ومما وجد من الآثار بشأن الكيمرين (شعوب قفقاسيا) قياماً بواجبى نحوهم وأعرضه على بساط بحثهم وثاقب نظرهم راجيا من اخوانى الذين لهم دراية وعلم (بعلم الأنسال والألسن) زيادة التدقيق والتنقيب عن الكتب القيمة الموجودة بخزائن أوروبا العالمية التى تبحث وتقارن بين لغة الكيمرين ولغتنا الچركسية.

وبانتظار نتيجة هذا البحث من حضراتهم سأنتقل الى الكلام عن أحوال الچراكسة الذين بقوا فى قفقاسيا من ألفين وثلاثمائة سنة وبعبارة أخرى سأبدأ بحثى عن حيثيى قفقاسيا من القرن الرابع قبل الميلاد إلى وقتنا هذا أى ابتداء من زمن هيرو دوت .

من المعلوم أن هيرو دوت شيخ المؤرخين هو الذى هدانا إلى المعلومات التاريخية الأولى عن قفقاسيا وشعوبها وقبائلها .

وقد عاش هيرو دوت فى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد وساح فى تلك البلاد واليه يرجع فضل جمع المعلومات عنها وعن أقوامها والتى تعد من أقدم الوثائق التاريخية.

ولكن تاريخ الفترة من زمن استيلاء السكيت لغاية زمن هيرو دوت ظلت مجهولة ضائعة فى ظلمات الأجيال الماضية .

ومما يؤسف له أيضا أن مرت أربعة قرون أخرى بعد هيرو دوت وتاريخ القفقاس مسدول عليه ستر كثيف لا يرى ما وراءه حتى جاء (سترابون) الجغرافى والمؤرخ المشهور وساح فى قفقاسيا وجمع ما جمع ودونه فى جغرافيته المشهورة .

وبفضل هذه المعلومات والبيانات أمكننا معرفة الشيء الكثير عن مختلف قبائل قفقاسيا وأسمائهم وعاداتهم وما إلى ذلك من الأشياء التى لا تخلو من فائده .

أما تاريخ الچراكسة وبلادهم ابتداء من القرن الأول للميلاد فانه مفصل فى كتاب المؤرخ الچركسى (شورانو غموقه) الشهير وهو يحوى فيما حوى تفصيلا عن تقاليدنا الوطنيه وعاداتنا وأغانينا القوميه وتاريخ العائلات الچركسية وغير ذلك من المعلومات القيمة .

والكتب الروسيه التاريخيه تذكر أيضا تاريخ الچراكسة وحروبهم ونظام الحياه والمعيشة عندهم لغاية أوائل القرن التاسع عشر .

* * *

ومع ذلك فان أهم الحوادث فى تاريخ الأمم الچركسيه وقفقاسيا هى استيلاء الروسيا على بلادهم بعد حروب دامت رحاها ما يقرب من قرن والتى شجع على استمرارها وأشعل نارها أمير القفقاس المرحوم الشيخ (شامل) وانتهت هذه الحروب بسقوط البلاد كلها فى يد الروسيا وابتدأت هجرة الچراكسة المشؤومة من بلادهم . . . . . ! !

وقد جمعت واقتبست كل ماأمكن من المعلومات عن هذه الحروب من المجموعه العسكرية الروسية وبعض الكتب المطبوعة بقفقاسيا بمعرفة الروسيين أنفسهم .

* * *

واذا استعرضنا تاريخ (الأديغه) بأكمله نستنتج أنه ينقسم إلى أربعة أدوار :

أولا

دور الفتح والتضخم

هذا الدور يبتدئ من أربعة آلاف سنة قبل المسيح كما يقول مورجان . ويدوم ثلاثة آلاف سنة وينتهى فى العصر التاسع . ق . م .

وهو الدور الذى استولى فيه هيثيت الجنوب على جميع آسيا الصغرى ، وبلاد مابين النهرين بالعراق وسوريا حتى بلاد بنى اسرائيل ، وشيدوا امبراطوريتهم العظيمة ونشروا مدينتهم الزاهية على جميع الأمم التى كانت تحيط بهم وهى تلك المدينة التى اتخذها قدماء اليونان أساسا لمدينتهم .

ومما زين جبين هذا العصر ثلاثة رجال :

الملك (مائو زير) والملك (مائوطور) اللذين بسطا عظمتهما ونفوذهما شمالا وجنوبا والشاعر العظيم (يانتاور [1]) الذى نثر الدرر فى عصره .

ثانيا

دور التقهقر والانحطاط

يبدأ هذا الدور من القرن التاسع قبل الميلاد لغاية القرن السابع بعده ومدته ألف وخمسمائة سنة وقد تخللت هذه المدة حوادث وأهوال ذهبت بامبراطورية الحيثيين العظيمة من آسيا الصغرى وتقهقروا فيها رويداً رويداً حتى رجعوا حيث كانوا الى قفقاسيا .

وأهم حوادث هذا الدور :

أولا : قيام الأشوريين من الجنوب وقيام الپيلاج من الغرب فى القرن التاسع قبل الميلاد ضد الحيثيين ووقوع الحرب بينهم .

ثانيا : هجوم أمم السكيت من شمال قفقاسيا وتوالى الحروب .

ثالثا : انقسام الكيمريين وسكان قفقاسيا عموما وتشتتهم أمام زحف السكيت الجارف .

---

(١) وكلمة (يانتاور) معروفة للغاية بين الجراكسة وتعد من الأعلام الجركسية الصرفة . (المؤلف)

رابعا : ورود قدماء اليونان فى القرن السابع الى سواحل البحر الأسود ووصو
الى داخلية ققفاسيا وتأسيس ممتلكات فيها .

خامسا: انتشار المسيحية فى جنوب القفقاس فى أواخر القرن الأول للميـ
ووصولها لبلاد الأباظه (الأبخاز) .

سادسا: دخول جميع بلاد الچرا كسة تقريبا تحت نفوذ حكومة بيزانطه الا
حوالى القرن الثالث للمسيح .

سابعا : استيـلاء الصين فى القرن الرابع للميلاد على جزء من جنوب القفق
واستعماره .

* * *

ولم يقف الأمر عنـد هذا الحـد بل انتهى باحتلال الأواريين (الأوار) للب
فخربوا ودمروا وأخذت مدنية الچرا كـية فى الاضمحلال .

ثالثا

دور التيقظ والانتباه

يبدأ هذا الدور من أوائل القرن السابع للميلاد لغاية أوائل القرن الثامن ع
ومدته ألف سنة تقريباً ويبتدئ بدخول العرب الى جنوب قفقاسيا وانتشار الدين
الاسلامى (سنة ٢٢ للهجرة النبوية) .

وفيه تقع الحروب الدامية بين الروسيا وتركيا من أجل قفقاسيا (كل يغنى
ليلاه) وغير ذلك من الحوادث الجسام التى سنبينها لك :

أولا : فى أوائل القرن السابع يدخل العرب المجاهدون جنوب قفقاسيا ويؤسسـ
حكومة عربية وينشرون الدين الاسلامى الحنيف بالبلاد فيدخل النـ
فى دين الله أفواجا .

ثانيـا : وفى القرن المذكور يُنَصّبُ الأمير (بلوتوقه) بصفة « پشيم » او « پشى سخوه »
على عموم الچراكسة أى أمير الأمراء . وهذا الأمير من قبيلة « كيمر كوى »
وهو أحـد الاخوة الثلاثة من نبلاء القبيلة (بلوتوقه ـ وجان ـ
وحاتو قواى) .

ثالثـا : وحوالى القرن التاسع تقريبـا تقع الحرب لأول مرة بين الروسيين
والچراكسة فى جهات مصب نهر قوبان خصوصا مع قبائل « رَدَدْيَا »

رابعاً : وفى القرن المذكور تظهر عائلة (ينال) « فى قبيلة الأباظه » وتؤسس
حكومة دستورية بقفقاسيا فى جهات قوبان وترَكْ والأباظه وعلى رأسها
أمير من الايناليين وتنشأ جملة محاكم .

خامسا: ويجئ بعد ذلك (جان خوانوقه بسْانْ بَكْ) الأمير القبردى
العظيم حفيد الأمير ينال ويؤسس الحاكم ببلاد القبرداى ويجعلها
درجات ويقسم الأهالى الى طبقات ويحمى التجارة ويقيم العدل بين
الناس .

وهو صاحب القول المأثور :

« لا يمكن لطواصه الا أن تـكون مُلْـكاً لحاكم قفقاسى واحد فقط »
(طواصه معناها بالچركسى مابين البحرين والمراد بالبحرين هنا الأسود
والخزر) .

سادساً: ثم يظهر « اسـلام بك » المصلح العظيم ومستشاره الحـكيم الشهير
(چباغى) الذى وضع القواعد لاصلاح نظام الحياة الاجتماعية والعادات
الچركسية (أديغه خابزه)

ويستولون على بلاد الأستين (القوصحه) والايتفوش وقره چاى
ويضمونها الى الچركس .

سابعا : وفى القرن الثالث عشر يؤسس العثمانيون حكومتهم فى الأناضول
القرن الخامس عشر يفتحون القسطنطينية ويسقطون الامبر
البيزنطية ثم يدخل الجراكسة تحت نفوذهم الاسمى .

ثامنا : ثم يحتل العثمانيون بعض المواقع على سواحل البحر الأسود خصو
« أنابا » و « صفوچق » و « آزاق » .

تاسعا : وفى عهد بطرس الأكبر يتقدم الروس ويوسعون حدودهم فى
الداغستان ويحتلون مضيق قفقاسيا الشهير .

عاشرا : وفى أوائل القرن الثامن عشر تقع الحرب بين الروسيا وتركيا فى
وشمال قفقاسيا .

* * *

وفى هذا الدور حكم سلاطين الجراكسة وملوكهم مصر ودام حكم
جملة قرون .

ثم يجىء المغول من آسيا فلا تقوى أمامهم دولة العثمانيين ولا الروسيا فتن
وتغلبان على أمرهما خصوصا الامارات الروسية فانها تزول تماما وتذهب مدينة
« العاصمة » طعمة للنار . ويموت من جراء هذا الحريق مايقرب من الم
نسمة ويسود الخراب والدمار جميع البلاد الجنوبية لقفقاسيا .

والنتيجة فان المفاجآت والتقلبات تتجلى فى هذا الدور ـ فبينما هى أدوار
وتقدم للأمم الجركسية فاذا بها تنقلب الى محن وحروب فى الداخل وهجوم و
من الخارج وهكذا دواليك بين هرج ومرج وفواجع دامية لاتستقر على حال

ولم يستفد الجراكسة على العموم من الظروف التى سنحت لهم لتوطيد
وتقوية سلطانهم .

رابعا

دور الانقراض والزوال

بدأ هذا الدور المشئوم فى أوائل القرن الثامن عشر ، الوقت الذى قضت السياسة
رسيا أن تضم قفقاسيا اليها .

وانتهى باندحار القفقاسيين بما فيهم الچراكسة وانكسارهم انكساراً تاماً
م قوات الروسيا العظيمة وبهجرتهم العامة من بلادهم . وتتلخص حوادثه كالآتى :

أولا : سلخ أقليم بلاد القبرداى الممدودة من بلاد الچراكسة من النفوذ العثمانى وعدها بلاداً مستقلة وفقاً لماهدة « بلغراد » سنة ١٨٣٩

ثانياً : تظاهر الروسيا فى عهد الأمبراطورة (كاترينا) سنة ١٧٦٥ ببناء قلعة ببلاد القبرادى فى موزدوق (مزدجوْ)(١) وإعدادها سراً للاستيلاء على بلادهم ومنحهم بعض الامتيازات المخصوصة

ثالثاً : استيلاء الروسيا على شبه جزيرة القرم سنة ١٧٧١

رابعاً : وضع الروسيا يدها على الشمال الغربى لبلاد الچركس (جهات كوبان) بدلا من العثمانيين تنفيذاً لماهدة «أدرنه » سنة ١٨٢١

خامساً : قيام جميع أهالى قفقاسيا الشمالية ضد الروسيا (الچراكسة والدغستانيون واللزكى)

سادساً : ظهور « المريد » (وهم مشايخ الطرق ومريدوهم) بالدغستان وبلاد اللزكى وأهمهم المرحوم الشيخ شامل سنة ١٨٢٦ وتأليف حكومة متحدة منظمة

---

(١) معناها بالچركسى الغابة الصماء

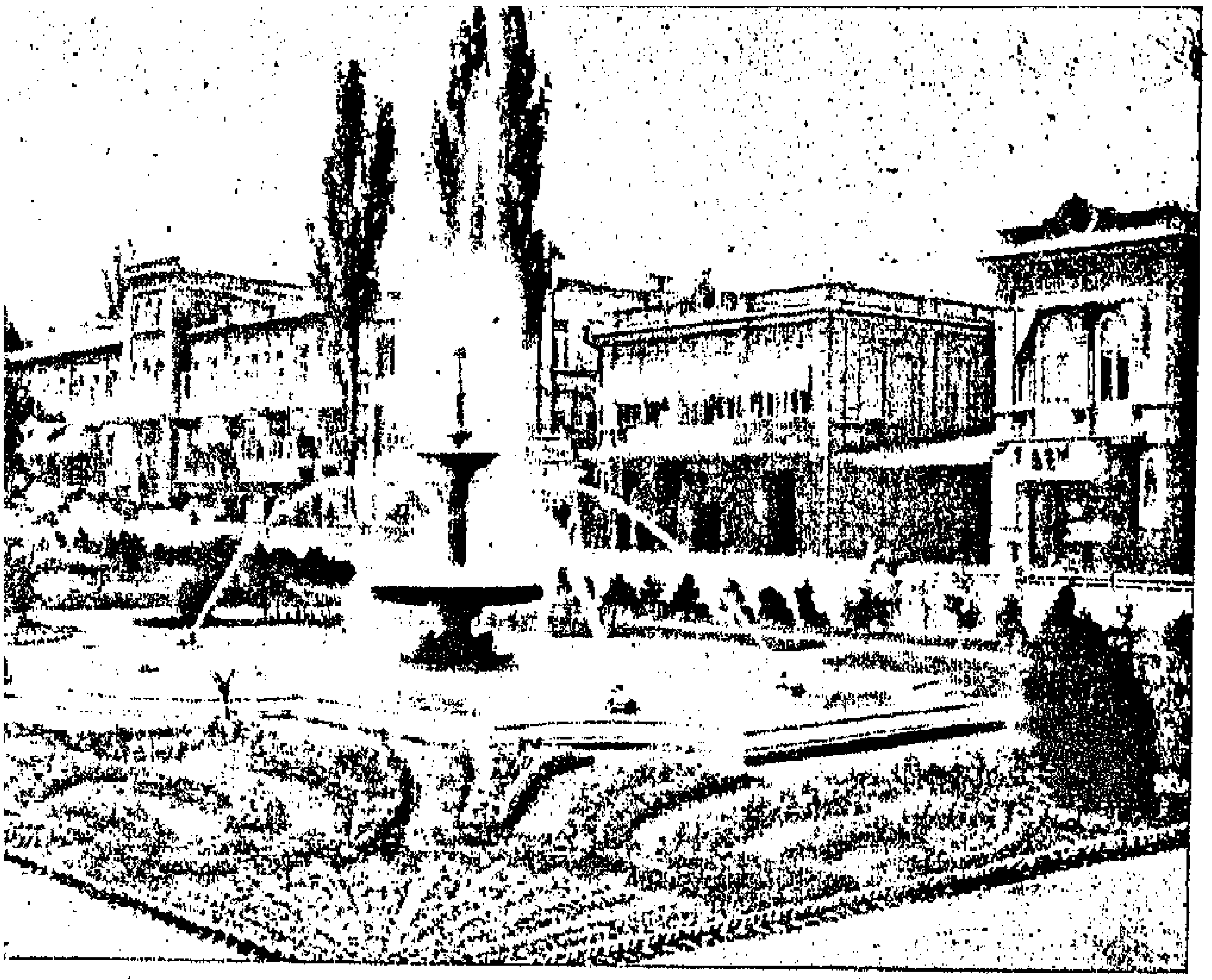

ميدان بمدينة نارتسانا

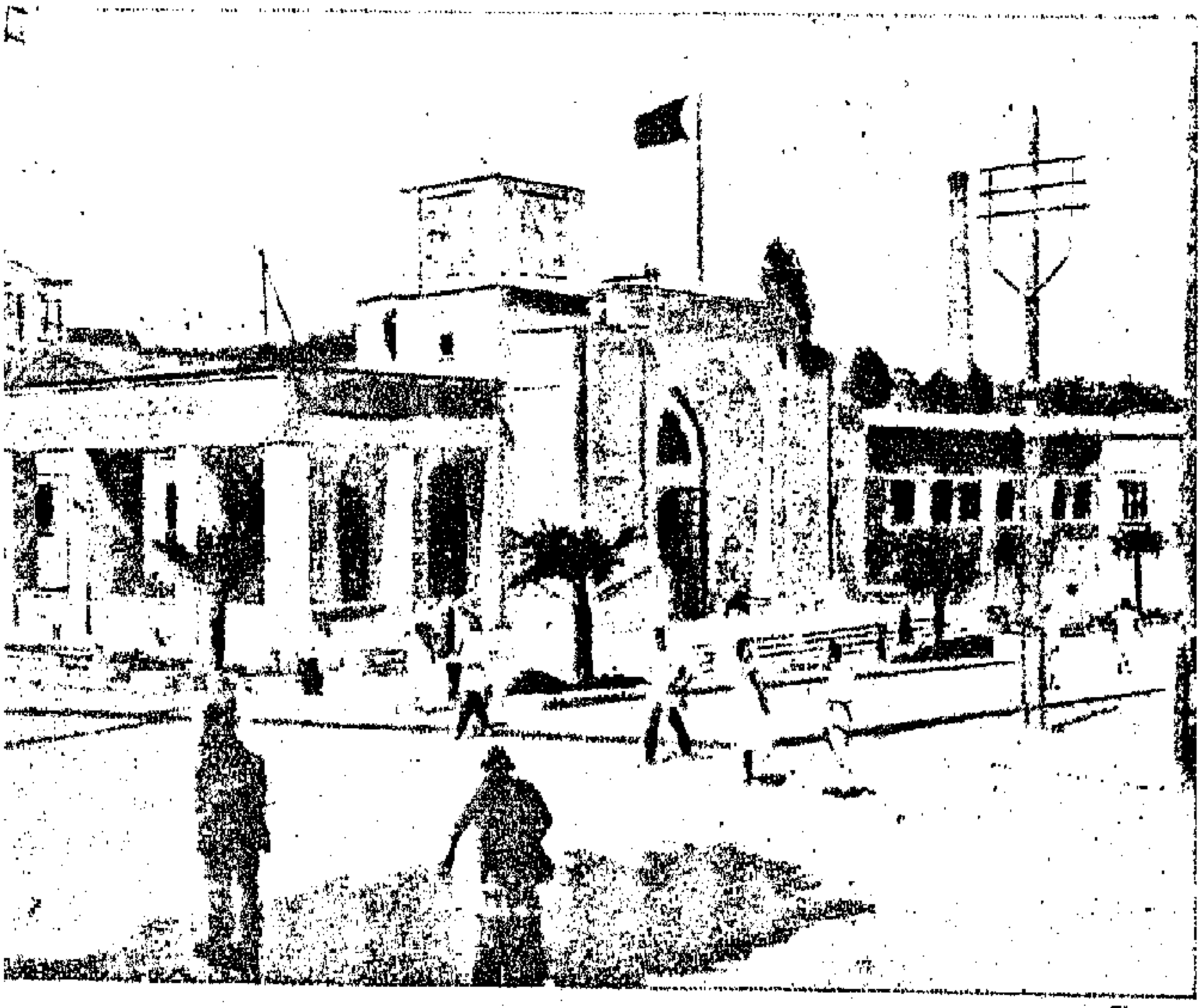

مدنة نارتسانا

سابعاً : تطبيق وتنفيذ القوانين العسكرية وتأسيس المحاكم وإيجاد مصانع للأسلحة والبارود

ثامناً : ابتداء الحرب بين الشيخ شامل ومن معه وبين الروسيا

تاسعاً : انقلاب الشيخ من خطة الدفاع الى الهجوم سنة ١٨٤٠ وانتصاره فى جملة مواقع

عاشراً : ارساله الرسل والنواب الى چراكسة قوبان خصوصا الشيخ محمد امين (النائب الثالث) للدعاية فى شمال قفقاسيا ضد الروسيا ولضم المجاهدين لصفوفه

حادي عشر : قيام چراكسة كوبان بزعامة الحاج « كراندوق بك » واستيلائهم على جملة قلاع روسية

ثاني عشر : وقوع الحرب بين الروسيا والدول المتفقة (انجلترا وفرنسا وتركيا) المعروفة بحرب القرم سنة ١٨٥٣

ثالث عشر : وقف القتال بين الشيخ شامل والروسيا مدة هذه الحرب

فكانت الظروف ملائمة جداً لاستقلال قفقاسيا عقب حرب القرم وانشاء حكومة چركسية مستقلة .

غير أن فرنسا كانت سبباً فى ضياع هذه الفرصة بتسرعها فى عقد الصلح مع الروسيا مع أن انكلترا كانت تساعد كثيراً لاستقلال قفقاسيا والاعتراف لها بحق اختيار نظام الحكم الذى تريده . وفوق ذلك كانت تريد أن يكون البحر الأسود بحراً حراً على الحياد غير خاضع لأى نفوذ خصوصا السيادة الروسية .

وقد طلبت انكلترا هذه الطلبات لما رأت أن الروسيا بات مركزها الحربى خطراً وأنها صارت عاجزة عن الدفاع أمام القوات المتحدة ولكنها رجعت عن مطالبها

أمام اصرار حليفها « نابليون الثالث » امبراطور فرنسا الذى حتم نهو الحرب سريعاً نظراً للاضطرابات التى ظهرت مقدماتها فى فرنسا وخوفا من استفحال أمرها فوافقت على عقد الصلح .

أما تركيا فانها لم تبدأى اهتمام بشأن قفقاسيا ولم تحرك ساكناً (من كتاب تاريخ أوروبا السياسى للموسيو دوبيدور) ـ M. Debidour ج ـ ٢ ص ١٤١ ـ ١٤٥

رابع عشر : وبعد حروب القرم سنة ١٨٥٩ حشدت الروسيا جيشاً عدده ٣٠٠٠٠٠ فى قفقاسيا ضد « الشيخ شامل » وانتهى الأمر بأسره .

خامس عشر : وفى سنة ١٨٦٣ احتلت الروسيا بلاد الچركس وابتدأت هجرتهم المشؤومة إلى مختلف الأمصار والأقطار . . . ! !

ومن ذلك الحين أخذ نجم هذه الأمة النجيبة فى الأفول والزوال ولم يقم لها قائم لوقتنا هذا ولا يدرى سوى علام الغيوب متى يجىء الوقت الذى تتبوأ فيه مركزها الجدير بها بين الشعوب .

ومثلهم الآن كمثل اليهود كتب عليهم البؤس والشقاء والتشتت فى البلاد غير أن اليهود كانوا أسعد حظا منهم بمالهم وعلمهم وجاههم ومركزهم فى الهيئة الاجتماعية .

أما جراكسة مصر وقفقاسيا وتركيا فلم يفكروا فى شىء من هذا حتى ولم يهتموا باخوانهم ووطنهم الذى تركوه وراءهم ولم يعملوا له شيئا فظلوا خاملى الذكر وأصبحوا نسيا منسيا . . . !! .

وانى أقرر ذلك وكلى أسف وخجل وقلبى ينفطر حزناً وأسى على ماوصلنا اليه من ضعف وشقاء ولا أجد مؤاساة سوى الترحم من أعماق قلبى على شعب حكم عليه بالفناء .

قد بينا فيما سبق تاريخ الأمة الچركسية فى الدورين الأول والثانى ابتداء من

أربعة آلاف سنة قبـل المسيح لغاية استيلاء (السكيت) على بلادهم ونتيجة هـذا الاستيلاء وذكرنا كل ما ورد عن (هيرودوت واسترابون) لغاية القرن الأول للميلاد

وذيلنا هـذا الجزء بنبـذة من عوائدهم وأخلاقهم وطبائعهم وصناعاتهم ومعارفهم وآثارهم القائمة ببلادهم وما الى ذلك من الأخبار .

أما الحوادث التى أعقبت ذلك فإنى سأنشرها فى الجزء الثانى الذى سأخصصه للحوادث السياسية والحربية .

* * *

القبائل الجركسية القديمة

فى عهد هيرودوت واسترابون بقفقاسيا

القبائل الجركسية القديمة التى ذكرها المؤرخون وخصوصا هيرودوت واسترابون فى كتبهم هى الآتية : مؤوت (مَتْ) ، اسپورچيانى ، سيندى ، سَرْسَتْ ، آشاءآن ، چيكس ، هانيوخ ، والأبخاز (الأباظة) .

وكانت قبائل « الماؤوت » و« النُّوأرْتَ » و«الآغرى» « والأوبى» و«الأرَرَحى» و« التاريت » و« السيت تَاسِنْ » و« الدوسقه » تقطن مابين نهرى الدون (تاناى) وكوبان (انتى كيتيس) ومقر حكومتهم مدينة (چورجى پاپا) التى أسسها اليونان الأقدمون (مورجان ج ٢ ص ١٧٥) .

والمظنون أن قبيلة « دوسقة » المذكورة فى بيان مورجان هى قبيلة « توشى » الموجودة لوقتنا هذا وتتكلم باللغة الكورجية .

ويقول مورجان نقلا عن العالم (كلاپروت ـ Claprote) ان قبائل السندى والجيكس هم بلا شك أجداد الجراكسة وان قبائل السِّندى (والأبخاز) والسرست كانوا يسكنون فى تلك الجهات قبل التاريخ . والآثار الموجودة بحوض نهر كوبان ومقاطعة ابخازيا يتحتم أن تكون من آثار هؤلاء القوم (مورجان ج ٢ ص ١٨٦) .

كما أن الكهوف والمغاور الموجودة اليوم فى كوبان وبلاد ابخازيا وجهات « نفروسيسك » من صنع أجداد الچراكسة .

ويقول استرابون ان قبائل (مت ـ مؤوتيس) كانوا يتعيشون بصيد الأسماك من الجزائر القريبة من السواحل ويتجرون بها وفوق ذلك كانوا زراعا مهرة وكل هذا لم يقعدهم عن الحرب والضرب والطعان .

وبلادهم مشهورة بتجارة القمح . ولا تزال لليوم حافظة لهذه الميزة . ويفوقون جيرانهم سكان وادى الدون ببعض المدنية نوعاً ما خصوصاً اذا علمنا أن هؤلاء كانوا على الفطرة .

وسكان حوض نهر كوبان الأسفل وجزيرة « طامان » كانوا أكثر عددنا بالنسبة الى السندى (مَتْ) بل بالنسبة الى الچراكسة أجمعين .

ويزعم (شوپان ـ Chaupain) وهو السكرتير الخاص للپرنس « فوراكين » سفير الروسيا بباريس فى أوائل القرن التاسع عشر) فى كتابه (تاريخ ققفاسيا والقرم) عند البحث عن الچراكسة أن نساء قبيلة « مت » كن يتعلمن ركوب الخيل واستعمال السلاح ويرمين بالنبال ويخرجن للصيد فى صحبة أزواجهن وكن يذهبن الى الحرب

وظهر فى وقت ما من هذه القبيلة أميران وحشدا قوة ونزلا بها الى الجنوب بقصد الفتح والاستعمار .

وظهرت فى هذه القبيلة أيضا شرذمة حربية من النساء غير المتزوجات (آمازون) وكانت تحارب فى صفوف الرجال .

ويلاحظ جليا أن اسم (سورمات أو سارمات) الذى لقب به استرابون أهالى ققفاسيا الشمالية الغربية مشتق من اسم « سومرى » ومستعملة لوقتنا هذا .

ومن المدن الشهيرة بققفاسيا القديمة « تاناى » و « جورجى پاپا » و « ديوس كورياس » .

أما « تاناى » فكانت بجوار مصب نهر الدون فى بحر أزوف وقريبة من مدينة « روستوف » وكانت مركزا تجاريا هاما بين آسيا وأوروبا وفيها كانت تتبادل السلع الاسيوية بالبضائع الأوروبية .

فكانت ترد اليها من أسيا الأرقاء والماليك والذرة ويستبدلونها بمنسوجات وأقمشة أوروبية و« ديوس كورياس» كانت قائمة بالقرب من قلعة « صخوم » المعروفة اليوم بهذا الاسم فكانت مركزا هاماً للتجارة خصوصا الذهب .

ويقول مورجان نقلا عن كتاب استرابون أن عدد القبائل التى كانت بجهات قفقاسيا إن لم تكن ثلاثمائة فانها كانت سبعين قبيلة على الأقل يتكلمون بلهجات مختلفة وكل منها مستقلة عن الأخرى بأميرها وتقاليدها محافظة على ذلك أتم المحافظة والجميع يعيشون على الفطرة والبداوة (مورجان ج ۲ ص ۱۸۳) ولا يتطرق إلى الأذهان أن الچراكسة كانوا رجال حرب وضرب على اليابسة فقط بل كانوا من أحسن البحارة أيضاً وكانت لهم سلطة واسعة فى البحر الأسود .

وقد اشتهر (السنديون والكولخيد) بالقرصنة فكانت لهم مراكب خفيفة مستطيلة الشكل تسع الواحدة منها خمسة وعشرين رجلا يتكون منها أسطول كبير يسطون به على كل المراكب التى يصادفونها فى البحر وينهبونها ويأسرونها ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يهاجمون البلاد الواقعة على الشواطئ ويسلبونها وينزلون بأهلها أنواع العذاب وكانت المدن اليونانيه أحسن ملجأ لهم ومستودعاً لغنائمهم (مورجان ج ۲ ص ۱۸٥) والمعروف فى التاريخ أن المرحوم فرح على باشا (القوقازى) حين انتدابه إلى بلاد الچراكسة من قبل الدولة العثمانية صادر كثيراً من مراكب القرصان الچراكسة وأحرقها بسبب سطوهم واعتداءاتهم المتكرره على المراكب العثمانية وكان ذلك ما بين سنتى ۱۷۹٥ ــ ۱۷۹۹ فى عهد السلطان عبد الحميد الأول .

(قبائل السندى والسكولخيد كانوا يسكنون شواطئ البحر الأسود الجنوبية الشرقية حيث بلاد «اللاز» اليوم وكانوا ماهرين جداً فى صناعة المراكب والسفن ولهم دراية تامة بفن البحار وكانت معيشتهم منها ومن القرصنة) .

وذكر ضمن أهالى قفقاسيا كذلك أربع قبائل كانت تسكن شرق القبائل المار ذكرها وتمتد لغاية بحر الخرز وتعيش فى بداوة تامة بعيدة عن مبادئ المدنية وهى :

« تابينائى » ، « پان كـانى » ، « سيراكس » ، « أوْرْسْ » .

وكان لـ « أباأكورس » ، (ملك سـيراكس) ، عشرون ألف فارس ولـ « سپاودنياس » ، (ملك أوْرس) ، ثمانون ألف فارس .

ومما يلاحظه مورجان أن هؤلاء السيراكس كانوا چراكسة بلا شك ولا ريب (ج ٢ ص ٢٠٦ مورجان) .

وأسماء جميع هذه القبائل التى مرت باقية ومستعملة للآن عند الچراكسة وهى أسماء لقبائل أو لعائلات .

مثلا قبيلة « كميركوى » مصدرها « كيمرى » « أو سومرى » كذلك « أنچوق » مخففة من « أنت تسوق » . و « مَتْ » مخففة من « ماؤوت » وهكذا...

* * *

وإذا رجعنا الى الوراء نلاحظ أن الأقوام التى جاءت قفقاسيا كالصريين والسوريين والعبرانيين وغيرهم اختفت جنسياتهم واندمجوا فى الأكثرية الچركسية وتلا شوامع الزمن وتمثلوا فى العناصر المحيطة بهم (وتچركسوا) غير أن هذا « التمثل » ترك أثراً خاصاً فى النسل واللسان الچركسى كما يلاحظ وجود السكيت والمجريين بجوارهم .

واننا نلاحظ فى أسماء كثيرة من العائلات الچركسية ما يذكرنا بأسماء قديمة

تاريخية مثلا « سَرْمَتْ » تذكرنا بقبائل « السَّرْمَاتْ » وقد جاور « المجريون » بلاد القبردى وعاشوا أصدقاء متحابين . ولما انقرضت مملكة الخزر فى القرن العاشر للميلاد لجأ كثير من العائلات الخزوية والمجريه لداخلية بلاد الجراكسة .

وغير هذا فان اليونانيين تركوا بقفقاسيا آثاراً ومدنية عندما كانوا مستعمرين جزءاً منها ومشتغلين بالتجارة وقد استفاد الأهالى من هذه المدينة كثيراً وظل اليونانيون أصحاب نفوذ وصولة على سواحل بلاد الجركس بالبحر الأسود حتى انقراض امبراطورية بيزانطه وعلى يدهم انتشر دين المسيح بتلك البلاد . وكان الجراكسة يسمون الرهبان اليونان (شوجن) .

ولما دالت دولة « بيزانطه » وجاء العرب مبشرين بدين الاسلام لم يقم للرهبان قائمة وسط هذا الفتح المبين . فاضطروا لاتباع الغالب والاندماج ضمن الجراكسة .

كذلك فعل باقى اليونانيين الذين كانوا مقيمين فى البلاد وبعد زمن « تجركسوا » كما هى العادة ولم يبق منهم ومن آثارهم سوى اسم (شوجن) الذى أصبح مع مرور الزمن اسما لبعض العائلات القبردائية .

كذلك توجد عائلات كثيرة اختلطت مع التتار والترك وأسراء الروسيين والأرمن والكرج وبعض الأقوام الأخرى .

وأكثر هذا الاختلاط والمصاهرة يشاهد بين التتار والجراكسة لمناسبة رحيل نبلاء وعظماء التتار من القرم وورودهم الى بلاد الجراكسة واقامتهم فيها بعد تركهم لبلادهم لأسباب سياسية .

وأطلق الجراكسة على هؤلاء النبلاء اسم (خانوقه) وأحلوهم مكاناً محموداً ورفعوا درجتهم على الأمراء « يشى » أصحاب الأصالة والنبل . وقد سلكوا هذه السياسة أيضا مع عظماء الأقوام الأخرى الذين لجأوا لبلادهم سعيا وراء تقوية نفوذهم واعلاء لكلمة الجراكسة أنفسهم .

وبسبب هذا الاختلاط لم تسلم اللغة الجركسية من بعض الدخيل عليها وقد تجد اليوم كلمات كثيرة دخلت على لغتهم من اللاتينية والسلافية واليونانية والعبرانية بله التركية والتترية .

ومن رأيي الخاص ان دخول اللاتينية واليونانية ضمن لغة الجراكسة لدليل آخر على كون الجراكسة من نسل آرى خصوصا اذا علمنا أن اللغة الأوروبية مرتبطة أشد ارتباط باللغة (السانسكريتية) المعتبرة لغة السلالة الآرية الصافية . وان لغات الأمم المختلفة التى أصلها آرى ماهى الا فروع من الدوحة (السانسكريتية)

وانني أعترف صراحة بأن بحث لغتنا لا يزال فى دوره الابتدائي وبما أنها جملة لهجات فانى أترك للعلماء المختصين بحثها ودراستها حتى تزداد الفروض التى قيلت فى (منشأ) الجراكسة وسلالتهم نوراً وايضاحاً وما الى ذلك من المباحث العلمية اللغوية حتى تتجلى الحقيقه أمام التاريخ والجراكسة أنفسهم .

* * *

وبقدر ماأوتيت من علم ، مع اعترافى بعجزى ، قد بحثت ودققت فى لغتناوقبائلنا كما سيجىء ذلك فيما بعد . ولكننى أقر بعجزى وعدم ايفائى الموضوع حقه كما كنت أروم وأبتغى تاركا ذلك للاختصاصيين . ومفتاحا لهـذا الباب أدل من أراد التعمق فى الموضوع على الكتب الآتية :

Grammaire Générale Indo – Européenne par Eichhoff– 1867

الأجرومية العامة (النحو العام) للغات الهندية الأوروبية تأليف ايشهوف سنة ١٨٦٧ .

Grammaire de Comparaison des langues Indo– Européennes Par François Bopp. 1872

الأجرومية المقارنة للغات الهندية الأوروبية تأليف فرانسوا بوپ المطبوع سنة ١٨٧٢

القبائل الچركسية الحالية وبعض المعلومات عنها[1]

سأذكر فيما يلي القبائل الچركسية المعروفة والموجودة فى عصرنا هذا مع ذكر بعض المعلومات عنها اجمالياً مرتبة على حروف الهجاء :

أباظه (الأبازين أو الأبخـاز) ـ ازاخ ـ أدامَهْ ىْ ـ بزه دوغ ـ بَشَأَنَهْ ىْ ـ چيكت ـ حاتوقواى ـ چان ـ شاپسغ ـ قابرداى ـ كمركوْى ـ موخوْش ـ ناتخواج ـ وويبيخ .

وتوجد قبائل أخرى أصغر من هذه ومتفرعة منها أمثال : ياغورقوهى ـ وبراقهى الخ الخ .

قبيلة اباظه (أبازه)

قبيلة قديمة جدا ومعروفة باسم « أبازين » و « أبخاز » وهى من أمهات القبائل الچركسية فى ققفاسيا ولغتهم تختلف كثيراً فى أساسها عن لغة الأدغة (أديغه) غير أن لهجاتها تـكاد تـكون واحدة .

ويعلل مورجان هذا الخلاف لطبيعة بلادهم واحتجابها عن باقى بلادالأدغه بسلسلة من الجبال مغطاة بالثلوج مدة تسعة شهور من السنة ، السبب الذى كان يحول دائماً دون الاتصال بباقى اخوانهم القاطنين فى الجانب الآخر من السلسلة .

ثم يعزو ذلك لسبب آخر وهو اختلاطهم الدائم بالـكرج وقدماء اليونان وباقى الأقوام التى كانت ترد بلادهم من زمن الفتوحات والاستيلاءات .

---

(١) قبائل الجراكسة فى القرن الثامن الهجرى مبينة فى كتاب (السيف المهنـد فى سيرة الملك المؤيد) فى النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة باريس (المعرب) .

ولكل هذه الأسباب بقوا بمعزل عن باقى القبائل الجركسية حتى صارت لغتهم خاصة بهم تختلف عن لغة الآخرين .

وتسمى بلادهم الواقعة على البحر الأسود ومتاخمة للكرج (ابخاز) والواقعة بشمال سلسلة القوقاز (آبازين) .

فالأبخاز تنقسم إلى تسعة بطون :

صامور زقان ـ جى به لدا ـ آب شُوَزْ ـ اليتكسك باسخه غ ـ قزيل باك ـ چيقا راو ـ براقاي ـ موداواى .

والآبازين سكان شمال القوقاز هاجروا اليها من جهات الأبخاز واختلطوا بقبائل القابرتى (القبرداى) واعتنقوا الاسلام ويعرفون بشدة تمسكهم بدينهم أما الأباظه (أبازه) سكان الأبخاز فالأكثرية فيهم مسيحيون .

قبيلة أبزاخ

كلمة (ابزاخ) مخففةمن (ابزاخه) التىمعناها (القاطنون بأسفل بلادالأبازه) ومما نقل عنهمأن سبع قبائل كانت تسكنبلادهم المعروفة بـ (طوبى حاس) وهى: «يَدِجْ» و«سِيْ» (١) ومنها تكونت القبيلة .

وقد ذكرت جريدة (غوازه) فى عددها رقم ٣٤ سنة ١٣٢٨ هجرية أسماء القبائل التى استوطنت لأول مرة منطقة (طوبى حاس) .

قبيلة آدامه ىْ

وهى من القبائل الصغيرة التى تسكن شمال القوقاز والمظنون أنها حديثة التكوين ويعلل السائح (أوليا شلبى) سبب تسميتها بهذا الاسم بالآتى :

---

(١) و«كوبا» و«ليصه» و«أصبخ» وهذه الخمسةهى التى أمكننى الحصول عليها .

منظر تسليم الأمام الشيخ شامل للروس بعد حروبه الطويلة

من أساطير الچراكسة أن اسكندر الأكبر لما غزا بلادهم (؟! ؟!) غرس شجرة نادرة المثال فى بلاد هذه القبيلة أمام مدخل غار مملوء بالمعادن الثمينة والأحجار الكريمة ربما تركه من بقية أمواله وجواهره عند ما غادر البلاد وأقام على بابه تمثالا من البرنز على صورة انسان عملاق ووكل اليه حراسة الغار . وجعل طوله قدر رجلين يحمل فى يده اليمنى كرة من البرنز بحجم القبة الكبيرة .

فلهذا الاعتقاد السائد بين القبيلة أطلق عليهم اسم « آدامه ى » نسبة إلى ذلك الآدمى الحارس العظيم .

ويزعمون أن عدد المحاربين من هذه القبيلة كان يربو على الثلاثة آلاف مقاتل وأنها كانت مهابة بين القبائل .

قبيلة بزه دوغ

سأورد هنا ما كتبه المؤرخ « خانكراى بك » من نبلاء التتار فى كتابه « مشاهير الچراكسة وعاداتهم » عن هذه القبيلة وأمرائها .

« البزه دوغ من أقدم القبائل ويزعمون أنها بقيت فى سفح جبل قريب من مجارى نهر كوبان الجنوبية أثناء التجاء قدماء الأدغه اليها فى الأزمان الغابرة .

«وبمرور الأيام تكاثروا وانتشروا فى الوديان المجاورة خصوصاً وادى « پشيش » وبسبب تنافر أمراء القبيلة ، الاخوة الأربعة وهم :

چرچان ـ خميش ـ پاغا رساقو ـ باس ناخو : وانقسامهم على أنفسهم تشعبت القبيلة إلى أربعة أفخاذ ما خَوْشْ ـ وه پسين ـ خيميشه ى ـ چرچه ناى .

«وعلى رأس كل منها أمير من هؤلاء الأخوة الاربعة وتفرقوا فى السهول والوديان مستقلين بعضهم عن بعض .

ومن أساطيرهم أن أمراءهم يمتون إلى سلالة «النارت» الأقدمين .

« ولا بدأن كلمة (بزه دوغ) كانت تطلق على شخص معين » .

قبيلة چيكت

يقول « شورانو غموقه » أن اسم هذه القبيلة مشتق من اسم (تسوخ) التى معناها الانسان وهى من القبائل القديمة جداً واسمها معروف من قديم الزمان .

قبيلة حاتوقواى

هذه القبيلة وقبيلة « چان » متفرعتان أصلا من قبيلة « كمير كوه ى » المعروفة من قديم الزمان واسمها هذا مشتق من اسم « كيمرى » « أو سومرى » .

ويقول شورانو غموقه ان أحد أمراء قبيلة كيمر كوه ى أعقب ثلاثة أولاد حاتوقواى - وبلوتوقه - وچان .

فكوّن كل من «حاتوقواى» و«چان» قبيلة باسمه وترأسها .

أما «بلوتوقه» فانه كان من أمراء الچرا كسة المعروفين المشار اليهم بالبنان وله مع الخزر وقائع دامية وهو الذى أنجب أمراء الكمير كوه ى الذين تولوا إمارتها .

وتولى إمارة الچرا كسة عامة تحت اسم (پشى خوه) .

وتوطن ولدا الأمير ينال الكبير : «أونارميز » و «قيرغش» بلادالكمير كوه ى وسكناها وبمرور الزمن انتقلت إمارة القبيلة الى أحفادهما .

ويقول «أجوغه يوقه محمد توفيق بك » ان قبيلة كمير كوى انقسمت إلى أربعة أقسام :

يجرقاى - وحاتوقواى - وما خُوشْ - وما نَخَهْ غ وحصل هذا الانقسام سنة ١٨٥٥ كما هو مدون باحدى الخرط الألمانية .

قبيلة چان

قبيلة قديمة جدا وقد بينا منشأها عند الكلام عن قبيلة حاتوقواى وهذه القبيلة هى التى صادفها الرحالة استرابون بجهات طرابزون وذكرها فى رحلته .

قبيلة شاپسيغ

لانبالغ اذا قلنا ان هـذه القبيلة هى أقدم القبائل الچركسية على الاطلاق لأنها كانت موجودة زمن الحيثيين وكانت تعرف باسم « قاسَسُوغْ » .

(وتجد فى دائرة المعارف الفرنساوية للقرن التاسع عشر أن كلمـة شاپسيغ معناها مربى الخيل) .

أما بالچركسى فان هذه الكلمة لها معنيان :

« شى » بمعنى حصان و « غبسوغ » مضمر وقد تجىء بمعنى (مضمرالحصان) كما أنها قد تجىء بمعنى : الارض التى استوطنت لأول مرة(١)

فالتفسير الأخير هو الأصح فى نظرنا خصوصا اذا علمنا أن هذه القبيلة هى أقدم القبـائل طراً وأول من سكن جهات كوبان وبحر أزوف ثم توسعوا وانتشروا على مجارى نهر ترك .

وكانت بلادهم تنقسم الى قسمين شاپسيغ الكبرى وشاپسيغ الصغرى فـكانوا يسمون المنطقة الـكبرى بالوطن القديم (خه كوظ) والمنطقة الصغرى بالبلد الجديد أى التىاستوطنت بعد الهجرة أو « ناتخُوَجْ » .

قبيلة ناتخواج

متفرعة من قبيلة « شاپسيغ » وكبرت وعت أخيراً واستقلت تحت امرة عائلة (ناتخو) وهى من أرقى وأكبر عائلات القبيلة .

---

(١) وهذا التخريج ضعيف من الوجهة اللغوية والتخريج الأول هو أقرب بحسب اللغة (المعرب)

قبيلة قابردى (قبرداى - قبرطاى)

هذه القبيلة تعد من أمهات القبائل الجركسية المستقلة ولها تقاليد وعادات خاصة وتاريخ قائم بذاته . والقابرتى من أشد الجراكسة محافظة على دينهم وتقاليدهم وأزيائهم القومية وهم متغالون مبالغون فى عصبيتهم ويزعمون أنهم أحفاد رجل عظيم اسمه (تامى قبارت) ولا تزال بقايا أفراد عائلة هذا الرجل موجودة للآن ضمن القبيلة ولهم فيها مكانة ممتازة ويلقبون بـ (وَرْقْ) ومعناها « نبيل » .

وكانوا يسكنون قديما جهات نهر كوبان وبحر ازوف الشرقى . وفى القرن السادس للميلاد استولوا على بعض سواحل أزوف الغربى ودخلوا شبه جزيرة القرم واستوطنوها ولهم فيها آثار ومسميات تدل على ما كان للقوم من مدنية ورقى وقد اضطروا فى القرن السابع للعودة لجهات كوبان وانتقلوا بعدها لوديان نهر ترك واستوطنوا فيها مع اخوانهم الذين سبقوهم لتلك الجهات من قبل (تاريخ الأديغة ص ١٩) .

وقد انقسم القابردى فى القرن الخامس عشر للميلاد الى قسمين :

القابردى الكبرى (طُوُظْه دَهس) والقابردى الصغرى (جلاستنه پى) ويفصل بينهما نهر تَرَكْ .

ويجاور القابردى الكبرى أمم الچچن والقوصحه (استين) وقسم من بلاد الداغستانيين

وفى القرن العاشر للميلاد انفصل من القبيلة الأمير (قانوقه) وكون قبيلة « بسلنهى » التى تقطن المكان المعروف باسمها .

والقابردى معدودون فى نظر المؤرخين الفرنجة (ارسطو قراط) جميع شعوب ققفاسيا واليهم يرجع فى ابتكار الأزياء واختراع (الموضات) وتضرب برشاقتهم وحسن هندامهم الأمثال :

والمأثور عن أمير القابردى الـكبير « يشى اسلان بك » كلمته الخالدة التى يرن صداها فى الآذان الى الآن :

« يجب أن يحكم مابين البحرين (الأسود والخزر) أمير قفقاسي واحد فقط »

وكان أمير القاردى يجبى الخراج من القبائل المجاورة أمثال :

القوصحه ـ والأباظه ـ والبسلنه ى ـ والقره چاى ـ والاتفوش .

وفـكرة المرحوم « الشيخ شامل » أمير الداغستان التى كانت تصبو إلى جعل قفقاسيا حكومة متحدة جاءت أخيراً بعد أن سبقه إلى التفـكير فيها أمراء القابردى بمدة طويلة .

ولغتهم تختلف بعض الاختلاف عن لغة باقى اخوانهم الچراكسة الشماليين فى تصريف الأفعال وهذا الخلاف قلّ أن يلاحظ .

ومن الممكن ادماج جميع لهجات الچراكسة وجعلها لهجة واحدة غـير أن لهجة الأباظه لا تنسجم ضمن هذا الاتحاد اللغوى .

وكانت قفقاسيا كلها إدارة متحدة تحت حكم أمير القبرداى ودام هذا الحـكم مدة طويلة .

قبيلة الأوبيخ (ووبيخ)

يحدها الأباظه من الجنـوب والأبزاخ والشاپسيغ من الشمال وهى قبيلة مستقلة بذاتها ولا يعلم متى انفصلت عن باقى القبائل وكونت قبيلة قائمة بذاتها كما هى الآن .

ويظن أن الأوبيخ [1] معناها الأوبيون Les Oubies .

وقبيلة أوبى تسكن جهة قفقاسيا الشرقيه بالقرب من القاردى وبداخل بـلاد

(١) لعل الاقرب فى تأويل اوبيخ أنها بمعنى اوبى السفلى تمييزا لها عن أوبى الساكنين فى الجهات العليا كما لا يخفى على من له إلمام باللغة الچركسية (المعرب)

الداغستان ولغتها تخالف لغة الدغستانيين والأوبيخ كثيرو العدد ورجال حرب ولهم لهجة خاصة يتكلمون بها فيما بينهم وهذا ناشئ من عدم اختلاطهم بغيرهم من مجاوريهم لوعورة مواصلات بلادهم .

وإذا دققنا مليا فى لهجتهم يتبين أنها تغاير كثيراً باقى اللهجات الچركسية .

اللغة الچركسية

اذا نظـرنا الى لهجات القبائل المختلفة التى ذكرناها نرى أنها تنقسم الى ثلاث مجموعات :

الأولى : مجموعة شمال القوقاز وهى بلاد الچراكسة القديمة ووطنهم الأول والتى تسكنها القبائل الآتية :

الأبـزاخ ـ والبزه دوغ ـ والحاتوقواى ـ والـكمير كوى ـ والآدامه ى ـ والموخوش ـ والشاپسيغ ـ والناتخواج ـ والأوبيخ .

ولهجـة هذه القبائل تـكاد تـكون واحدة بلا كبير فرق ولا تمييز . وهى نفس اللهجة التى كان يتـكلم بها قدماء الچراكسة (المانى خه) .

ومن الصعب جداً بل من المستحيل كتابة بعض الـكلمات التى يشابه صداها أصوات الطيور .

وهذا دليل على أن هذه اللغة ظلت جامدة على حالتها الفطرية من غير تهذيب ولا تحوير .

الثانية : مجموعة منطقة بلاد القابردى (الـكبرى والصغرى) والبسلنه ى . وهى البلاد الواقعة جنوب البلاد المار ذكرها .

وتوجد بعض الفروق البسيطة بين لهجات القابرتاى أنفسهم بحسب

اختلاف مناطق سكناهم خصوصاً بلاد القابرداى الصغرى فانها تختلف كثيراً لتاخمتها لبلاد الچچن والقوصحة واللزكى .

أما لهجة القابردى الكبرى خصوصاً البسلنه ى فانها أفصح اللهجات وأتقنها ويصح القول بأنه قد دخل عليها شئ من التهذيب .

الثالثة : مجموعة بلاد الأباظه . وهؤلاء تختلف لهجاتهم تمام الاختلاف عن باقى اللغات الجركسية والفرق ظاهر واضح فى النطق والتعبير .

ومن صالح الجراكسة بحث لغتهم علميا بمعرفة العلماء الاختصاصيين للاسترشاد بنتيجة هذا البحث عن أصل منشئهم وسلالتهم وانى أترك ذلك لحضرتهم ليوفوا البحث حقه بفنهم وعلمهم .

فقه اللغة الجركسية

Etude philologique de la langue Attiche(1)
Langue Circassienne

اذا تقرر أن الجراكسة يمتون عرقا ومنشأ الى السلالة الهندية ـ الأوروبية فتكون لغتهم كذلك هندية ـ أوروبية :

وزيادة فى البرهان والتدليل على صدق هذه النظرية سنبين فيما يلى أوجه الشبه الموجودة بين قواعد اللغة الجركسية واللغات الأوروبية وتركيب الكلمات ومخارجها بل وصداها ومقارنة كل ذلك بعضه ببعض .

(والقاعدة العامة فى بحث اللغات للوصول الى معرفة « المجموعة » التابعة لها اللغة المرغوب بحثها هى التدقيق فى أوجه الشبه والمقارنة بين الكلمات المتشابهة فى

(1) Prononcez eomme (ch) allemand .

اللغتين . اللغة المراد بحثها واللغة المرغوب مقارنتها بها ، كذلك مقارنة قواعد الأجرومية « النحو » في اللغتين المشار اليهما) .

* * *

مخارج وأصوات الكلمات الجركسية

اللغة الجركسية تحتوى على جميع المخارج والأصوات الخاصة باللغات الهندية - الأوروبية . بينما هذه الميزة غير موجودة ، بل مفقودة في جميع اللغات الطورانية . وبيان ذلك :

من ضمن المخارج والأصوات الجركسية المرسومة بحروف الأدينة الحديثة الأحرف الآتية :

(١) (ث) : هذا الحرف يلفظ (تسه) مثل كلمة « ثي » بمعنى الانسان . ويوجد نظيره تماماً في الألماني والروسي، يلفظ كلفظه بالضبط أي أنه يخرج بصوت واحد في جميعها - وتنطق التاء والسين مدغمتين .

(٢) (ذ) : هذا حرف (دزه) الأرمني بنصه مثل كلمة (زه [1]) بمعنى الجديد

(٣) (خاء فوقها نقطتان) : يلفظ هذا الحرف كما تلفظ (ch) الألمانية (خه) كما في كلمة (خاسه) بمعنى (المجلس) تنطق بالخاء والهاء مدغمتين .

(٤) (و) : يلفظ هذا الحرف كما تلفظ (W) الانكليزية (وا كده) بمعنى حارث تنطق بين الواو والفاء بلهجة القبردى .

(٥) الهمزة اذا تقدمها حرف (پ) الساكن ينطقان معاً . وكذلك اذا تقدمها (چ) و (ص) و (ك) و (ف) مثل (پثه) بمعنى فراش و (چثه) بمعنى جديد

---

(١) تنطق بالدال والزاى مدغمتين .

و (صئه) بمعنى حديد و (كثه) بمعنى الذنب و (فئه) بمعنى جيد .

وهذه المخارج والأصوات لا توجد إلا في اللغات الهندية الأوروبية .

(٦) واللغة الچركسية خالية تماماً من الأحرف العربية الآتية ع ذ ث ض .

أما حرف الهاء فلا يستعملها الا البزه دوغ وأما باقي القبائل فانهم يهمسون بها همساً .

(٧) وتسمع في لغتهم صوت (oi) « وا » كما هي عند الفرنسيس .

تركيب الكلمات

يظهر لأول وهلة أن الكلمات الچركسية ذات مقطع واحد أو مقطعين فقط . والحال أن أكثر الكلمات ما هي إلا كلمات مركبة من كلمتين أو أكثر وهذا يدل فعلاً على أن هذه اللغة قديمة ، وقديمة جداً ، وأنها غنية بمادتها وبتعبيراتها وأن أجدادنا اجتهدوا في وضعها وتهذيبها حتى جاءت كافية للاعراب تماماً عما في ضمائرهم .

ولا أدل على سعة هذه اللغة وغزارة مادتها من أسماء أعضاء جسم الانسان فانك تجد اسما لكل جزء حتى اسم أصغر الأعضاء .

ومما لا شك فيه أن الچراكسة كانوا في الأزمنة القديمة يكتبون ويقرءون ويتخابرون كتابة . والبرهان على ذلك أن لغتهم شملت كلمات تدل على فعل القراءة والكتابة ، وعلى أسماء للقلم والورق وورق الخطابات وكلمة التاريخ وما الى ذلك من الكلمات الدالة على الثقافة . (والمنطق لا يجوز وجود الدال من غير وجود المدلول)

ولا يتطرق الى الأذهان أن هذه الكلمات مقتبسة من لغات أجنبية أخرى خصوصاً اذا علمنا أن لغة الچراكسة ما هي الا وليدة لغة الحيثيين (الماتيين) وأن هؤلاء وجدوا

على الأرض قبل المسيح بأربعة آلاف سنة وأن المعاهدة السياسية التى كتبت بينهم وبين «رمسيس الثانى» فرعون مصر كتبت بلغة الحيثيين وبحروف حيثية . . . . . (وهذه أول معاهدة سياسية كتبت فى التاريخ)

واذا أردنا الاستدلال على ثقافة الجراكسة بشهادة جيرانهم الأستين ، فأننا نرى أنهم كانوا يسمون القابردى « كشكون » و « كشك » بمعنى القارئ والقارئون (بلغة الأستين) .

وانك واجد النظم البديع فى أشعارهم الغنائية مرتبة منسجمة من غير تعقيد .

وتوجد فى لغتهم أدوات ابتداء prefixe وانتهاء suffixe تغير معنى الكلمات بدخولها عليها أو اضافتها لها وهذه القاعدة هى بعينها المتبعة فى اللغات الهندية الأوروبية ولن تجدها فى اللغات الطورانية مثال ذلك :

(١) حرف (ش) اذا أضيفت على كلمة (قوه) التى معناها ابن تصبح (قوه‌ش) بمعنى أخ .

(٢) (جو) معناها « قلب » فاذا اضيفت عليها لفظة (نشه) تصير (جونشه) فيصبح معناها عديم القلب أو عديم الاحساس .

(٣) (زه) اداة ابتداء اذا دخلت على كلمة (يى) التى معناها عدو تصير (زه‌يى) فيصبح معناها (بعضهم لبعض عدو) .

(٤) (بزى) أداة انتهاء وتأنيث اذا أضيفت على كلمة (شى) ومعناها الحصان تصير (شى بزى) وتجىء بمعنى الفرس الخ .

فهذه الأدوات مستعملة ومرعية كما قلنا فى اللغات الهندية الأوروبية ولا يوجد ما يماثلها فى اللغات الطورانية .

وعلاوة على ماتقدم قد يدل على معان مختلفة بوضع ثنين أو ثلاث كلمات بسيطة أو أكثر جنبا لجنب .

بعض الكلمات الچركسيه المشابهة لفظاً ومعنى للكلمات الأوروبية (أى الهندية الأوروبية) :

	چركسى	فرنسى	عربى
(١)	طؤ	deux	اثنين
	صله	Sol	أرض
	پله	épaule	كتف
	وه	vous	أنت
	مازه	mois	شهر
	پاسه	passé	الماضى
	پ	pas	أداة النفى
	كه	queue	ذنب
	اور	oruteur, oration	كلام
	وونه	(هولاندى) vona	مسكن
	خبزه	(انجليزى) habit	عادات
(٢)		روسى	
	زيله	زيليو	الوطن
	خت	كتو	من
	صو	شتو	كيف ؟ ما ؟

	روسی	
شاده	ساد	حديقة
واصه	فاس	مهر صداق
شاله	شالوفك	شاب
بشاخوه	بيسوك	رمل
له تا	ليتار	قفز ـ طار

(٣)

چرکسی	رومی	عربی
بسه	psy	روح
تحه	theo	الله
دولف	adelphos	أخ

(٤)

	فارسی	
طو	دو	اثنين
شنی	سه	ثلاثة
خوين	خواهدن	الطلب
مازه	ماه	شهر
شت	شد	كان
اری	اری	نعم

وتوجد فى لغة الچراكسة كلمات كثيرة تشابه الكلمات الأوروبية غير ماقدمنا وخاصة باعتبار قواعد النحو والصرف فى غاية المناسبة للغة الألمانية مثال ذلك : ان أداة الفعلية المصدرية فيها هى عين ماينتهى به المصدر فى اللغـة الچركسيه

وهى (إين) و (أن) وكذلك الكلمات التى تفيد الذهاب والقيام والقعود واحدة فى اللغتين .

ولفظ (دغه) باللغة الجركسية معناها الشمس تشابه كلمة (داغ) الألمانية بنفس المعنى .

كذلك كلمة (مازه) التى بمعنى الشهر فى اللغة الجركسية تأتى بهذا المعنى فى اللغة السنسكريتية التى تعد أم اللغات الأوروبية . والكلمات الشبيهة بمثيلاتها فى اللغة السنسكريتية كثيرة جداً فى اللغة الجركسية .

* * *

بعض معلومات اجمالية عن قواعد الصرف فى اللغة الجركسية .

(١) أداة التعريف غير موجودة فى اللغة الجركسية كما هو الحال فى اللغتين الفارسية والروسية .

(٢) يوجد فى لهجة الأباظه ثلاثة أنواع من الكلمات : مذكرة . ومؤنثة . وكلمات لاهى مذكرة ولا مؤنثة [١] وسائر اللهجات الجركسية خلو من هذا التقسيم أى لا يوجد فيها علامة تذكير ولا تأنيث .

(٣) الصفات فى اللهجات الجركسية تنتهى غالباً بأدوات خه ، خى ، غه ، كما هو الحال فى اللغة الألمانية .

(٤) علامة الجمع هى : خه كما فى اللغة الروسية فى جمع المضاف اليه .

(٥) أحوال الاسم : يقع الاسم مجرداً ومفعولا به أو مضافاً اليه أو مفعولا له أو مفعولا فيه .

---

(١) وهذا النوع موجود أيضاً فى بعض اللغات الأوروبية ويعرف باسم (neutre) .

وفى الأحوال الثلاثة الأخيرة يكون على صيغة واحدة فى الغالب ، وينتهى بحرف الميم ، والأوزان التى ينتهى بها الاسم فى هذه الأحوال تشبه ما ينتهى به مثل هذه الأسماء فى اللغة الألمانية[1] فى هذه المواضع .

(٦) الوصف المنسوب إلى الأعداد (مثل الأول والثانى الخ) فى اللغة الچركسية هو عين مايجرى فى اللغة الروسية .

(٧) الصفة تتأخر عن الموصوف وهذا يشبه اللغة العربية والفرنسية (وفى اللغة الفرنسية يجوز الوجهان التقديم والتأخير) وأداة الجمع انما تلحق بآخر الصفة دون الموصوف[2] .

(٨) المضاف اليه يتقدم على المضاف إذا كانت الاضافة بمعنى اللام أى بمعنى الملك مثل (أحمد م بونه) أى (بيت أحمد) وهذا يشبه اللغة الألمانية[3] .

وكذلك الحال فى الاضافة البيانية إلا أنه فى هذه الحالة لا تستعمل أية أداة كما هى الحال فى الصفة والموصوف مثل (ديظن قامه) أى (خنجر فضة) كما فى اللغة الألمانية[4] .

(٩) أسماء الأعداد تأتى دائماً بعد المعدود وهذه القاعدة خاصة باللغة الچركسية إلا أنه يصادف مثل ذلك فى اللغة الفرنسية عند العامة .

(١٠) الأفعال :

(ا) ـ أداة المصدر هى « إِينْ » «أَنْ » « أُونْ » فى آخر الكلمة مثل (طسين) :

---

(١) عزف الاعراب عند اليونان واللاتين والألمان وغيرهم كما عرف عند العرب ويمكن معرفة موقع الكلمة من الاعراب بحسب آخرها وهذا ما يسمى عندهم declinaison (المعرب) .

(٢) وهذا عكس ما فى اللغة الانجليزية فان علامة الجمع تلحق الموصوف دون الصفة وفى اللغة الفرنسية تلحق الاثنين كما فى اللغة العربية (المعرب)

(٣) و (٤) ــ والانجليزية أيضاً (المعرب)

(القعود) ؛ (يجان) : (القراءة) ؛ (يقون) : (الشد ـ الجهد) كما هو الحال فى الفارسية والألمانية .

(ب) ـ تقسيم الفعل باعتبار معناه : وبهذا الاعتبار ينقسم إلى قسمين مبهم ومعين كما فى الروسى والألمانى . مثال الأول (كُوَنْ) بمعنى المشى فاذا زيدت فى أولها قاف مفتوحة أفاد المجئ اليك مثل قَكُوَنْ .

وإذا زيد فى آخر المادة الأصلية قبل علامة المصدر حرف (رْ : j) يفيد الرجوع إلى محله نحو (كُورْن) واذا اجتمعت الزيادتان المذكورتان فاعلم أن المجيء بطريق العودة مثل (قكورْن) .

(ج) ـ يوجد فى اللغة الجركسية الأفعال المساعدة كلفظ « شت » و « آست » كما فى اللغات الأوروبية : فعل الملك وفعل الكينونة . وهذان اللفظان قريبان من كلمتى « شوره » و « هسته » الفارسيتين المستعملتين للمساعدة فى تصريف الأفعال .

(د) ـ أداة نفى الفعل فى لهجة چراكسة كوبان حرف (پ) مثل (pas) فى اللغة الفرنسية .

(ه) ـ واللغة الجركسية فى باب التصريف تعد من أغنى اللغات كالفارسية والتركية وتصريف كثير من الأفعال الجركسية يكاد يكون سماعياً . الا أنه فى الجملة هين سهل وتصريف الفعل فى الحال والماضى يشبه تصريف الفعل فى اللغه الألمانية تقريباً . ولافادة معنى المستقبل يزاد فى آخر المادة كلمة (شت) فى لهجة چراكسة كوبان وكلمة (نْس) أو (نْص) فى لهجة القبرت . والفعل الوجوبى فى اللغة الجركسية أكثر شبها بنظيره فى اللغتين الفارسية والفرنسية .

وفعل الأمر للمخاطب يصاغ على قاعدة اللغتين الألمانية والفرنسية .

وأما اسم الفاعل فعلى قاعدة اللغة الألمانية فقط .

(و) – أداة الخبر فى الجمل الخبرية هى عين الأدوات المذكورة فى البند الثالث من بحث الأفعال .

(ز) – صوغ اسم المصدر من الأفعال يكون بزيادة (غه) فى آخره كما هو الجارى فى اللغة الألمانية .

قواعد النحو

تركيب الجمل فى اللغة الچركسية يتبع قواعد تشبه فى الجملة قواعد اللغة الألمانية والتركية .

الفصل السابع

تاريخ ومنشأ قبيلة الايرون وبتعبير آخر (الاستين أو القوصحة)

تحد بلاد « الأيرون » شمالا ببلاد « القارتاى » وغربا بقبائل « القره شاى » « والبلقارلى » وجنوبا بقبائل « خوسور » و « پشاو » وشرقا بقبائل « الچچن » .

وطبيعة بلادهم جبلية مرتفعة وهم يقطنون القمم المعروفة باسم «قازبك» و«البرز» . (وهى أرفع قمم أوروبا) من سلسلة جبال القوقاز ويقطنون كذلك منحدراتها الشمالية والجنوبية .

ويطلق عليهم جملة أسماء : (الأيرون) وهو اسمهم القومى و (الأستين) اسمهم التاريخى ويعرفون بين العامة باسم (قوصحه) ويسمى الكرج الجنوبى منهم (توالتا)

وهم منتشرون كذلك فى جنوب قفقاسيا بوديان « ارغوا » و« لياخو » و«ريون» ويعيشون مختلطين بالكرج .

وتحد بلادهم الجنوبية غربا بالأيمرتيين وجنوبا بالقارتاليين .

ويقال ان هؤلاء الأيرون دخلوا قفقاسيا فى الزمن الذى هاجر فيه الأكراد من (إيران) إلى (وان) وما حولها فى القرن السابع قبل الميلاد .

ونظراً إلى المعلومات المستقاة من وقائع الكرج ومن كلام بعض المؤلفين يظن أن السكيت (الخزر) عند حروبهم فى جهات إيران وميديا ـ اذربيجان ـ أخذوا جماعة أسرى من سكان ميديا واستصحبوهم معهم حين عودتهم الى شمال القوقاز . وعند

مرورهم بمضيق « دريال » (باب اللان) بجبال القوقاز أسكنوا تلك الجماعة هناك فتوطنوا . فهؤلاء هم الأستين (مورجان ج ٢ ص ١٢٤) (١) .

(١) هكذا يتحدث عنهم مورجان . لكن لا يخفى أن التعويل فيما يتعلق بشؤون يدعى حدوثها في القرن السابع قبل الميلاد على بعض كتابات الكرج الحديثة وعلى أسطورة تسطر في مؤلفات بعض المتأخرين من غير مستند أمر لا يرتضيه الباحث المنصف . على أنك تجد قبيلة (آس) التى يذكرها العرب باسم (آس) من أقدم القبائل القوقازية . وباسم هذه القبيلة سمي الجبل : «قوقاس» بمعنى جبل الآس ، بل ما يلى الجبل من ممالك آسيا الصغرى انما سمي بالاسم المذكور نسبة إلى تلك القبيلة لعظم سلطانها عند اليونان الأقدمين . ثم صار اسما للقارة كلها فسميت (آسيا) على ماحققه العلامة الأثرى الكبير (دوبوادومون برو) الأفرنسى فى كتابة المشهور عن القوقاس فى سته مجلدات بعد أن قام هناك بمباحث الأثرية أربع سنوات من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٣٤ م .

ولا شك أن هؤلاء الأستين من أحفاد تلك القبيلة العظيمة . وما يوجد فى لغتهم من بعض مناسبة للغة الفرس فانما هو من صلة التجنيد والقيادة فى جيش (الساسانيين) وقد قال قائلهم فى وصف ايوان كسرى .

مغلق بابه على جبل القبـق إلى دار خلاط ومكس

(وجبل القبق والقبيج والقبجق هو جبل القوقاس كما سبق البيان فى التعليق على جبل القوقاس)

وقد ذكر المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) كيف بعث « يزدجرد » آخر ملوكهم بسريره الذهبى مع حاشيته إلى « اللان » بعد انهزامه فى القادسية فقابلوهم بالترحيب ودامت دولة « السرير » فى الجبل مدة تتسع دائرة حكمها حيناً وتضيق حيناً آخر .

نعم ان الكيمريين حينما اكتسح السكيت دولتهم قصد فريق منهم فى سنة ٦٧٧ ق . م بطريق القوقاس جهة « مديا » - اذربيجان - ثم تحولوا نحو آسيا الصغرى وبعد ذلك بمدة توغل بعض قبائل من جهة شمال القوقاس فى (مديا) وأسسوا هناك حكومة اتخذوا (همذان) دار ملك لهم وهؤلاء لم يرجعوا الى القوقاس . فذكر مورجان السكيت فى هذا الموضع يكون من التساهل .

وقد ذكر فى جغرافيا ملطبرون ص ٩٤ فى المقالة الثانية عشرة « أن اسم السكيت تلاعبت به

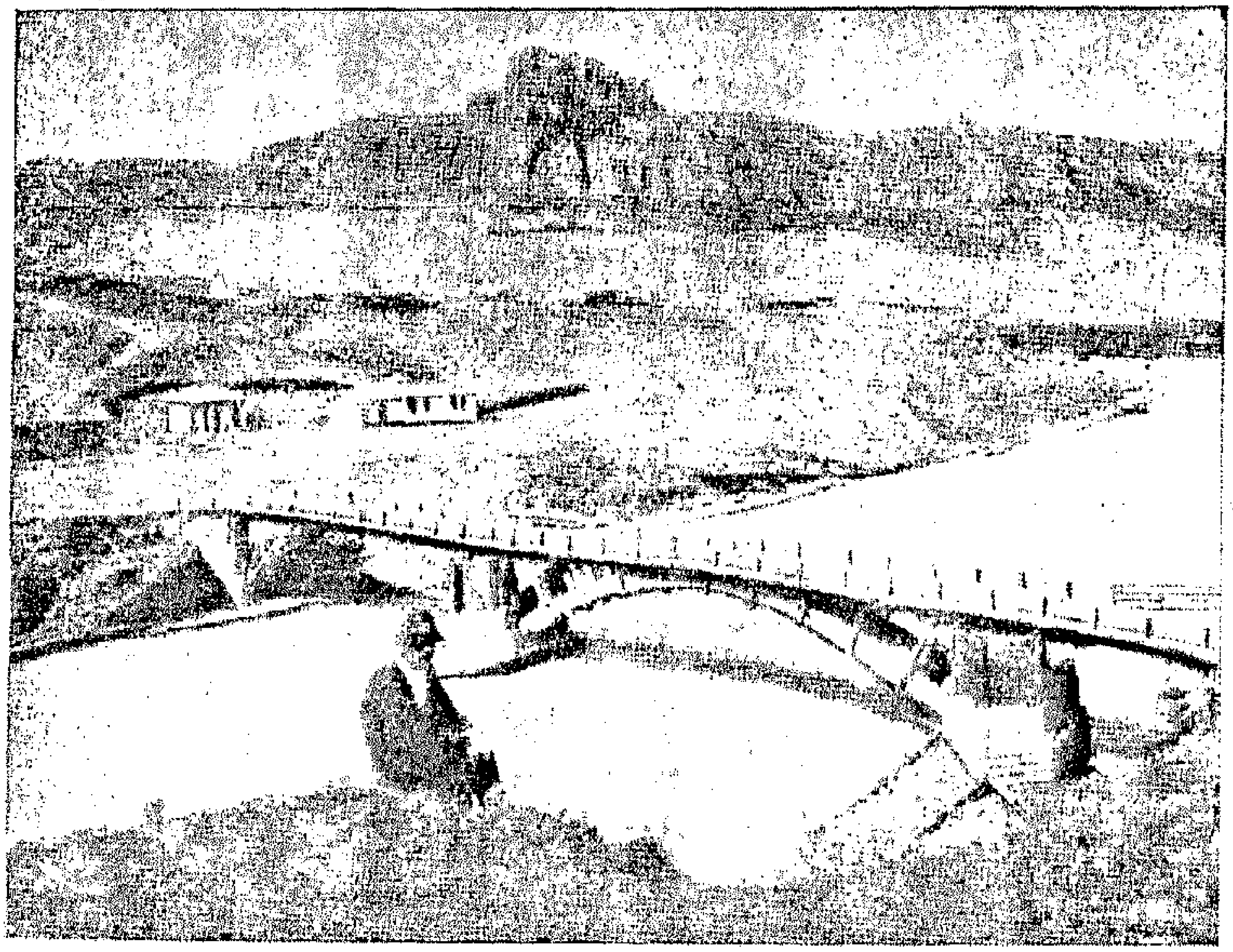

نهر كوبان بجهة قره شاى و كوبرى هامارا

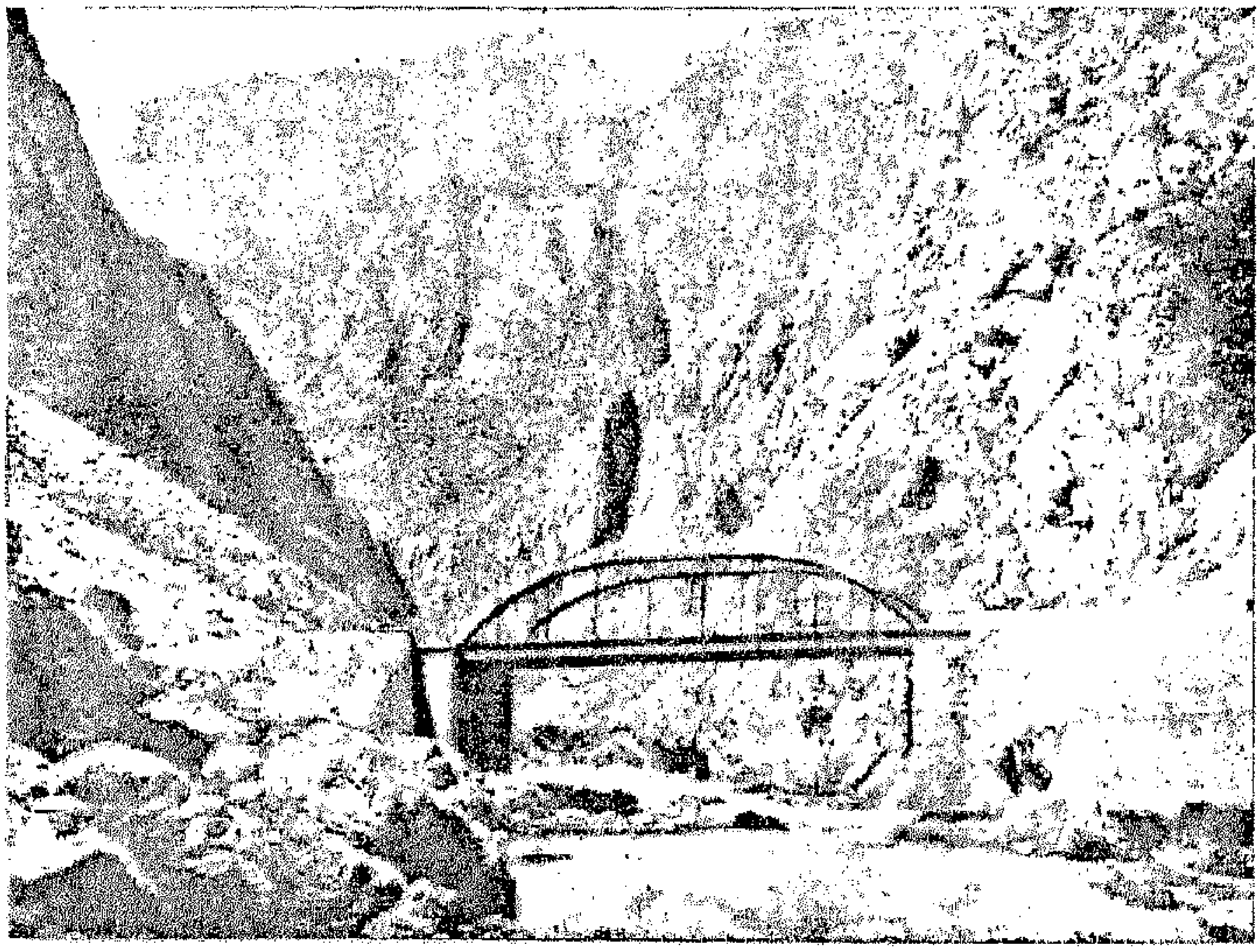

ممر دريال المشهور بالقوقاز

أما لغة الأيرون فتشابه كثيراً فى لهجتها لغة ايران وهذا دليل على أنهم ينتمون أصلا لتلك النواحى وقد أثبت البحث (الأركيو لوجيكى) (علم الآثار) صحة هذه النظرية .

الألسن وسمى به ما ليس من مدلوله على سبيل التشهى كما اعترف بذلك أحد مشاهير مؤرخى بوزنطيا » اهـ .

وكان موطن السكيت أيام هيردوت بين نهرى الدون والدانوب وقد قضى عليهم السرمات القوقازيون وأبادوهم وأخذوا منهم ثأر الكميريين فى زمن « متردايس » . والتوسع فى هـذا خارج عن البحث وكلام هيردوت فى حق السكيت مضطرب كما نص على ذلك ملطبرون ج ١ ص ٢٣، ٢٤ وهو أقدم مصدر تاريخى فى حق السكيت .

وأما ذكر الخزريين قوسيين فى الأصل فلا أدرى هل هو من مورغان أو تفسير من المؤلف . وعلى كلا التقديرين فان الخزر على تأخر اشتهار هذا اللقب كانت عاصمة ملكهم « بلنجر » على ضفة نهر ترك إلى عهد استيلاء العرب . وإذ ذاك تراجع الخزر إلى جهة نهر فولجا — أتيل — وبنوا هناك عاصمتهم الجديدة بالقرب من مصب النهر المذكور بمرحلتين .

ولم يكن للخزر أية صلة بأمة السكيت (السيت) التى أبادها السرمات القوقاسيون فى عهد متراديس كما سبق .

وقد اختلط بالخزر بعد انتقالهم إلى عاصمتهم الجديدة أخلاط من أقوام أخرى يستخدمونهم فى الجندية ويسمى هؤلاء الدخلاء بالخزر (السود) كما أن الخزر الأصليين يسمون الخزر (البيض) وهم من الأقوام القوقازية الأصلية سكنت ما بين البحرين (بحر الخزر — وبحر أزوف) — مابنطش — وسموا باسم الخزر تسمية باسم البحر .

وكلمة (خزر) معناها فى اللغة الجركسية « البحر المنفرد » وقد تخبط كثيرون فى الكلام على الخزر وهذا ما دعانا إلى التوسع فى الكلام عليهم بعض التوسع ومما يلفت إليه النظر أن تسمية البحر بهذا الاسم — الخزر — كانت قبل استيلاء العرب على تلك الجهات بمدة بعيدة .
فادعاء اشتقاق هذا الاسم من الخزر بمعنى انقلاب الحدقة باللغة العربية يكاد يكون من قبيل جعل (آدم) مأخوذاً من الأدمة بمعنى سمرة البشر (تعليق ذلك العالم الجليل) .

ويتضح كذلك من بحث اللغة الأيرونية والايرانية والكردية والأوردية أنها تتقارب كثيراً وتتشابه فى أسسها ومصادرها ، خصوصاً اذا علمنا أن هذه اللغات واللغات السانسكريتية واليونانيـة واللاتينية والألمانية والأنـكليزية والروسيـة والپهلوية الخ مشاهد فيها وفى أسسها جميعاً روابط آرية .

وبمقارنة قواعد اللغة الأيرونيةمن نحو وصرف الخ باللغة اللاتينيةنرى أن اللغتين تتشابهان فى القواعد .

***

وقد سمى الأيرون المعادن التى تعد الخطوة الأولى فى ترقى الجنس البشرى والمرحلة الأولى من المدنية الانسانية بأسماءبلغتهم تختلف تمام الاختلاف عماسماهابهالقفقاسيون.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن القفقاسيين هم أول من استعمل الحديد .

فيؤخذ من هذا أن الأيرون لما دخلوا قفقاسيا أدخلوا معهم أسماء تلك المعادن كما هى واردة فى لغتهم يعنى بلغة تختلف عن لغة القفقاسيين ، وكلماقطعوا مرحلة من مراحل التقدم والرقى وتجلت أمامهم أفـكار وأشياء جديدة كانوا يضطرون لتسميتها بأسماء مبتكرة مستعارة من اللغات الأجنبية كما هو المشاهد والحاصل فى جميع اللغات .

***

ويقول مورجان إن الاستين مثلوا دوراً هاماً فى تاريخ القوقاز وأحدثوا انقلاباً عظيماً فى فنونها وصناعاتها .

وتوجد فى بلادهم للآن آثار قديمة تدل على مدنيتهم ويعرف مكان وجودها (بمدافن كوبان) وفضلا عن ذلك فأنهم كانوا دائما مظاهرين ومساعدين للـكرج أمام القوات الأجنبية المغيرة من آسيا .

فساعدوا الـكرج كثيرا وعاونوهم فى داخلية بلادهم واليهم يرجع الفصل فى

تولية (سور ماغ) ملكا على الكرج بعد أبيه (فارتواز) لما تألب عليه الأمراء وعارضوا فى تنصيبه ملكا .

« حوادث مابين ٢٣٧ ، ١٦٢ م ق » (مورجان ج٢ ، ص ١٦٦)

وصاهروا العائلة المالكة الكرجية وتزوجت ملكتهم (طامار) أميرا ايرونيا (وقد جاء ذكر هذا مفصلاً فى تاريخ الكرج)

ويقول مورجان قد ثبت أخيراً أن (الآن[1]) المشهورين فى قفقاسيا الجنوبية بفتوحاتهم وتخريبهم البلاد واشتراكهم فى الحروب التى ساعدت وسببت سقوط امبراطورية بيزانطة الرومانية ماهم الا الاستين (مورجان ج ٢ ص ٢٠٢)

ويقول پلين (وهو أول من بحث وكتب تاريخ الأستين) ان قسماً مهماً منهم خرج من قفقاسيا وقصد اوربا الغربية واستوطنها

***

وينقسم الأيرون القاطنون بشمال قفقاسيا إلى أربعة أقسام :

ديغور ، الاكير ، قورتاشين ، تاغاؤر ، والأستين الشماليون كانوا فى الزمن الأخير تابعين للقابرتاى واخذواعنهم الاسلام .

وهم فى ملابسهم وأزيائهم واخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وتعصبهم القومى كبقية الچراكسة .

وهم قوم أذكياء نشطون آخذون فى ترقية معارفهم وصناعاتهم .

---

(١) هذه الكلمة وردت فى كتب التاريخ العربية باسم (اللان) — و(العلان) وقدسبق التحقيق فى أن (اللان) هم الآص احدى القبائل الأربعة الأصلية للجراكسة (المعرب)

الفصل الثامن

فى أحوال وشؤون وعادات الأدينه

ويتضمن هذا الفصل الأبحاث الآتية :

(١) بحث فى صنوف الأهالى ودرجاتهم ومراتبهم
(٢) نظام الحكم والادارة عند الجرا كسة
(٣) بحث فى أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم والآداب المرعية عندهم والكلام عن الرجال والمرأة فى المجتمعات
(٤) دياناتهم ومعتقداتهم
(٥) أساليبهم ونظمهم الحربية
(٦) صناعاتهم وملابسهم وأزياؤهم
(٧) الموسيقى والأغانى والرقص الوطنى
(٨) معارفهم وحكمهم وأمثالهم المأثورة
(٩) بحث فى آثارهم القديمة
(١٠) نتيجة وخلاصة هذه البحوث

أولا

بحث فى صنوف الأهالى وطبقاتهم

كانت للأديغه منذ القدم تقاليد مرعية وقواعد متبعة فى تصنيف الأهالى وتقسيمهم وجعلهم درجات كما هى الحال عند الأمم الأوروبية .

وينقسم الچراكسة اجمالا الى خمس طبقات :

أولا : پشى (أمير القوم ورئيسهم)

ثانيا : لقوه لاش (نبلاء من الطبقة الأولى)

ثالثا : وَرْقْ (نبلاء من الدرجة الثانية)

رابعا : لحوقوَالْ (الجمهور)

خامساً: پشى لَأْ (رجال الأمير)

ولا يعلم بالضبط الزمن الذى حصل فيه هذا التقسيم بين الچراكسة . ولكن من الثابت أن هذا الترتيب موجود من قديم الزمان والعائلات تعرف جيدا مراتبها ودرجاتها بالنسبة لغيرها ويراعون ذلك رعاية تامة ويحافظون عليها محافظة شديدة (المقامات محفوظة) وعقب التجاء أمراء التتار (الذين يطلق عليهم لقب خان ببلادهم) القادمين من القرم الى بلاد الچراكسة بعد أن زال حكمهم من هناك حافظوا على لقبهم : خان .

(وكان الأمراء الملتجئون ثلاث عائلات : باخچرى خان . وسعادت كرى خان . وچوبان كراى خان . فاستوطن باخچرى خان قبيلة القبردى وسعادت كرى خان قبيلة الأبازة وچوبان كراى خان قبيلة الحاتقواى) .

فأكرم الچراكسة وفادتهم ولقبوهم بألقاب الأمراء « پشى » اعلاء لقدرهم وحفظاً لكرامتهم . غير أنهم كانوا بعيدين عن الرياسة والزعامة .

* * *

وفى القرن السادس عشر للميلاد أدخل أمير القبردى (چان خواتوقه باسلان) على هذا التقسيم العام بعض التعديلات فجعل طبقة النبلاء خمس درجات والجمهور أربعة :

ولم يتناول هذا التعديل طبقة الأمراء (اليشى) فجمل صنوف النبلاء كما يأتى :

أولا ـ لقوه لاش

ثانياً ـ ديظنوقه (ديچونوقه)

ثالثاً ـ كُوَهْ دَزْ (كوه دس)

رابعاً ـ پشيش وَرْقْ (باسلان ورق)

خامساً ـ ورق (ورق صاوَهْاَهْ غُوسَهْ)

وكان يطلق على هؤلاء النبلاء عامة لقب (وَرْقْ) أما من دونهم فهم أربعة أقسام :

أولا ـ پشى كاو (رجل الأمير أو تابع الأمير)

ثانياً ـ أوجو ـ أو ـ لا كو صاو (فتيان القبيلة)

ثالثاً ـ لخُوقُوال (جمهور الشعب)

رابعاً ـ وونه أوت (خدم البيت)

وطبق هذا النظام لأول مرة فى قبائل القبردى (شورانوغموقه ص٩٤)

ويفسر (شورانوغموقه) معانى أسماء الصنوف الخمسة للأعيان بالآتى :

أولا ـ لقوه لاش ـ هذه كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ وتأتى بمعنيين :

أولا ـ بمعنى الشهير المعروف المنتمى لثلاثة جدود أمجاد .

ثانياً ـ مشتقه من كلمة (لاپ قوش) وتأتى بمعنى حائز لأوصاف الشهامة والشجاعة وأصله من ثلاثة جدود أبطال فما فوق .

ثانياً ـ ديظنوقه ـ مركبة من كلمتين (ديظين ـ و ـ قوه) بمعنى «ابن الفضه» وتطلق على أولاد الأمراء من الطبقة الثانية .

ثالثاً ـ كوَه دَزْ (كوه دس) ـ يظن أنها تطلق على أعيان ونبلاء الأجانب الذين

تچركسوا واستوطنوا مع الچراكسة [1] .

رابعاً - پشيش ورق (بسلان ورق) تطلق على الوَرْقْ الموجودين في معية الأمراء « الپشى » .

خامساً - وَرْقْ صاوَهْ لَهْ غوسه - كلمة مركبة من ثلاثة ألفاظ :

ورق - صاوهلوغ - غوسه - معناها الرفيق الأصيل الشجاع المرافق للورق وألقاب الشرف الثلاثة الأول تطلق اليوم على النبلاء والعظماء من الدرجة الأولى .

وهذه الصنوف والألقاب التي ابتكرها أمير القبرداى كما ذكرها شورانوغموقه غير مرعية الا في قبائل القبرداى .

أما الألقاب والدرجات التي بيناها فكانت مرعية في جميع القبائل وفي تواريخ وأدوار مختلفة .

ويؤيدنا في هذا الرأى (خانكراى) مؤلف (مشاهير الچراكسة سنة ١٨٣٥) فانه يقول إن هذه الألقاب والدرجات كانت موجودة ومحترمة ومرعية في عموم القبائل بلا استثناء .

***

واذا انتقلنا الى البحث في كيفية ظهور الأمراء والرؤساء بين الچراكسة فاننا نقول إن وجود هذه الطبقات والمراتب بينهم طبيعية وطبيعية للغاية، إذ أن كل عائلة تتطلب أن يكون لها رئيس فمن باب أولى الأقوام والشعوب والأمم يجب أن يكون لها أمراء ورؤوس. . . . . .

---

(١) معنى هذه الكلمة ركاب العربات فكأن الچراكسة لايعترفون لهؤلاء الدخلاء بالفروسية (المعرب)

والذى يستوقف الأنظار أن أمراء الچراكسة وحكامهم جميعاً نشأوا من عائلات چركسية محضة ولم يترأس عليهم أمير أجنبي قط حتى أن الأمراء المشهورين (ينال) القادمين من مصر فى صدر التاريخ والذين يعتبرون أصل دوحة الامارة والنبل ماهم الا أمراء چراكسة من أحفاد الحيثيين توطنوا مصر بل وحكموها فى زمن ما .

* * *

وهذه الألقاب والدرجات مرعية الاحترام والتشريف فى قبائل البسلنه ى والكمركوى والبرادوغ والأباظه وبنوع خاص فى قبائل القبرداى الذين يحافظون على تقاليدهم ونظام البيوتات الكبيرة والعائلات النبيلة حق المحافظة ويحترمونها للدرجة القصوى .

أما قبائل جهات كوبان وسواحل البحر الأسود أمثال الأبزاخ والشاپسيغ والناتخواج والأوبيخ فانهم نسخوا هذه الألقاب وامتيازاتها عقب النهضة القومية التى حصلت فى القوقاز . فأخرجوا الأمراء من البلاد ولم يبق منهم سوى القليل من درجة الورق .

وجميع هؤلاء الأمراء (الپشى) ينحدرون من سلالة جدهم الأعلى (ينال) السابق ذكره بتفصيل فى هذا الكتاب . وبدأ حكم الأمراء الاينالبين فى أول أمرهم فى قبائل الأبزاخ والشاپسيغ والأوبيخ الساكنين ساحل البحر .

وقد حكم الشاپسيغ أخيراً أمير من عائلة (زانوقه) .

والپشي لا يكون الا من عائلة أصيلة عريقة فى الامارة والنبالة ، وهذه مسئلة هامة لها تقاليدها وأحكامها . وعند ما كانت القبائل متحدة فى حكومة واحدة كان النظام يقضى أن يحكمها أمير عظيم تنتخبه القبائل باسم (پشيم ياپشى) ومعناها

أمير الأمراء أو (پشی شخوه) ومعناها الأمير الكبير . وهذه التسمية موروثة عندهم عن الحيثيين من أربعة آلاف سنة . وقد مر بنا أن ملك الحيثيين « ماؤو طور » الفاتح العظيم لما وقع على المعاهدة المشهورة بينه وبين «رمسيس الثانى » وقع تحت اسم (أمير أمراء الحيثيين) .

وجريا على الطريقة الرعية كان أمير الكمركوى (بلوتوقة) ملقباً باسم (پشيم باپشی) عند ماانتخب حاكما عاماً على عموم الچراكسة (شورانوغموقه ص ٦٢)

وكذلك الأمير ينال الكبير كان (پشيم باپشی) لعموم بلاد الچراكسة .

وطبقة الأمراء « الپشی » كانوا محترمی الجانب لهم امتيازات خاصة بشروط خاصة مدى حياتهم . ولكن إذا أظهر أحدهم عجزا فى إدارة القبيلة أو أحدث مايحط بكرامته أو بدر منه توان وتساهل فى الحرب أو اهمال العادات والتقاليد ، فعند ذلك تجتمع الآراء على عزله وتجريده من ألقابه وامتيازاته ويفقد منزلته ويعرف بينهم باسم الأمير المعزول (پشی تاوخ) أو (پشی تافزغ) (وقد طبق هذا الحكم على أول « بشی » عند القبردای من عائلة « قابردا تامبی » وهی العائلة التی ينتمون اليها وتعد اليوم من طبقة الورق من الدرجة الأولى) .

ومن العادات المرعية عندهم أن « الپشی » لايتزوجون الا من عائلات الپشی أمثالهم أو من عائلات « لقوه لاش » التی تجیء بعدهم مباشرة فی الدرجة والمرتبة .

ويطلق على الأراضى والبلاد الواقعة تحت نفوذ الپشی أو اللقولاش أسماء هؤلاء الأمراء تعظيما واجلالا .

أما « الوَرْقْ » أی النبلاء الذين يجيئون بعد هؤلاء فی الدرجة والمرتبة فيعظمونهم بأن ينسبوا الى أسمائهم القرى أو الأحياء التی يقيمون فيها هم وأفراد عائلاتهم وأتباعهم فيسمون مثلا القرية التی تسكنها عائلة أبوق:(أبوق حابله)أی قرية أبوق وهكذا:

* * *

ومن العادات المرعية أيضاً أن الأهالى يعظمون ويحترمون أفراد عائلات أمرائهم وأعيانهم فيلقبون بنات الأعيان والأمراء بـ (زان) يعنى الآنسة المبجلة ، والعروسة بـ (كواشه نيسه) يعنى العروسة السيدة ، والوالدات المسنات بـ (كواشه نان) يعنى السيدة الجدة ، والرجال بـ (زى ويس حان) يعنى الذى أفديه والأولاد الذكور بـ (دوته نف) يعنى نور العيون .

وبمثل هذه الألقاب كانوا يعظمون أمراءهم ونبلاءهم . وهذه التقاليد كانت مرعية الجانب بدقة عند القبردى .

* * *

ولقب « ورق » يوجه الى الأعيان من الدرجة الأولى الذين امتازوا فى الحروب بشجاعتهم النادرة أو أظهروا ذكاء وعبقرية خاصة أو أتوا أمراً عظيما فى فائدة القبيلة ورفعتها . كما أنه كان ينتقل بالميراث من كبير العائلة لأولاده .

وهؤلاء الورق كانوا أشد الناس محافظة على التقاليد القومية وعلى رعايتها بدقة ويسمى الچراكسة هذه العادات والتقاليد (اديغه خابزه) كما يطلقون عليها أيضا (ورق خابزه) نسبة الى هؤلاء الورق المشهورين بشدة محافظتهم على التمسك بأهداب تلك التقاليد .

ومرتبة الورق كانت كذلك درجات ولهم فى ذلك نظم مرعية محترمة بينهم .

وبعد الورق يجيء صنف « لحوقوال » طبقة « الجمهور » ويدخل فى هذه الطبقة جميع الزراع والتجار والصناع وهم الأحرار الذين يعيشون بحريتهم المطلقة ويكدون ويشتغلون لصالح أمتهم .

وتجد بين هذه الطبقة كثيراً من العلماء والأغنياء والمشهورين بفضلهم وميزتهم الحربية

وكانت لهم منزلة خاصة بين القبيلة وكان أ كثرهم يقتني المماليك والعبيد .

* * *

ومن جميل عادات الچراكسة أن لا يذكروا أسماءهم مجردة من أسماء عائلاتهم بل يقدمونها على أسمائهم مثال ذلك : اذا كان أحدهم اسمه « عمر » مثلا من عائلة « ينال » فيحتم أن ينادى بـ (ينالوقه عمر) أى ابن ينال . و « قوه » معناها ابن وقد اصطلحوا على ذلك للدلالة على أصولهم وأحسابهم .

وعا أنهم يعرفون عائلاتهم حق المعرفة ويعرفون فروعها المختلفة فلا تفوتهم معرفة البيوتات بمجرد ذكر لقب العائلة وهذه ميزة يحافظون عليها ليومنا هذا . أما أعضاء العائلات النبيلة التى منهم « الپشى » و « الوَرْقْ » فلا حاجـة لأفرادها الحاملين لألقاب التشريف أن يذكروها مع أسمـائهم لأنهم يعرفون بمجرد ذكر أسمائهم متصلة بعائلاتهم : مثلا .

اذا ذكر اسم (زانخوانوقه باسلان) يعلم فى الحال أن باسلان هذا أمير ابن أمير

* * *

ولـكل أسرة كبيرة علامة فارقة وشارة مميزة لهـا عن الأسر الأخرى تضعها على أسلحتها وعُدَدِها وخيلها ودوابها وكل ما كان خاصا بها . ولا يجوز مطلقا لعائلة أن تستعمل شارة عائلة أخرى .

وتخصيص هـذه العـلامات والشارات الفارقة للعائلات من حق مجلس ورق القبيلة (مجلس الأعيان) .

ومن اختصاص هذا المجلس النظر فيمن يستحق حمل هذه الشارة وذلك ضمن قواعد وشروط خاصة .

ولم نعلم بالتحديد تاريخ البدء فى استعمال تلك الشارات وحفظ ألقاب العائلات

وما الى ذلك من العادات القديمة .

وانى اطلعت على هذه العلامات والشارات الخاصة بأكثر العائلات الجركسية من كتاب المرحوم (مصطفى ماهر) البرادوغ المطبوع بمصر سنة ١٢٨١ هـ .

واذا دققنا البحث فى أشكال ورسوم تلك الشارات التى اتخذتها العائلات الجركسية علامات فارقة لها يتضح أن بعضها لم يخرج عن كونها حروفاً « حيثية » والبعض الآخر حروفاً « ميخية » وليست كما يدعون أنها مقتبسة من الفينيقيين والأشوريين .

بناء عليه تكون الشارات الجركسية من بنات أفكار الحيثيين (الهيتيت) رأسا وأنها كانت مستعملة عندهم من قبل الفينيقيين بآلاف السنين .

والجراكسة يحافظون على أسماء عائلاتهم محافظة تامة ويتغالون فى ذلك لدرجة كبرى ويحق لهم هذا التمسك وهذه المفاخرة لأن التمسك بالأصول والمفاخرة بالأحساب من شيم السادة الكرام .

واننا نشاهد هذه المفاخرة فى الشعوب جملة والأمم مجتمعة فمن باب أولى أن يتمسك بها الأفراد والعائلات .

وقد قامت أخيراً جريدة (اقدام) التركية تحث الأتراك ـ وهذه من أمهات جرائدهم ـ على احياء هذه العادة الجميلة متمنية انتشارها بينهم(١) .

---

(١) يلاحظ أن المؤلف ذكر هذا فى كتابه سنة ١٩١٢ فالفكرة فى ذاتها قديمة وقد أخرجها إلى حيز الوجود حضرة صاحب الفخامة الغازى مصطفى كمال باشا رئيس الجمهورية التركية فاصدر قانونا يحتم على كل تركي أن ينتسب إلى عائلة ويتخذ اسمها لقباً له واتخذ الغازى لنفسه لقب « أتاتورك » (المعرب) .

ثانيا

بحث فى نظام الحكم والادارة عند الچراكسة

قبل الكلام على نظام الحكم والادارة عند الچراكسة سنطرق باب الحكم والنظام عند الحيثيين (الهيتيت) .

يقول العلامة مورجان ان الحكم عندهم كان على طريقة حكم الاشراف ويتخللها شيء من قواعد الحكم المطلق .

كان بجانب الملك أو الحاكم مستشار للمملكة وهو المعبر عنه فى زمننا هذا (Chancelier del'Empire) (1) .

فلو لم يكن نظام الحكم عند الحيثيين مثبتاً على دعائم وطيدة وأسس مقبولة من الأمم الكثيرة التى كانت خاضعة لحكمهم لما دامت حكومتهم آلاف السنين ولما انتشرت مدنيتهم فى الخافقين .

فهذه النظم فى الحكم اتخذها الچراكسة وساروا عليها فى حكم قبائلهم وبلادهم خصوصا وانها دساتير أجدادهم وآبائهم الحيثيين من قبل

يقول مؤرخ الچراكسة (شورانرغموقه) انه وجد أمير حاكم اسمه (داؤو) بوادى (باقسن) ببلاد الچراكسة على رأس حكومة عظيمة فى القرن الرابع للميلاد .

وكذلك حكم عموم بلاد الچراكسه أمير الأمراء (پشى بلوتوقه) من أمراء قبيلة (الكيمركوى) بعد أن انتخبته القبائل حاكما عاما عليهم .

ويظن أن زمن حكمه كان بعد القرن السادس للميلاد . وعلى كل حال فانه من المؤكد أنه وجد بين القرنين التاسع والعاشر وهو العصر الذى عاش فيه الأمير ينال الكبيرجد الأمراء القبرداى .

(١) كما كان الحال فى امبراطورية ألمانيا قبل الحرب العالمية العظمى سنة ١٩١٤ (المعرب)

***

وطراز الحكم في عهد الأمير (بلوتوقة) كان على نظام الحكومات المتحدة . ويظن أنها كانت حكومة على شكل خاص لا بالجمهورية الحقه ولا بالادارة المطلقة وبعد (بلوتوقه) يجيء عهد أمير الأمراء (ينال) الكبير وحفيده الأمير (إيدار) وقد حكم هؤلاء الأمراء جميع مناطق كوبان والقبردى والابخاز . وبعبارة أخرى قد حكموا جميع الجراكسة على نظام الامارات المتحدة بمعنى أن كل قبيلة كان لها أميرها وهؤلاء الأمراء كانوا يخضعون للأمير الكبير (پشى شخوه) وبعد هؤلاء الأمراء العظام نرى أن التاريخ خال من الوثائق التى تثبت حلول أمراء آخرين محلهم، بل نرى أن الحكم بقى فى كل قبيلة يحكمها أميرها .

وبعد هذه المقدمة الوجيزة سنقصر بحثنا على بعض البيانات العامة بشأن الحكم والادارة فى القبائل الجركسية .

أما الشرح والتفصيل عن الحكومات الجركسية ابتداء من نهاية القرن الأول للميلاد لغاية استيلاء الروسيا النهائى على البلاد : فسنفرد له بابا خاصاً فى الجزء الثانى ان شاء الله .

***

نظام الحكم فى البلاد الجركسية كان جاريا على طريقة حكم الاشراف وعلى أساس التقاليد القومية المرعية من قديم الزمان (أديغه خابزه) وهذه التقاليد كانت مرعية الجانب بدرجة شديدة والأمير الذى لايحافظ عليها ولاينفذها بدقة وعناية كان مصيره العزل والتجريد .

ولزيادة الايضاح وشرح تفصيل هذا النظام يلزمنا أن نبحث فى احدى القبائل وطريقة تطبيق الأحكام حتى تتكون عندنا فكرة تفصيل الحكم عند الجراكسة

ولنستعرض كل ما هو داخل فى بحثنا .

تقضى التقاليد القومية أن يتولى امارة القبيلة أمير من العائلات النبيلة (پشى) وأن تنتقل اليه الامارة بالوراثة .

فنظام الوراثة هذا يكاد يكون من شروط الحكم الشبيه بالمطلق .

ويشترط فيمن يتولى الرئاسة أو الامارة على القبيلة أن يكون متصفا بالعقل الراجح والفكر الثاقب شجاعا مقداماً لايهاب الكوارث متمسكا بالتقاليد القومية محافظاً عليها عاملا على تنفيذها ورعايتها .

فاذا توفرت هذه المزايا فى الأمير المرغوب تنصيبه ينتخب بالاجماع رئيسا وحاكما على القبيلة مدى الحياة وتسند اليه القيادة العامة فى الحروب .

ومن القواعد المرعية والأنظمة المتبعة أن كل قبيلة تنقسم فى داخليتها الى أقسام صغيرة أو دوائر معينة على رأس كل منها (لقولاش ـ أو ـ ورق) وهؤلاء النبلاء يصرفون الأمور فى داخلية أقسامهم أو دوائرهم بمعرفتهم مع محافظتهم الشديدة على التقاليد واذا أخطأ رئيس منهم أو أخل بشؤون الامارة والرئاسة فيرفع أمره الى (الپشى) وهذا ينظر فيه بمساعدة مجلس الأعيان .

وأما انتخاب هؤلاء الرؤساء (الوَرْقْ) وتنصيبهم فمن حق (الپشى) ومجلس الأعيان .

ومن جهة أخرى فليس للپشى حق التداخل فى أمورهم بداخل اماراتهم .

فيعلم من هذا أن طرز الحكم عندهم كان على نمط حكم الأشراف فى القرون الوسطى من غير ظلم ولااستبداد رائدهم فى أحكامهم التقاليد ودستورهم فى معاملاتهم العادات .

(Système des Chevaliers du Moyen-Age)

ولا نبالغ اذا قلنا ان هذه العادات والتقاليد (اديغه خابزه) كانت منقوشة في قلب كل چركسي يحترمها ويعمل بها بوازع من نفسه من غير تكليف ولا تكلف فمن هنا يتضح السر في انتظام الحكومة عندهم وسيرها على وتيرة واحدة في ظل التقاليد والعادات .

وقد نشاهد احترام التقاليد والمحافظة عليها بهذه العناية أيضاً عند الأمة الانكليزية التي تسير عليها ليومنا هذا حتى أحكامهم القانونية يستمدونها من عاداتهم ولم تكن الأحكام والادارة عند الچراكسة يوماً ما مثل النظم الاستبدادية التي كان يتبعها ويحكم بمقتضاها رؤساء المقاطعات بآسيا (دره بك)

وهذه التقاليد (أديغه خابزه) كانت موضع احترام الجميع أمراء وشعباً ، وليس في مقدور أي أمير منهم أن يبدل منها شيئاً أو ينقص منها شيئاً أو يضيف عليها شيئاً . . . .

ونظام الحكومة والادارة عند الچراكسة يقتضي التقسيم الآتي :

أولا : (البشى) الأمير الكبير وهو رئيس القبيلة الأعلى ويكون في معيته الأمراء المنتسبون لعائلته . ولكل أمير من هؤلاء الأمراء حاشية خاصة به قوامها بعض (الوَرْقْ) والمماليك يقومون بخدمته الخاصة .

ثانياً : ثم يجيء (اللقوهلاش) وهم الأمراء الذين يلون (البشى) مباشرة ولهؤلاء حاشية أيضاً من (الوَرْقْ) والخدم والمماليك يقومون بخدمتهم وكانوا يقومون بالقرب من البشى (ولم يكن لهؤلاء الأمراء مناطق نفوذ معينة يحكمونها) .

ثالثاً : طبقة (الوَرْقْ) وهؤلاء هم الحكام الحقيقيون على الأقسام والدوائر . ويقيم كل منهم في دائرة اختصاصه . ويتحتم على الأهالي أن يتبعوا ورقاً من هؤلاء ويقيموا في منطقة نفوذه .

صور بعض الزعماء القفقاسيين الذين حاربوا الروس
ازماناً طويلة

ولكل وَرْقْ حاشية خاصة به مؤلفة من ورق أقل منه درجة ومماليك وخدم وحشم .

رابعاً : وبعد ذلك تجيء فى الدرجة والترتيب (اللُّخْوقُوَهلْ) وهم طبقة الأهالى والمزارعين الأحرار ويقيمون بحريتهم المطلقة فى دوائر ومناطق الوَرْقْ وكان أكثرهم يقتنون المماليك .

هذا هو النظام الحكومى المتبع فى جميع القبائل بصفة عامة ، وقد يختلف قليلاً فى بعضها من الوجهة التشكيلية .

فعند القبردى مثلا تكون طبقة (أُلُّخْوقُوَه لْ) خاضعة لسلطة الورق ويعيشون تحت نفوذهم .

أما فى قبائل جهات كوبان أى الشمالية خصوصاً الشاپسيغ والأوبيخ والأبزاخ فان السلطة والرياسة عندهم انتقلت من مدة مديدة من الپشي الذين انقرضوا إلى بعض الورق الحائزين للمؤهلات والصفات التى جعلت منهم حكاماً على هذه القبائل باسم (تحه ماته) .

وعدا هذه العائلات القليلة الباقية من الورق فان جميع القبائل المذكورة كانت من طبقة المزارعين الأحرار .

***

أما الدعاوى والمنازعات المادية بين الأهالى فكان الفصل فيها من اختصاص الوَرْقْ حسب نصوص الشريعة الاسلامية الغراء واتباعاً للعادات والتقاليد .

أما القضايا التى لا يمكن حلها بمعرفة الوَرْقْ فيحال أمر الفصل فيها لمحاكم الپشي .

أما نظر الأمور الهامة كانتخاب رئيس القبيلة واعلان الحرب ومحاكمة الامراء ومن فى طبقتهم وما إلى ذلك من المسائل الجسام فكان النظر والفصل فيها من حق

(مجلس الأعيان أو المجلس القومى الأعلى) .

* * *

ويتكون هذا المجلس الأعلى من العلماء والورق المتقدمين فى الطبقة والدرجة تحت رياسة البشى الكبير .

ويعلن عن مكان وزمن انعقاده بين الأهالى بواسطة السعاة والمنادين .

وإذا لم تكن المادة المنظورة أمام هذا المجلس خاصة بانتخاب البشى فالقرار يصدق عليه من البشى رئيس المجلس ثم يعلن بين الناس - أما إذا كانت الجلسة خاصة بانتخابه فلا يحضره البشى .

وبمناسبة المجلس الأعلى يقول المؤرخ الجركسى (أجوغه يقوه توفيق بك) إن أعضاء هذا المجلس يكون بعدد الدوائر المتألفة منها القبيلة بمعنى أن كل دائرة ترسل نائبها المنتخب ليمثلها فى المجلس ويشترط فى هذا العضو أن يكون من عائلة الورق ومن طبقة الشيوخ ويعطى حق التكلم .

وفى أول اجتماع ينتخب الحاضرون من بينهم رئيساً للمجلس ويعقدون الجلسة ويتناقشون فى المواضيع والمسائل المطروحة للفصل فيها .

وأثناء ذلك يسترشدون بآراء العلماء وبشي القبيلة والأمراء الآخرين (اللقوه لاش) ويتشاورون فيما بينهم وتسمى هذه الجلسة (خاسه) أو (پولق) وبعد استيفاء المناقشة يتداولون ويصدرون قراراتهم الفاصلة فى المواضيع ويعلنونها على الأهالى بعد التصديق عليها من أمير القبيلة ويبدءون بتنفيذها .

أما قرارات اعلان الحرب فتعلن أولا لجمهور الأهالى مع بيان الأسباب التى دعت للالتجاء اليها حتى اذا ما قبلوها تعلن الحرب .

* * *

فالحكم الدستورى كان معمولا به عند الچراكسة من قديم الزمان قبل أن تعرف المجالس النيابية الحالية بآلاف السنين والشورى فى الأحكام كانت من تقاليدهم قبل ظهور الاسلام بزمن بعيد لا يحده التاريخ .

طريقة انتخاب اليشى الكبير
وبيان حقوقه وامتيازاته

عندما يكون منصب رئاسة القبيلة شاغرا لسبب ما ، تقضى التقاليد بانتخاب پشى آخر للرياسة ـ فعملية انتخاب الرئيس الجديد تكون من حق (المجلس القومى العالى) المار ذكره

وبعد اتمام الانتخاب يؤدى اليشى الجديد يمين الاخلاص للقبيلة أمام هذا المجلس العالى ويتعهد بأن : يبتعد عن الظلم والاستبداد ، ويقيم العدل بالقسط بين الناس ، ويدأب على العمل لما فيه المنفعة العامة للقبيلة وفائدتها ، وأن ينفذ قرارات المجلس الأعلى كلما اجتمع واصدر قراراً ، ويحافظ على التقاليد القومية (اديغه خابزه) ويحترمها وينفذها .

وبعد هذه الاجرءات يكلف رئيس المجلس جميع الأمراء الحاضرين (لقوه لش) أن يؤدوا بدورهم يمين الاخلاص والولاء للبشى الجديد وأن يعاونوه ويساعدوه فى الحروب والمدلهمات ، وأن يكونوا أعوانه فيما يعلى شأنه ويعظم قدره ، وأن يخلصوا له النصح والارشاد ؛ وبكلمة عامة أن يكونوا جميعا كتلة واحدة فيما يعود عليهم وعلى قبيلتهم وعشيرتهم بالفلاح والنجاح .

وبعد ذلك ينتخب الرئيس الجديد ثمانية أو عشرة أمراء (وَرْقْ) ليكونوا فى حاشيته وخاصته ، ويحلفهم اليمين ليكونوا صادقين فى قولهم مخلصين فى عملهم ، وأن يؤدوا مايعهد اليهم من الأعمال والخدمات بكل اخلاص وحمية .

وبعد إتمام هذه المراسيم يعلن رسمياً اسم الرئيس الجديد وأسماء الأمراء الذين الحقوا بحاشيته ويبلغ ذلك بصفة رسمية لباقي القبائل المجاورة .

وبعد ذلك تقام التشريفات التبريكية والاحتفالات القومية ويتقبل البشى الكبير الهدايا من الأمراء والأعيان .

أما سلطة البشى فهي محدودة في دائرة العادات والتقاليد القومية . وله أن يحاكم الأمراء والنبلاء والأعيان ، بشروط خاصة ، أما عدا ذلك فكان من حق المجلس القومي العالي .

كذلك ثروته كانت محدودة . وهي عبارة عن المماليك والأراضي التي يقيمون فيها وبعض قطعان من البقر والغنم التي تؤول اليه بطريق الميراث عن آبائه وأجداده وعدا هذا فانه لا يملك شيئاً مطلقاً .

ورغم هذا فان كل شيء كان في متناول يده لأن العادات كانت تحتم على الأعيان والأمراء وغيرهم أن يقوموا بسد احتياجات الأمارة عن طيب خاطر من غير تكليف ولا تكلف .

وكان يخصص له أيضا جزء من الجزاءات التي كان يحكم بها على المذنبين وكان الرئيس موضع احترام وتعظيم من الجميع . فتقام له مظاهر التبجيل والاحترام أينما حل وأينما سار .

وإذا سافر لجهة ما يخرج في ركابه كثير من الأمراء والورق ويلحق به كثير من الخيالة حرساً له وا[illegible]نوا في خدمته .

وعند وصوله إلى المكان المقصود تخرج لاستقباله هيئة مخصوصة على مسافة بعيدة لتستقبله وتعود في ركابه .

ويخصص لجلوسه أرفع مكان في الاجتماعات ويتصدر الحفلات والمجالس . ولا

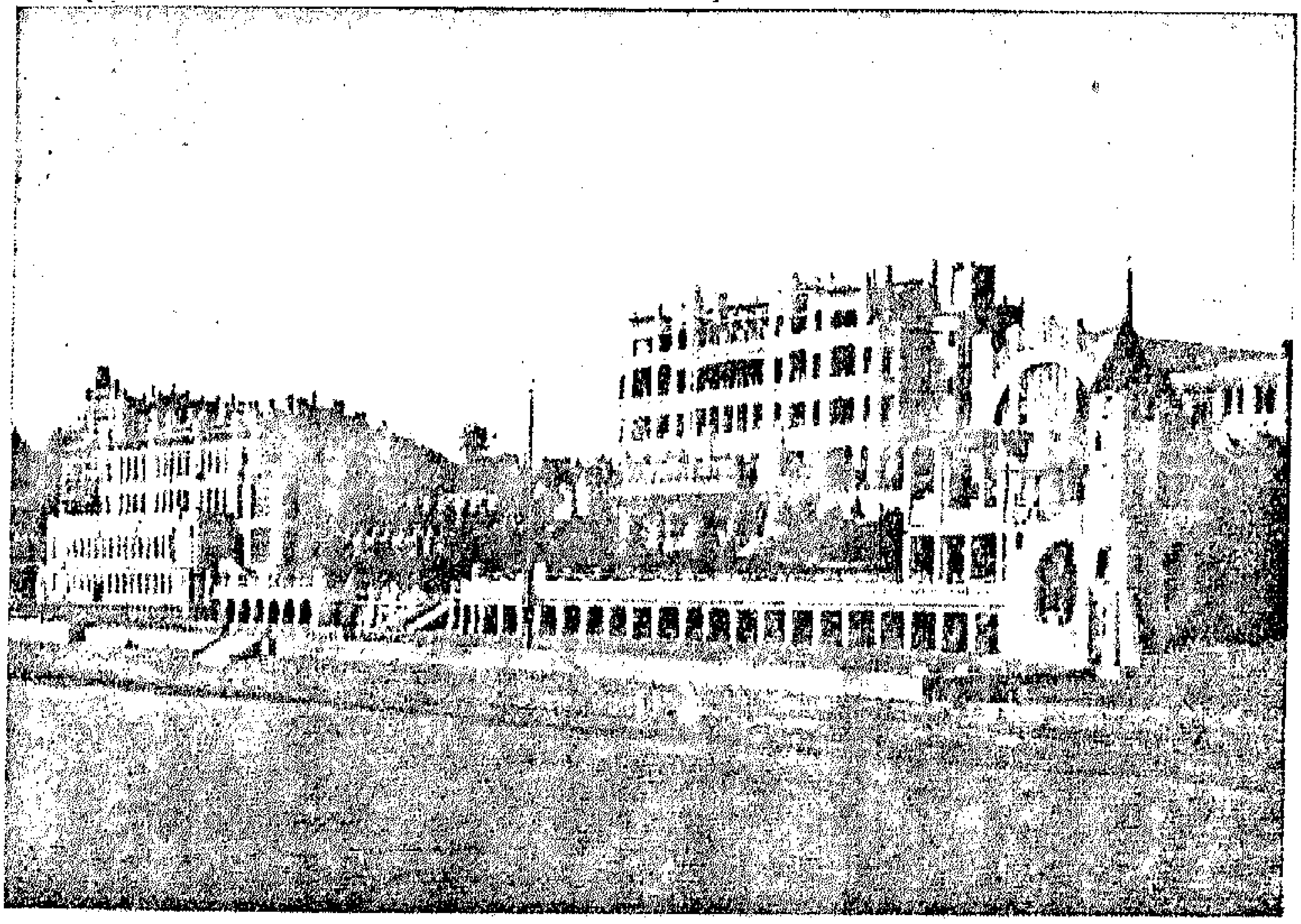

موقع على ساحل البحر الاسود مدينة صوجى

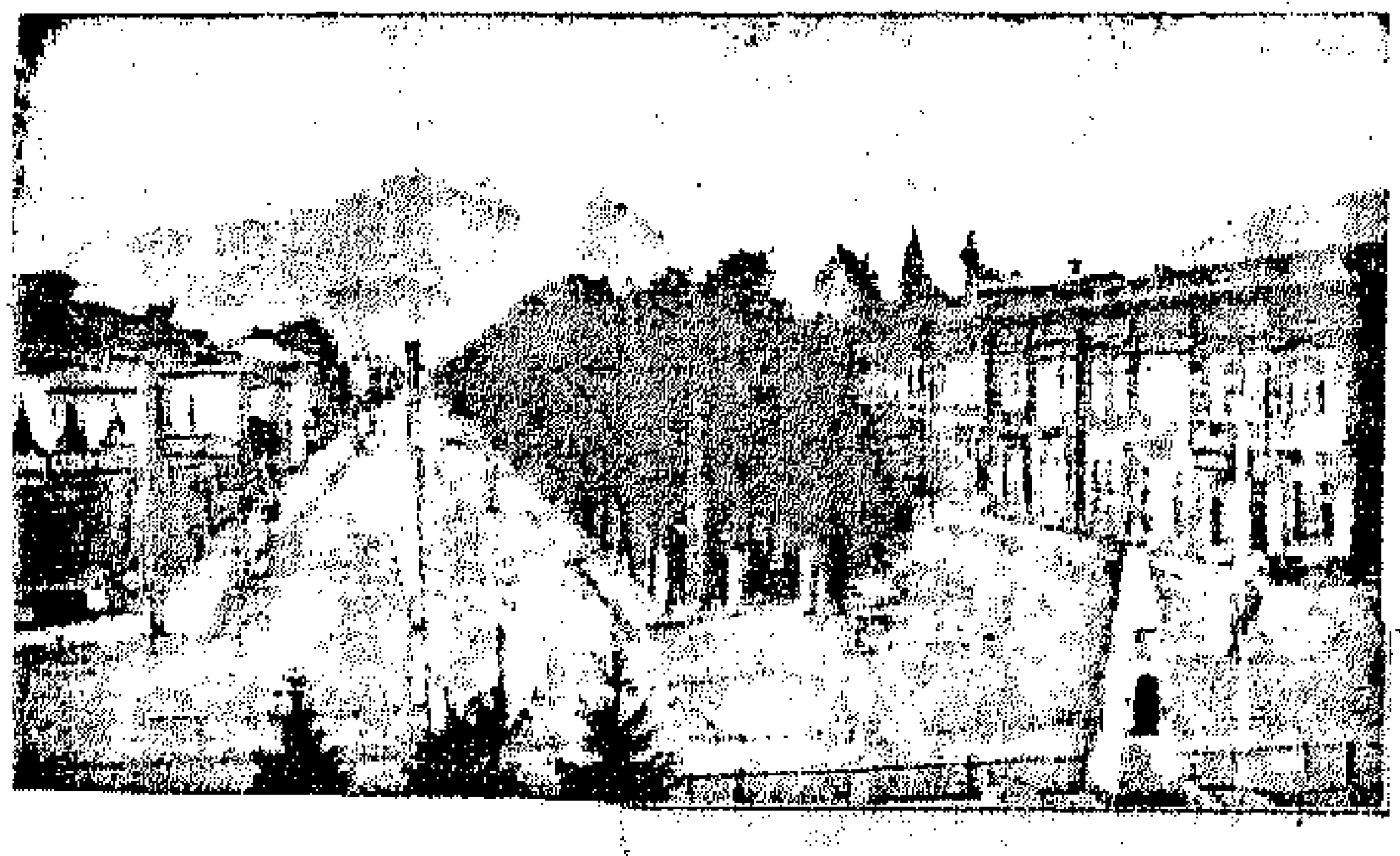

« ته رك قاله »
عاصــمة جمهورية
شمال القوقاز

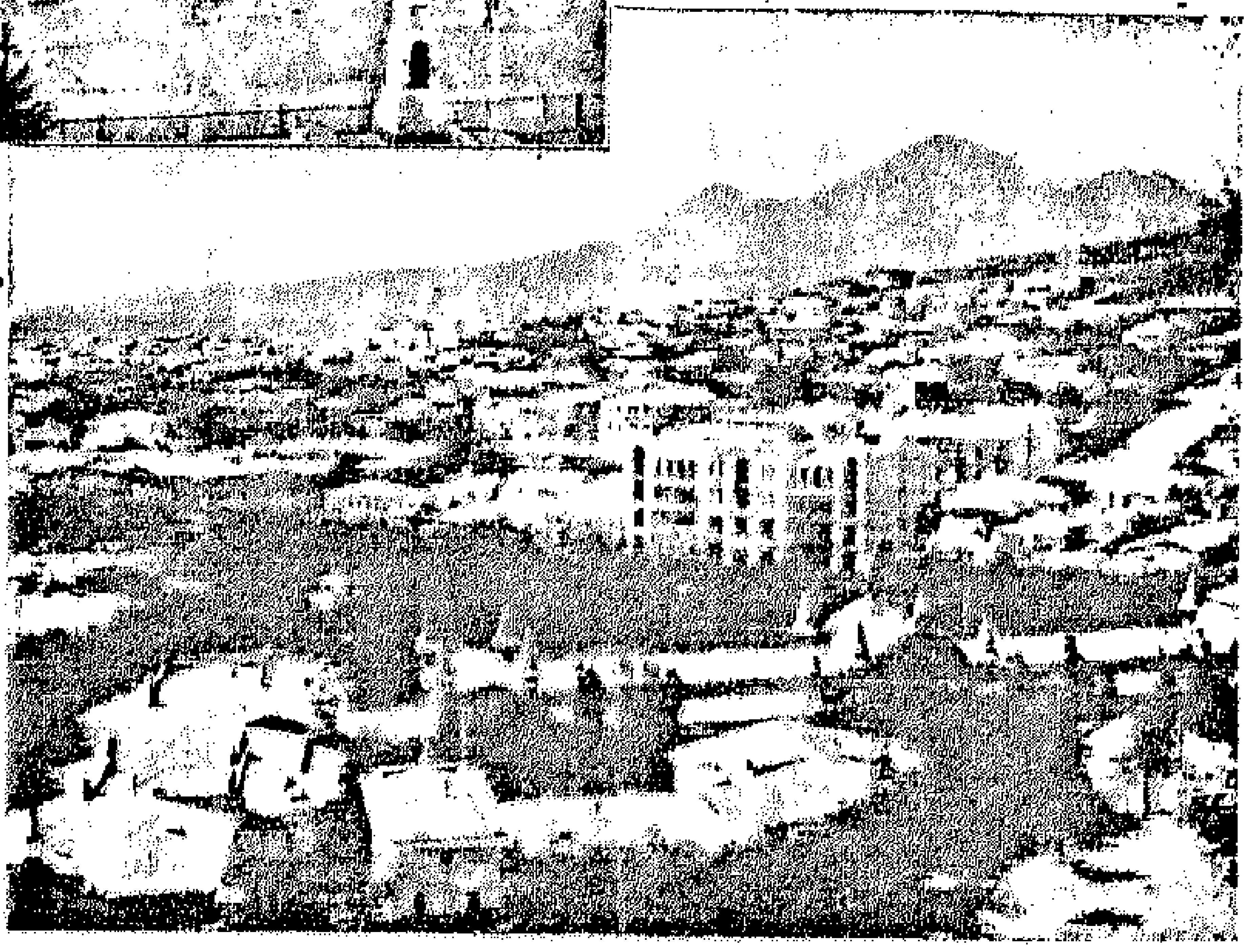

منظر عام
لمدينة « بسوهابه »
(المياه الساخنة)

يجلس فى حضرته إلا العظماء والأكابر من النبلاء ، بعد أن يسمح لهم بذلك ولا يجالس معه على طعام سوى الأمراء العظام ومن هم فى طبقتهم .

واذا ما دار الرقص أمامه أو أمام أحد أفراد عائلته فالأغانى التى تلقى وتقال تكون خاصة به وبعائلته ، والتوقيع على الموسيقى يكون منسجما معها باسلوب يليق بالمقام .

وفى اثناء هذه الحفلة تطلق الأعيرة النارية فى الفضاء اظهاراً للاحترام والسرور .

ومن العادات المرعية أن لا يمر فارس مهما علت درجته بالقرب من دار الأمارة ومركز الرياسة الا ترجّل ولا يعتلى ظهر فرسه الا بعد أن يسير مسافة ليست بالقليلة.

وفوق ذلك فقد جرت العادة ان لا يذكر اسم الرئيس أو أحد أفراد أسرته الا وتضاف اليه أداة التعظيم والتبجيل أعلاءا لشأنهم ورفعاً لقدرهم .

* * *

ومن البراهين القوية والأدلة الساطعة على انتشار العدل بين الجراكسة من قديم الزمان وجود المحاكم التى أسسها الأمير العظيم (ينال الكبير) رأس أمراء الجراكسة عموماً فى القرن التاسع للميلاد وقد بلغت أربعين محكمة واليه يرجع الفضل فى توحيد القبائل الجركسية وجعلهم أمة واحدة .

وقد دامت هذه المحاكم بقفقاسيا لغاية سنة ١٤٢٧ م . (شورانو غموقه ص ٦٠ الطبعة الثالثة) .

* * *

وجاء بعد ذلك أمير القبردى الكبرى (بَسْلَانْ) وهو أعظم الرجال الذين أنبتتهم القوقاز ، واذا ما عد الصالحون والرجال العاملون كان بسلان نبراسهم فى عصره .

جاء هذا الأمير الكبير والمصلح العظيم وأسس فى كل بلدة مهمة محكمة ابتدائية برياسة أحد الورق المشهود لهم بالمحافظة على العادات القومية وعضوية اثنين أو ثلاثة

ينتخبون من الأهالى . وجعل اختصاص هذه المحاكم النظر فى الدعاوى البسيطة بين الناس وعرفت باسم (خه ى ز صيثه خاسه) أى مجالس التبرئة .

أما الدعاوى الهامة وما يتعلق بالشؤون القومية فكان ينظرها بنفسه فى مجلسه الخاص الذى يعقده فى مقره وكان يسمى المجلس العالى « خه ى » (شورانو غموقه ص ٩٤ ـ ٩٥) .

***

وفى أوائل القرن التاسع عشر أسس (المحاكم الشرعية) الأمير العظيم (عادل كيرايْ) يشى القبردى وحضرة فخر العلماء العاملين وقاضى زمانه صاحب السيادة والفضيلة الورْقْ من الدرجة الأولى (آبوق حاجى اسحاق افندى) .

وبهمة هذا العالم الفاضل انتشرت هذه المحاكم بداخل قبائل القبردى ونفذت أحكامها بدقة وعناية حسب نصوص الشريعة الغراء .

ومما يؤيد العدل والحق أن القوم كانوا يتروون فى أحكامهم ولا يتسرعون فى قراراتهم ، ويطلقون المتقاضين سعة من الوقت ليأتوا ببرهانهم إن كانوا من الصادقين .

وعلى هذه القاعدة كانت مواد الارث تسمع فيها الدعوى لمدى أربعين سنة حفظا للحقوق من الضياع .

وعند تعديل بعض العادات القومية عند القبردى سنة ١٨٠٧ لم يمسوا مسائل التوريث وأجازوا المبدأ الذى يقضى بجواز سماعها لمدة أربعين سنة (تاريخ الاديغه ـ شورانو غموقه ـ ص ـ ١٢٣ وما بعدها) .

وقد أسس المرحوم الأمير (الشيخ شامل) فى أواسط القرن التاسع عشر جملة محاكم شرعية أيضاً فى الجهات الشمالية بكوبان بمعرفة نوابه ورسله الثلاثة خصوصاً تلك المحاكم التى أسسها النائب الثالث والأخير حضرة صاحب الفضيلة محمد أمين افندى .

* * *

وبعد انتشار الدين الاسلامى الحنيف بين الجراكسة واعتناقهم اياه كانوا يلجأون لأحكام الشرع الشريف عند الفصل فى قضاياهم. فتأسست جملة محاكم شرعية وسارت فى أحكامها حسب الشريعة الغراء. وكانت الأحكام التى ينطق بها والفتاوى التى تصدر غير قابلة للطعن.

* * *

ومن المأثور عن الأمير العظيم (عادل كراى) أنه دخل يوما جلسة المحكمة المنعقدة برئاسة القاضى الفاضل الجرىء (أبوق حاجى اسحاق) المشهور بأنه لا يخشى فى الحق لومة لائم، واستمع المناقشات والمرافعات. وعند ما هم بالانصراف التفت إلى القاضى قائلا:

« إذا لم تحافظ على الحقوق العامة فى دائرة العدالة التامة فلأقيمن العدل بهذا » وأشار إلى سيفه.

فالتفت اليه القاضى مجيباً:

« وإذا رأيت فيك اهمالا أو تقصيراً فى تنفيذ أحكامى التى أستمدها من الشريعة الغراء فأنى أنفذ فيك أمر ربى » وأخرج من تحت الوسادة الجالس عليها غدارة وصوبها نحوه.

هكذا كانت النفوس كباراً تتقد حمية ونارا فى اعلاء كلمة الله وأحكامه. فانظر يا رعاك الله هذه المحاورة القصيرة فى مظهرها العظيمة فى معناها بين أميرين عظيمين يتباريان فى تنفيذ أحكام الله ودينه ويتوعد كل منهما الآخر بالقتل فى سبيل العدل واعلاء دين الله . . . ! ! يا للفخر ويا للعظمة . . . ! !

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

أما المسائل الأخرى والمنازعات الخاصة بالأمراء والأعيان والمماليك التى لا يمكن حلها حسب الشريعة فكان يفصل فيها طبق العرف والتقاليد (اديغه خابزه) . ولم يعلم مطلقا فى تاريخ القوقاز أن وقع عقاب جسمانى على رجل حر بل جرت العادة أن الآباء فقط كانوا يلجأون أحياناً لتقويم أخلاق أولادهم ومماليكهم الى هذا النوع من التأديب .

أما الأحكام التى كانوا يصدرونها ضد من تثبت ادانتهم فكانت غرامات نقدية أو غرامات عينية من حيوانات وغير ذلك ويكثر مقدارها أو يقل حسب نوع التهمة.

والخلاصة أن الأمة الجركسية كانت خاضعة لقانون عظيم بل لقانون مقدس وهو قانون الاديغه خابزه أو قانون التقاليد والعادات وبفضل هذه التقاليد السامية كانت الأمة رائعة فى بحبوحة من الحرية آمنة على أرواحها وأعراضها وأموالها من العسف والاستبداد (١) .

* * *

وسننقل هنا ما كتبه شيخ الكتاب وأشهر الأدباء العثمانيين المرحوم (أحمد مدحت) فى مؤلفه (قرق أنبار : الكشكول) بشأن الادارة والحكم عند الجراكسة . قال رحمه الله :

---

(١) والأمم والشعوب انما تبقى ويدوم مجدها ويسمو عزها بأخلاقها الفاضلة وتقاليدها القويمة العالية .

رحم الله أمير الشعر شوقى حيث يقول :

وانما الأمم الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا (المعرب)

***

والخلاصة أن الحكم عند الچراكسة (وسمّه كيفما شئت) كان يسوى بين الغنى والفقير ، ولا يسمح للقوى بالتغلب على الضعيف ، وكانت الأموال والأرواح والأعراض مصانة من غير سياج ، والأمن مستتباً بلا احتياج الى شرطة وأعوان والأمور جارية فى طبيعتها من غير تكليف ولا تكلف ، الأمر الذى ساعد كثيراً على انتشار الرفاهية والسعادة بين الأمة وجعل الحياة الاجتماعية الچركسية قيمة فى التاريخ وحفظ هذه الأمة الى الآن .

***

وخضوعاً لحكم الله وتمشياً مع قانون الطبيعة بأن كل شىء فى هذه الدنيا مقضى عليه بالفناء .

بناء على هذه النظرية الفلسفية والحكمة البالغة فان مدنية الچراكسة العظيمة التى كانت قائمة من قبل التاريخ ، والتى عاصرت مدنية البوذيين والبراهمة ، جاء عليها حين من الدهر نفذ فيها حكم القضاء وأصبحت فى خبر كان .

وهكذا فان التاريخ يعيد أدواره ، يوم لك ويوم عليك ، وبهذا قضت سنة الله فى خلقه .

(قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ ، تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .
(قرآن كريم)

وليس الچراكسة وحدهم الذين مروا من هذا الباب بل تبعهم منه أقوام عظام أصحاب مدنية ورقى أمثال الكلدانيين والأشوريين والمصريين واليونانيين والعرب تاركين وراءهم مدنيتهم ورقيهم وعلومهم .

وذهبوا جميعاً نحو الانقراض والفناء . . . .

***

ورغم هـذه الأسباب التي ذهبت بمجد وعظمة هذه الأمم فاننا لا نعطف كثيراً ولا نميل أبداً الى الأخذ بهذه النظرية التي تلقى مسئولية ذلك على الظروف والأقدار .

لأن مَثل حياة الأمم كمَثل حياة الأفراد من غير كبير فارق، فالفرد الذي لا يكافح عظائم الأمور ويصغر ويتقهقر أمامها فانه من غير شك سيغلب على أمره ويفر أمام مناظره ، والفرار معناه الخروج من ميدان الحياة ، ومتى ماخرج الانسان من المعمعة فمن الصعب بل من المستحيل عليه العودة اليها مرة أخرى الا اذا جاهد جهاد المستميتين وهيهات ان وصل .

فالأمم والشعوب مثلها كمثل الأفراد . إن لم تتمسك بالأسباب التي تقويها على جيرانها ومثيلاتها وتفوقها بقوتها وعـددها وتنتحى ناحية التنعم والرفاهية وتهمل الأسباب المتقدمة فانه مقضى عليها حتما ومحكوم عليها بالزوال . وقد شاهدنا هـذه الحقيقة كثيرا وكانت سببا فى انحطاط الكثير من الممالك والدول .

ولهذا كانت الأمم سببا فى تدهور نفسها بنفسها وسببت حتفها بظلفها . وجلبت على نفسها التعاسة والشقاء .

هذا والكتب الالهية والقوانين الطبيعية قضت على الأفراد والجماعات والأمم أن يتبعوا سنن البقاء وقوانينه وينفذوها بدقة وقوة والا حكم عليهم بالفناء .

وللأمم علل وأمراض اجتماعية كملل وأمراض الافراد ان لم يعتن بها ويوصف لها الدواء الناجع فالأمراض يستفحل أمرها وتفتك بهم وتفنيهم عن آخرهم .

غير أن اخواننا الچراكسة لم يهتموا لهـذه الأمراض فتركوها حتى استعصى شفاؤها وتفشت سمومها فـكانت القاضية عليهم وعلى مدنيتهم .

***

وإذا نظرنا الى الچراكسة من الوجهة الاجتماعية والادارية نرى أنهم يشابهون كثيرا أمة اليونان القدماء التى كانت مكونة من جملة جمهوريات مختلفة .

والسبب الذى قضى على هذه الأمة العظيمة وعلى الفينيقيين بالاضمحلال والزوال هو بعينه السبب الذى قضى على الچراكسة .

أما السبب الذى محا أثر هـذه الأمم جماء وحكم عليها بالموت فهو قصر نظرهم وعدم تكوين وجهة سياسية معينة .

أضف إلى ذلك سبباً آخر عجل على الچراكسة بالرحيل هو تنافسهم وتطاحنهم فيما بينهم والخصومات العائلية والاختلافات بين القبائل . وقد أجادت الكاتبة الأديبة والسيدة الفاضلة (خيريه ملك خونج) اذ قالت :

« من أهم الأسباب التى لاتقع تحت حصر وعجلت باضمحلال الچراكسة وكثير من الأمم الأخرى الشقاق وعدم الاتحاد .

«ولم يفق الچراكسة يوما من المنازعات فيما بينهم ويتفقوا على الاتحاد والتآلف ويكونوا كتلة واحدة قوية أمام أعدائهم ومنافسيهم بل الأدهى والأمر أنهم لم يفهموا يوماً ما ولم يفقهوا أن حياة الأمة وبقاءها خير من حيـاة الفرد والقبيلة وبقائهما . (جريدة غوازه الچركسية رقم ٣١) .

والذى أبعد الچراكسة عن ادراك هذه الأسرار وفهم أسباب الحياة والبقاء هو ابتعادهم عن العلوم والمعارف وعدم اهتمامهم بتلك الدعائم القوية التى ترتكز عليها حياة الأمم والشعوب .

فمن سوء طالعهم أنهم كانوا بعيدين عن مناهل العلم والعرفان بمسافات كبيرة حتى كان من أمرهم ما كان .

والذى يحزننا كثيرا أنهم لم يجتهدوا فى أى وقت فى التمسك بأبسط الأساليب العلمية الأولية حتى كنا نتعزى وننسى بعض مصائبنا بل بقوا فى جهلهم يتخبطون .

* * *

وعلى ذكر الحكم عند الچراكسة نقول ان طراز (حكم الأشراف) الذى كان سائداً عندهم ، المقيد بالشورى ، البعيد عن « المطلقية » ، كان موافقاً جداً لطبائعهم وأخلاقهم خصوصا أن مركز الحكم لم يكن يوماً ما منحصرا فى زيد دون عمرو أوكان مطمحا للأنظار والتنافس .

وكانوا يتخيرون لهذا المركز من فاق أقرانه من الأشراف بأخلاقه الفاضلة وعلمه الغزير وما الى ذلك من المؤهلات السامية . وان رأوا اعوجاجا أو نقصا فى الجالس على سرير الامارة نزعوها منه وولوا عليهم غيره ممن تتوفر فيه الشروط المطلوبة .

ومن أمثالهم المأثورة التى يشيرون بها الى أميرهم :

« إن كنت شجاعا ذا مروءة فما ذلك الا لأنك أصيل » .

فمن هنا تتضح نفسيتهم ومايكنونه لأمرائهم من تقدير واحترام وعزة وسلطان

غير أن الحروب المستمره ودفاعهم الدائمى عن كيانهم جعل من الچراكسة أمة حربية أكثر منها زراعية أو صناعية أو علمية ولم يتقدموا فى تلك الفنون وتركوها وراءهم وانكبوا بكلياتهم الى ضروب الفروسية والشجاعة .

ومن ضمن تقاليد الأمراء والنبلاء أن لايشتغلوا بالعلم ولا بالتجارة ولا بالزراعة لأن ذلك مما يعيرهم ويشين سمعتهم ويحط من قدرهم !! .

ثالثا

بحث فى أخلاق الچراكسة وعاداتهم وتقاليدهم والآداب المرعية عندهم (أديغه خابزه) الزواج - مركز المرأة فى المجتمع

بلاد الچراكسة عموما تدين لقانون واحد وهو (الأديغه خابزه) المستمد من التقاليد والعادات القومية القديمة التى لها مكانتها وقدسيتها فى نظرهم جميعا من أعلى الطبقات لأصغر الناس والجميع أمامه سواء من غير فارق ولا تمييز.

والحياة الاجتماعية عندهم عبارة عن سلسلة من المراسيم المنظمة. فالزواج له قيود وشروط وعادات، والحياة الزوجية لها نظم وقواعد، بل لها أحيانا عقد معقدة.

والسيدات لهن احترامهن فى نظر الرجال، ولهن مجالسهن فى المجتمعات. والچراكسة يربون أطفالهم ضمن شروط وعادات وكل ذلك فى دائرة (الأديغه خابزه) وفى الواقع أن واضعى قواعد (الأديغه خابزه) كانوا حكماء مشرعين لأنهم راعوا عند وضعها الأمراض الاجتماعية فاحتاطوا لها بهذا القانون الذى يعتبر سياجا ووقاية من الأدواء الاجتماعية قبل حصولها. وعلى هذه القاعدة وضعوا أساسهم المتين فتلافوا به جميع العلل الأخلاقية التى نرى تأثير فتكها ونتائجها المزرية فى باقى الأمم والشعوب.

وقد ربطوا كل حياتهم الاجتماعية بالأخلاق السامية التى تعتبر بحق أسس الحياة والعمران.

فكانت نتيجة هذا القانون الاخلاقى العظيم أنه لم تقع حادثة ما فى بلادهم تخدش الشرف أو تجرح الناموس.

فالفضل فى هذه النتائج المشرفة يرجع الى تمسكهم بقانونهم والجرى عليه فى جميع أحوالهم.

ويناديون بعضهم بعضاً بكلمة (اديغه) التى معناها (مواطن - رفيق) وأفراد

فتاة چركسية

القبيلة متساوون جميعاً فى الحقوق العامة بدرجة واحدة،وحريتهم الشخصيه وكرامتهم الذاتية مصونة ومحترمة أيما احترام .

وكانوا متضامنين متحابين متكاتفين متحدى القلوب يطيعون آباءهم اطاعة مطلقة ويحترمون شيوخهم وعلماءهم ويجلون نساءهم وينزلونهن منازلهن فى دائرة الآداب والأخلاق العالية .

ومن شيمهم التى يفتخر بها الوفاء بالوعد وإجارة المستجيرين والتمسك بالشرف والمحافظة على الكرامة .

ومن عاداتهم أن لا يعاملوا أولادهم بقسوة وشدة ولا يمكن الأولاد قطعا أن يجلسوا فى حضرة والديهم ولا أن يظهروا أمامهم من غير داع ولا سبب .

وعندمايولدلأحدهم مولود (فى طبقة الأعيان والأمراء) يعهدون أمر رضاعه ورعايته لاحدى المرضعات وهى التى تتولى أمر تربيته والعناية به بمنزلها الخاص حتى يبلغ الثامنة أو العاشرة من عمره (وهذه المربية أو المرضع تكون عادة من المقربين للعائلة)فعندئذ يرجع إلى بيت أبيه فى حفلة عظيمة وتكرم وفادة المربية وتقدم لها الهدايا والعطايا .

أما الشيوخ فانهم موضع احترام الجميع : ينفذون آراءهم ويلبون طلباتهم ويحبذون أفكارهم . واذا ما دخل شيخ مُسِنّ على أحد أبناء (الپشى) الشبان يقف له احتراماً ولا يجلس إلا اذا أذن له الشيخ بالجلوس .

ومن شدة احترامهم لكبرائهم انه إذا ذكر اسم عظيم أو اسم رئيس وكان غائبا أو متوفى يقف الجميع اجلالا واحتراما له .

ويضرب بالجراكسة الأمثال فى وفائهم بالوعد واقراء الضيف وكرمهم الذى لاحد له ومن أمثالهم فى ذلك :

— دار لا ضيف فيها ، لا بورك فيها — الضيف شريك الروح —

ومن المشهور عنهم أنهم يقدمون للضيف كل مايملكون بدون أن يمسكوا عنه شيئا ويجدون فى ذلك لذة وفخراً .

وإذا كان المُضيفُ ميسوراً فلا بد أن يهدى ضيفه يوم رحيله فرسا أو سيفا أوما شابه ذلك من أنواع الهدايا ويعتبرون ذلك حقا واجب الأداء

وصاحب الدار مسئول عن حياة ضيفه وشرفه وعرضه مادام فى منزله وضيافته .

ولا يجرؤ مطلقا على سؤاله عن سبب مجيئه ؛ ولا عن وجهته، ولا عن المدة التى سيقيمها عنده ، لأنهم يعتبرون ذلك جرحا لاحساس الضيف أو تنويها بالاسراع فى رحيله .

ويعتبرون تلك الأسئلة خارجة عن اللياقة ومن المعايب القومية المنافية للتقاليد والذوق السليم .

ومن مناقبهم أنهم لايمسكون عما يطلب منهم فيما بينهم مهما كان عزيزا أو قيما ويكفى لطلب ذلك أن يمدح الطالب الشيء الذى يريده كأن يقول ما أجمل هذه الفرس أوما ألطف هذا السرج أو هذا السلاح الخ الخ ففى الحال يقدم عن طيب خاطر وبمنتهى الكرم من صاحبه وكذلك إذا طلب مملوك من سيده أى شيء فلا يخيب طلبه ويقدمه له فى الحال .

وهذه العادة جارية الآن فى كثير من الجهات التى يقيمون فيها خارج القوقاز وقد لاحظ كثير من السياح الأجانب هذه العادات الجميلة خصوصا معاملة السادة لمواليهم فوجدوا أنها تختلف كثيراً عن معاملة أمثالهم فى باقى الممالك لاسيما لما تحققوا أن الجراكسة يعتبرون مواليهم كأفراد عائلتهم ويعاملونهم من غير تفريق ولا تمييز .

وبفضل هذه العادات الجميلة وتلك الأخلاق الديموقراتيه لا يوجد بين عموم الجراكسة فقيرأوسائل أو محروم .

كذلك لن تجد فى أى مدينة رجلا چركسيا سائلاً . . . !!

وهذا من فضل الله عليهم وبسبب تعاونهم ومساعدة بعضهم بعضا تنفيذا لتلك التقاليد الشريفة (اديغه خابزه) .

ويا حبذا لو وسع عقلاؤنا ومفكرونا دائرة تلك التقاليد الجليلة ، ونظموا هذا التعاون القومى ، وجعلوه خاضعا للروح العصرى والمدنية الحديثة تماشيا مع احتياجات الزمن الذى نحن فيه . كأن يفرض على كل من الچراكسة القادرين مبلغ يتناسب مع حالته ويهب جزءاً من ملكه للأعمال الخيرية التى تعود على قومه وعشيرته بالفائدة والمنفعة الدائمة .

وتؤسس بتلك الأموال المدارس المجانيه ، وتنشأ العيادات الطبية لاسعاف المرضى ، والمعاهد لحماية اليتامى من ابناء الاديغه وتعليمهم ، واعانة المعوزين ، وايجاد أعمال للعاطلين ، وتشجيع الصناعات الوطنية ، وتعليمهم الصناعات والفنون الحديثة ، وما إلى ذلك من الأعمال العظيمة التى لها أشد ارتباط بحياتنا الاجتماعية وفيها بقاء وخلود لنوعنا الذى أصبح فى احتياج شديد لمثل هذه الدعائم ليرتكز عليها وقاية له من الانهيار والتهدم .

وإذا ما نفذ ذلك يمكن استخدام الاختصاصيين من الأطباء لمكافحة الأمراض التى تسبب موت الكثيرين من الچراكسه فيذهبون ضحيتها لعدم مقاومتها والعناية بهؤلاء المساكين .

وبذلك نكون قطعنا شوطا كبيرا فى المدنية الحديثة كباقى الأمم المتحضرة .

فيجب على كل چركسى قادر أن يفقه ويفهم معنى هذا التعاون القومى الذى يتوقف عليه بقاؤنا ويعمل لتنفيذه بكل قوته ويضيفه الى قانون (الأديغه خابزه) حتى يصبح واجبا قوميا وفرضا دينيا مقدسا يمكننا من إعادة سيرتنا الأولى ونحيى ما اندثر من مجدنا ورفعتنا .

ومن مفاخرهم التي يتغنون بها صيانة العرض والمحافظة على الشرف والكرامة فانهم بلغوا في ذلك شأواً عظيماً لم يضارعهم فيه الكثيرون ولهم في ذلك شعار خالد وقول مأثور : (الأرواح رخيصة فى سبيل الكرامة)

فكل چركسى يضحى بروحه فداء لشرفه ولا يتحمل احتقاراً قطعا ولا يقيم على ضيم قط .

ومن رؤى فيه تهاون فى ذلك يطرد من القبيلة وتنزع من كبير عائلته ألقابه التشريفية ان كان حاملا لاحداها .

وتنظم فى حقه الأغانى الشينة وتتغنى بها فتيات القبيلة أعواما وسنين بل ودهوراً وتصب عليه اللعنات وكلما ذكر اسمه يقرن بالسخرية والازدراء .

* * *

واذا تعمقنا كثيرا فى داخلية الحياة الچركسية نرى أن لكل شيء منها مراسيم خاصة واجبة الاتباع مع الاحترام .

فاستقبال الضيوف، والقيام بواجب خدمتهم مدة اقامتهم، وتوديعهم عند رحيلهم، وآداب ونظام تناول الشاى ، وآداب المجالس فى حضرة الشيوخ والنبلاء ومرافقة هؤلاء فى الطريق ، وعادات حفلات الزواج، وواجبات الزوجين لبعضهما ، وحفلات الاغانى والمراقص ، وترتيب الملابس وتنسيق الأزياء ، وواجبات الفارس عند دخوله وخروجه من القرية ، وآداب المآتم وتشييع الجنازات وحضور العزاء الخ الخ . . . لكل من هذه الاجتماعات مراسيم وقواعد خاصة واجبة التنفيذ بشروط ودقة سيما ما كان خاصا باحترام السيدات وتعظيمهن .

* * *

الزواج هو مسئلة المسائل عند الچراكسة لأنهم ينظرون اليها من الوجهة

الأخلاقية والعمرانية ويقصدون بالزواج تكوين العائلات وحفظها ولا يعددونهن ... !!

ويتخيرون زوجاتهم بعيدا عن ذوى قرباهم . وهم متعصبون فى أمور زواجهم جدا ولهم قيود وشروط شديدة فى ذلك ومن عاداتهم أن لا يتزوجوا ببنات أعمامهم ولا ببنات عماتهم ولا ببنات خالاتهم لاعتبارهن من أفراد عائلة واحدة .

وأهم شروط الزواج أن يكون الزوجان كفئين من جهة النسب ويقدر الصداق بنسبة درجات العائلات ويدفع نقداً أو عيناً (من خيل وبقر وغيرهما وأسلحة) أو كلاهما معاً .

والمغالاة فى زيادة مقدار الصداق يعتبر تشريفاً لصاحبه واعلاء لقدره غير أن الافراط والتفريط فى ذلك كان سبباً فى شقاء كثير من العائلات ومانعاً كبيراً من تكوين العائلة الجديدة ومن المرغوب فيه كثيراً خصوصاً فى زمننا هذا أن يراعوا قواعد الاقتصاد ولا يبالغوا فى مقدار الصداق وأن يرجعوا للسنة الشريفة فى ذلك . وأن يهتموا باختيار أزواج بناتهم من الأكفاء العاملين لأن مثل هؤلاء يجلبون السعادة والرفاهية لبيوتهم أكثر من غيرهم . . . ! !

فاذا تقرر ذلك اسمح لنفسي بلفت نظر حضرات العلماء وكبار الجراكسة وعظمائهم أن يبثوا هذه الفكرة بين قومهم ويكونوا المثال الحسن لهم ليقتدوا بهم ويسهلوا الغاية الشريفة التى وضعت من أجلها سنة الزواج وألا تكون المغالاة فى الصداق سداً وعقبة فى وجه من يروم الزواج ويتسبب من ذلك جملة مضار اجتماعية أهمها قلة النسل .

ومن عادة الاوانس الجركسيات أن لا يحتجبن مادمن غير متزوجات ويخالطن الرجال ويجلسن فى مجالسهم ويرقصن معهم ويشاركن الرجال فى أحوال كثيرة وكل هذا فى دائرة الحشمة والوقار .

ولقد امتاز هذا الشعب الكريم بتلك الميزة المشرفة التى رفعت درجته بين الأمم فكانوا ولا يزالون مضربا للأمثال فى المحافظة على العفة والأعراض ولم يسمع عنهم من

منظر اجتماع أمراء الجراكسة للمداولة وتبادل الرأى أثناء حروبهم للروس فى سنة ١٨٤٨

غير أن تلك الأساليب كانت تسبب لهن أمراضا وأسقاما تذهب أحيانا بأكثرهن الى الموت ولقد فقهن أخيراً الى مضار تلك (الموضات) فأقلعن عنها وتركن حالهن للطبيعة . . . !!

***

وعند مايتم الاتفاق بين الشاب والشابة على الزواج بعد اختبار طويل يتفقان فيما بينهما على الموعد الذى ستذهب فيه الخطيبة الى ديار خاطبها .

وهناك يودعها فى منزل أحد أصدقاء العائلة وتقضى التقاليد أن يذهب صاحب البيت الذى نزلت فيه الفتاة الى والديها لطلب يدها للشاب الذى أحضرها حتى اذا رأى الوالدان أنه كفؤ لبنتهما أجازا الطلب وقبلا النسب والا رفضوا اتمام الزواج وهنا الطامة الكبرى فتقع الواقعة بين العائلتين وتسيل الدماء (وقد تلاشت هذه العادة وأصبح الزواج خاضعا للنظم المصرية حسب الشريعة الاسلامية) .

وتمر كل هذه الأدوار والخطيبان ترفرف عليهما العفة ويحوطهما الشرف من غير أن يدخل بينهما الشيطان .

ومن النادر جداً أن ترى أو تسمع أن چركسيا جمع بين زوجتين أو أكثر . وهذه العادة متأصلة فيهم من زمن بعيد حتى قبل تفشى النصرانية فى بلادهم وحتى بعد ظهور الاسلام وانتشاره فى ربوعهم. ورغم أن الدين الاسلامى يجيز تعدد الزوجات غير أن عادات الچراكسة لم تسمح لهم بالتمتع بهذه السنة . . .

ومن عاداتهم التى لاتقبل جدلا أن الرجل لايقبل مطلقاً سكنى صهره معه فى بيت واحد .

ولا يسمح لنفسه بالدخول لحرمه أثناء النهار ولا الجلوس مع زوجته على طعام بل يتناوله مع ضيوفه أو بمفرده فى المكان الخاص باستقبال الضيوف والزوار .

وعقب الزواج لا يمكن للصهر أن يظهر امام حميه الا بعد مده طويله فى حفلة خاصة لها عاداتها ومراسيمها .

والعادات تقضى أن لا يظهر الطفل الصغير لجده أو لأعمامه حتى ولا لضيوف أبيه الى أن يكبر ويشتد ولا تجالس الزوجة بحضرة قرينها الا اذا أذنها فى ذلك كما أنها لا تذكر اسمه مطلقا فى المجالس الا بأخيكم وصهركم أو نسيبكم كذلك هو لا يذكرها باسمها بل يشير اليها بأختكم .

مركز المرأة فى المجتمع

يجب أن لا يتطرق إلى الأذهان أن المرأة أو الزوجة الجركسية أسيرة البيت سجينة فيه . لا بل الأمر بالعكس فان السيدة الجركسية لها مكانتها فى الهيئة الاجتماعية .

ومن هذه الوجهة فانها سيدة جميع النساء الشرقيات وتتقدمهن فى كثير من الصفات. وأن الجركسيات يشاركن الرجال بآرائهن ويمشن فى بيوتهن معززات مكرمات ينصرفن إلى إدارة الدار وما فيها ويشتغلن بطهى الطعام وخياطة الملابس لأولادهن وبعولتهن ، تلك الملابس الشيقة التى أخذت بمجامع قلوب العالمين لحسنها وجمالها وجلالها .

وبكلمة جامعة فان المرأة الجركسية سيدة بيتها المحترمة المعززة المكرمة بخلاف نساء باقى الأمم الشرقية الأخرى كالاكراد والاتراك والعجم فان نساءهم يشتغلن فى كل الأعمال المرهقة الشاقة بينما أزواجهن متكاسلون لا يهتمون بشئ إلا التسكع من قرية الى أخرى والجلوس فى ظلال الجدران تاركين لزوجاتهم كل الصعاب حتى احتطاب الأخشاب وطلاء المساكن بالجير وما الى ذلك من الأشغال الشاقة تقوم به الزوجات دون حضرات الرجال المتفيئين الظلال .

ومن التقاليد الجركسية أن العروس بعد زفافها لا تكلف بأى خدمة ما لمدة طويلة ربما بلغت بضع سنين تكون فيها موضع احترام سيدات العائلة وسيدات الحى ويقمن

بخدمتها المتطوعات من أترابها وصديقاتها وقريباتها .

والبنت قبل زواجها تعتبر ريحانة الدار وزينتها وقرة عيون والديها . واذا كان لها شقيق فالواجب يفرض عليه أن يتكفل هو بنفسه باستحضار كل مايلزمها من ملابس فاخرة وموسيقى جميلة وكل ما تتطلبه زينتها ويكون دائما فى خدمتها ويعتبر ذلك شرفا عظيما له .

ولا يفوتنا أن نفصح هنا عن أهمية مقام المرأة عندهم التى لها أقدس المقامات، الكاملة الاحترام فى الهيئة الاجتماعية. وقد فاقوا فى ذلك أعظم الدول الأوربية حضارة ورقيا .

فمن العادات الجميلة التى تتجلى فيها شدة احترامهم لنسائهم أنه اذا صادف مرور فارس مهما علت درجته وكبر مقامه فى طريق ورأى سيدة سائرة فعليه أن يترجل ويسير بجانبها ماشيا حتى تأذن له فى استئناف الركوب .

واذا وقعت هذه المصادفة بظاهر القرية فيتعين على الفارس أن يرافق السيدة حتى يوصلها فى أمان الى الخارج .

وان رأى رجل امرأة ولو أَمَةً أمام دارها تكسر حطباً (مثلا) فتحتم عليه المروءة أن يتناول من يدها المِكْسَرَ ويجهز على الحطب ويساعدها فى حمله الى مكانه ولم يسمع عن الچراكسة أن رجلا ضرب امرأته أو سبها بألفاظ قاسية قط .

ومكان السيدة فى المجالس يقدم دائما على الرجال فى المجتمعات ولا يجلس الرجل الا اذا استأذن وأذنت له بذلك السيدة أو الآنسة .

ومكان الأوانس فى الرقص يكون دائماً فى الجهة اليمنى من الرجل المراقص لها ولا تراقص الا من كان من درجتها ومقامها واذا كان الراقصون من الأعيان أو النبلاء فتصدح الموسيقى بنغمات خاصة تناسب المقام مع الاحترام الشديد .

وجرت العادة أن يلاطف الرجل النساء فى كلامه ويحترمهن فى حركاته ويظهر

لهن منتهى الأدب .

***

وقبل أن نختم هذا الباب نرى من الواجب أن نتـكلم قليلا على نشاط الچركسى واجتهاده فى أعماله وأشغاله. وقد قال المؤرخ (شورانوغموقه) فى كتابه أنهم قوم معروفون من القدم بجدهم واجتهادهم. ونجدهم اليوم كذلك مشتغلين بالزراعة وبعض الصناعات الأهليه الخاصة بهم كأدوات الخيل من سروج وسياط والأسلحة الچركسية المشهورة وبعض الحلى المنقوشة وذاك النسيج الصوفى المشهور (صا كوه) كذلك يمارسون التجارة والأخذ والعطاء ليـكتسبوا رزقاً حلالا طيباً .

وقد اشتهروا بتربية الخيل وتجارتها (خصوصاً قبائل القبرداى) غير أنهم للأسف لم يراعوا فيها قواعد التربية الحديثة ولم يتماشوا مع الطرق العصرية .

وبسبب تربية هذه الحيوانات فى العراء قطعانا من غير تهذيب ولا كبح جماح ترى أن الحـكومات التى اعتادت شراءها لجيوشها تجد صعوبات جمة ومصاعب كثيرة فى ترويضها وتعليمها ورغم هذا التذليل والتعليم فانها لاتطيق الوقوف فى الصفوف ولا الخضوع للنظم العسكرية .

ومنشأ ذلك تلك التربية الطليقة التى شبت عليها وكبرت فيها وبسبب هذه الصعوبات رأت قيادة الجيوش الاستغناء عن خيول الچراكسة واتجهت ناحية أخرى .

فنرجو أن يعيروا هـذه الملاحظة اهتماما كبيرا ولا يتركوا هذه التجارة الهامة تفلت من أيديهم وعليهم أن يؤلفوا شركة وطيدة على قواعد عصرية ويبنوا الحظائر والأماكن الصحية وينتخبوا خيلهم من أصول معلومة طيبة ويبـدأوا فى تربيتهم صغارا ولا يلقوا حبالهم على الغارب حتى يسهل تعليمهم كباراً فاذا مافعلوا ذلك فبشرهم ببسطة فى الرزق وأطيب الثمرات .

* * *

والچركسى نظيف بطبعه يفر من الرجس والأوساخ، مغرم بتنسيق داره وتجميلها داخلا وخارجاً . وكم جلبت تلك الدور أنظار الأجانب والسياح بيساطتها ولطافة منظارها وجلالها وجمالها وقد ضربت بديارهم وقراهم الأمثال وكم عضت أقوام أنامل الندم حيث لم يتمكنوا ولن يتمكنوا من تقليدهم ولا السير على أثرهم . . !!

وهاهى قرى الچراكسة قائمة أينما كانت رافعة رءوسها تيهاً وعجباً مغتبطة بما أوتيت من فخر وتفوق على مثيلاتها من الدور والقرى .

ولم يقتصر هذا الشموخ على منازلهم فقط بل تراهم يقتنون أفخر الملابس وأحدث الأزياء ويحبون النكات والمزاح فى دائرة الأدب والاحتشام حتى لاتكون مجالسهم مملة طويلة .

وهم قوم يحبون التفوق على الأقران، كل بمواهبه، فتجدهم فى ذلك كأفراس رهان كل يريد أن يكون له القدح المعلى فى هذا المضمار وهذا الضرب من التعالى مصدره بالطبع تلك النفوس الزكية الطموحة الى المعالى الكامن فيها حب الذات . . . !!

وسنبين فيما يلى أساليب رقصهم ومعانى أغانيهم ومضارب أمثالهم التى تعرف منها مدى نبلهم القومى ومعيار مركزهم فى الحياة الاجتماعية .

لأن الحكم على الأمم والشعوب لايكون الا بعاداتهم وأخلاقهم وبتلك الأغانى التى تنم عن حقيقتهم ونزعاتهم ووجهات نظرهم فى الحياة الاجتماعية .

رابعا

بحث فى عقائد الچراكسة ودياناتهم

إن شعب الأديغة العريق فى القدم الذى يرجع تاريخ وجوده إلى آلاف السنين لم يأت عليه يوم من غير أن يتجه إلى قبلة ويعبد إلها .

فكان يقدس آلهته حسب الأزمان التى مرت عليه ويرعاها بعنايه تامه .

وينقسم هذا الباب إلى ثلاثه أدوار مختلفة

أولا : من عهد الحيثيين (الهيتيت) القدماء لميلاد عيسى عليه السلام .

ثانيا : من ميلاد عيسى عليه السلام إلى الزمن الذى انتشرت فيه النصرانية بين الجراكسة (مع محافظتهم على بعض عقائدهم السابقه النصرانية) .

ثالثا : عهد ظهور الاسلام .

* * *

فالحيثيون كانوا يعبدون الشمس والقمر والهواء وعشترة (الزهرة) وقد عثرت لجنة الآثار الروسية فى سلسلة جبال قفقاسيا الأصلية على معابدوهياكل كثيرة للمعبودة (عشترة) .

أما الهواء (ته شوب) فكانوا يرمزون اليه بشيخ ملتح بيده الواحدة مشعل متعدد الأطراف وبالأخرى (بلطه) وبوسطه زنار به (قامه) ولبس سيفا عادياً .

يقول العلامة مورجان : إن وجود هذه المعبودات والهياكل وهى التى كان يعبدها الهيتيت بسلسلة جبال قفقاسيا الأصلية أى بيلاد الجراكسة وموطنهم دون سواها لدليل آخر على أن الهيتيت أجداد الجراكسة بلا شك ولا نزاع

وكانت هذه المعابد والهياكل منتشرة فى كل بلاد وقرى الأديغه وكانوا يذكرون أسماء آلهتهم فى كتاباتهم ومعاهداتهم حتى فى نقوشهم وصناعاتهم وقد وجدت آثار منقوش عليها مناظر لبعض طقوسهم الدينية .

* * *

يجئ بعد ذلك العهد الذى يبدأ بميلاد عيسى عليه السلام .

ونظراً لأقوال المؤرخين الفرنج واعتمادا على المنقولات الجركسية القديمة فان

هجوم الچراكسة على جيش الجنرال سله بسوف (Slepsof) وقد أبادوه سنة ١٨٤٧

المسيحية لم تدخل بلاد الچراكسة وتنشر فيها إلا فى القرن السادس للميلاد فى عهد الأمبراطورية الرومانية الشرقية وفى زمن الأمبراطور جوستنيان (سنة ٥٢٧ ـ سنة ٥٦٥ م) .

غير أن اليونان سبقوا الرومان قبل هذا التاريخ وأدخلوا معهم النصرانية إلى القوقاز عند ما جاءوه عن طريق البحر الأسود واستعمروا جزءاً منه .

وسنوردفيما يلى أسماءلبعض الآلهة التى كان الچراكسة يعبدونهاقديما قبل المسيحية وأثناءها أيضا وهذه الأسماء مأخوذةمن نفس الآثار الموجودة بقفقاسيا ومما هو عالق بذكرياتهم وأساطيرهم نقلا عن كتاب (شورانو غموقه) وكتاب (جاويد باشا) غير المطبوع :

زَاْيــكُئُوَه تْحَهْ : رب الحرب أو اله السياحة ويقصدون به (على كلامهم) سليمان عليه السلام .

ولَهْ پَصْ : رب الحديد ويرمزون به إلى داود عليه السلام لأنه معتبر عندهم أبا الحدادين من القديم ويقولون ان مهدالحديد ظهر ببلادالأبزاخ .

بَلَهْ وُوصْ : رب الرقص

سَاوْشْرِسْ : رب الزوابع والأنواء

مَارِيسْ سا : رب النحل

يَهْ لَهْ : رب الصواعق

وه زَهْ رمه سْ : رب الجمال

* * *

ومن عاداتهم القديمة التى لم يقلعوا عنها الا أخيراً اكرام أرواح الموتى التى يعتقدون

خلودها وأبديتها فكانوا يولمون الولائم فى أوقات معينة من السنة احتفالا بذكرى موتاهم ويقدمون الطعام لأرواحهم اعتقاداً منهم أنها تحس وتشعر. وتُعرف هذه الولائم باسم (ظى حاچ) .

ويقول هاشم افندى سكرتير المرحوم فرح على باشا الذى كان حاكما على ساحل القوقاز من قبل الدولة العثمانيه ان الچراكسه عبدوا فيما مضى الأشجار الباسقه العظيمه التى كانت تعرف عندهم بـ (قوروش) .

وفى الحقيقه أنهم يعترفون بذلك ويقولون ان قوروش موجودة بقفقاسيا بالمكان المعروف بـ (غواپه) فى قرية (قورده ص چاتق) ببلاد الشاپسيغ وهى قرية صغيرة لاتتجاوز منازلها المائة .

وفى الواقع أنه توجد أشجار عظيمة جداً يزيد عمرها على آلاف السنين فى القوقاز وعبادة هذه الأشجار كانت مألوفة عند اليونانيين كما هى عند الچراكسة .

وكانوا يعقدون مجالسهم ومجتمعاتهم تحت ظلال الأشجار الباسقة فى الفصول التى تسمح لهم بذلك من السنة .

واذا صادفهم نقص فى الرزق أو الأنفس أو الثمرات هرعوا الى معبوداتهم الأشجار وتضرعوا اليها فان لم تستجب أدعيتهم هددوها بالقطع والقلع وان لم تجب بعد ذلك أيضا قطعوها فعلا واختاروا شجرة غيرها معبودة لهم .

ويفعلون بهذه الشجرة كذلك مافعلوه بالأولى اذا أصابتهم مصيبة ولم تدرأها عنهم معبودتهم الجديدة .

يقول السائح الشهير (أوليا شلبى) بمذكراته (غير مطبوعة) عن سياحته ببلاد قفقاسيا سنة ١٠٧٠ هـ . بمنطقة قبيلة (الادامه ى) وصفا للاحتفالات والطقوس الدينية التى كانت تقيمها هذه القبيلة أمام هذه الشجرة المقدسة قديما اعتقادا منهم أن

جبريل عليه السلام أحضرها الى اسكندر الأكبر وأمره بغرسها فى هذا المكان بأمر الله عز وجل قائلا له :

(أهداك ربك هذه الشجرة الطيبة لتغرسها هنا ولتعبد الله تعالى تحتها أنت ومن يجىء بعدك إلى يوم القيامة) .

فأطاع الاسكندر الأمر وحفر الأرض فجاء الخضر عليه السلام وزرع الشجرة بيده .

يقول (أوليا شلبى) يجتمع تحت هذه الشجرة العظيمة فى شهر يوليه من كل سنة فى موسم وفرة ثمرة الكربز مئات الألوف من الناس المختلفى الأجناس واللهجات واللغات من هند وسند وصين وفغفور وروس وتجار الأقاليم السبعة وبأنضمامهم إلى (الاده مه ى) يظلون أربعين يوما بلياليها تحت هذه الشجرة يبيعون ويشترون ويعرضون أفخر أمتعتهم وأحسن صناعاتهم .

ومن كان منهم من عبدة الشجرة يحرقون تحتها شموع العسل ليلا ويقيمون طقوسهم الدينية من عبادة وتقديس .

ومن عاداتهم أن يرشقوا جزع الشجره بقطع من حديد الأسلحة وبقايا نعال الخيل والمسامير وتشاركهم فى هذه العبادة بعض شيوخ قبيلة (النوغاى) .

وإذا ما سألتهم عن سبب هذه العباده الوثنيه أجابوك اننا نتعبد هنا تحت هذه الشجره تنفيذاً لأمر الله الذى أمر به اسكندر الأكبر على يد جبريل عليه السلام .

وإذا قلت لهم ان الله لم يأمر بعبادة هذه الشجره أجابوك نعم نعرف ذلك ولكننا نفعل ما كان آباؤنا يفعلون . . . ! !

وفى عهد (جوستنيان) امبراطور بيزانطه الرومانى انتشرت المسيحية ببلاد الچركس وجاءها كثيرون من الرهبان (شوجن) وأسسوا الكنائس فى جملة نقط

على الجبال وأخذوا فى نشر دين المسيح بين الأهالى وكانوا يسمون كبار الرهبان بـ (شه خنيك) (تاريخ شورانو غموقه)

وأول ما استوطن الرهبان بلاد القبردای فى جهة تبعد أربعة كيلومترات من شمال موقع (نالچيك) الحالية .

وأكثر هؤلاء القسوس كانوا من اليونانيين وكان بينهم أيضا قسوس من اللاتين (الكاثوليك) وعلى يد هؤلاء دخلت بلاد الجراكسة كثير من الصناعات والفنون. ومع مرور الأيام والأزمان ترك هؤلاء القساوسه جنسياتهم ودياناتهم واندمجوا فى الچراكسه وتجركسوا نهائيا واعتنقوا الاسلام وترقى بعضهم إلى مراتب (الورق)

وتوجد للآن بالبلاد آثار قديمة باقيه من العهد المسيحى وعادات من المسيحية سائدة بين الأهالى .

وقد ترى كثيراً من أطلال الكنائس الداثرة قائمة هنا وهناك وتعثر على صلبان من الحجر والحديد بينها الصغير والكبير جداً .

ورغم أن الدين الاسلامى ينهى عن الحداد واتخاذ مظاهر الأحزان فانالچراكسه يلبسون السواد على موتاهم ويقيمون المآتم ولهم فى ذلك عادات مرعية خاصة.

ومن عاداتهم الباقية من النصرانية كشف الرأس عند الدخول على عظيم وعدم تغطيتها مادام فى حضرته ولكن هذه العادة قد زالت الآن تماما .

وعادتهم فى السلام أن يتصافحوا باليد ولهم تعبيرخاص فى تبليغ السلام والتحية للغائب إذيقولون للواسطة : (إنى أضغط على يده).

ولسيدنا عيسى عليه السلام منزلة عظيمة عندهم واحترام مقدس ويعبرون عنه بـ (اوس جرقا) ويعظمون كذلك القديس النصرانى (ايليا) ويعبرون عن الذات الاهيه بـ (بشاحه) الروح الالهية .

آنستان چركسيتان مع شقيقهما بملابسهم الوطنية فى قريتهم

يقول (شوردا نو غموقه) ان الچراكسة كانوا يعبرون عن معبوداتهم قبل النصرانية بكلمة (تحَهْ) وَيَقْصِدُ بذلك أنهم لم يستعيروا هذه الكلمة من اليونانيين وكانوا يضيفون هذه الكلمة على اسم معبودهم أو يسبقونه بها .

ومن بقايا النصرانيه عند الچراكسة أنه فى أول عهدهم بالاسلام كانوا يصومون كالنصارى مرتين فى السنه الأول يسمونه الصيام الكبير والثانى الصيام الصغير .

وكانوا يقدسون يوم الأحد من كل أسبوع ويطلقون عليه اسم (تحه ماف) أى يوم الله .

* * *

وللچراكسة شراب خاص لايدخل فى تعداد المشروبات المسكرة الأفرنكية ويستخرج من الشعير أو الذرة باضافة قليل من العسل .

ويدعى بعضهم أن هذا الشراب من مخلفات النصرانية . غير أن هذا الادعاء يفتقر الى كثير من الصحة خصوصا اذا تحققنا أن هذا الشراب كان معروفا وشائعاً بين الچراكسة من قبل المسيحية بل هو شرابهم القومى القديم الذى لم يشاركهم فيه أحد ليومنا هذا ويسمونه (باخسمه) ولهم فيه أغان منظومة .

ويستعملونه فى مجالسهم وموائدهم واحتفالاتهم ويقدمونه لضيوفهم. ومن العادات أن يشرب (الباخسمه) الشاب أو الرجل المتأهب للسفر أو للحرب قبيل رحيله مع خطيبته أو زوجته أو أصدقائه ولهم فى ذلك أصول غاية فى الدقه وعند ما يمتلى المسافر صهوة جواده وقبل أن يهم بالسير يقدم له قدح من الشراب وعليه أن يشربه حتى الثمالة ويرده بطريقة متفق عليها وكل هذا فى صحة وعافية المسافر مع أحسن التمنيات الطيبة فى سفره وسلامة عودته فائزاً غانماً .

* * *

ومن تقاليدهم القديمة أن لا يتزوج المرء من بنات اعمامه ولا من بنات عماته ولا من بنات خالاته .

ولا حجاب بين الأوانس والرجال مادمن لم يتزوجن ويجالسنهم ويراقصنهم ويختلطن بهم فى دائرة الآداب الخالية من الشوبات . وهذه العادات قديمة عندهم من قبل النصرانيه .

ومن رأى المؤرخين «موردجان» و«شوبان» أن الجراكسه لم يعتنقوا النصرانية بحذافيرها بل أخـذوا منها ما شاءوا وتركوا منها ما لم يوافقهم ولم يتماش مع اخلاقهم وعاداتهم وأمزجتهم .

ويقول بعض مؤرخى الافرنج انه نظرا لما فى الدين المسيحى من بعض التعاليم المغلقة المعقدة التى أشكل على الجراكسه فهمها فانهم لم يتعمقوا كثيراً فى النصرانية بل اكتفوا بتقليد بعض عاداتها التى راقت لهم .

وقد قال المؤرخ (شوبان) ان الجراكسة كانوا يميلون دائماً إلى معتقداتهم الوثنية القديمة رغم انتقالهم إلى المسيحية وكانوا يقيمون بعض تلك المظاهر العالقة بأذهانهم من زمن الجاهليه الأولى كأن يقدموا الضحايا لأرواح الموتى ويطعموا الطعام فى حبهم ويعظموا (لَهْ پَصْ) رب الحديد وأمثاله من الأصنام .

والخلاصة أن هذا العهد كان خليطاً من الوثنية والمسيحية وبعض المبادئ الاسلامية الأولية وكانت العقائد مضطربة متزلزلة غير مستقرة على حال حتى جاء الاسلام ونسخ كل هذه الاضطرابات وبدء نوره ضعيفاً حتى قوى وظهر وشع على أفاق قفقاسيا فدخل الناس فى دين الله أفواجا .

***

بدأ ظهور الاسلام فى القوقاز سنة ٢٢ للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة

منظر من جبال قره شاي

والسلام الموافقة لسنة ٦٠٠ ميلادية على يد مجاهدى العرب الذين جاءوا لجنوب القوقاز وبلاد الكرج وأسسوا حكومة عربية اسلامية ودام حكمهم أربعة قرون .

وأول من آمن بالله وقبل الاسلام دينا أمة الكورج وبعدهم الداغستانيون (اللزكى) ومن ثم سرى الاسلام غربا لبلاد القابرداى ثم لجهات كوبان ثم كان الفضل فى انتشار هذا الدين المبين بين الچراكسه عموماً إلى أمراء القرم الذين دعوا له ونشروه فى طول البلاد وعرضها .

وأخص هؤلاء الأمراء فى خدمة الدين الاسلامى الأمير المعظم (عادل كراى) الذى أحضر العلماء من القرم وبثهم لتعليم الدين وأسس المدارس والمساجد وصاهر القابرطاى وحببهم فى دين الله وانتصر للاسلام فأطاعته القبائل ودخلوا فى دين الله زرافات ووحدانا .

وجاء بعده المرحوم على فرح باشا سنة ١١٩٥ هـ المعين واليا من قبل الدوله العثمانيه وجلب العلماء من الاستانه وبنى المساجد وجعل من (اناپا) عاصمة للولاية (ثغر على البحر الأسود) ومدينة اسلامية ومركزاً رئيسياً للدين الحنيف الاسلامى ومنها انتشر فى عموم القوقاز .

والخلاصة أن الچراكسة عموماً أصبحوا بحمد الله مسلمين متعصبين لدينهم مشهورين بإيمانهم وتقواهم محافظين على السنن والفروض وينظرون إلى اللغة العربية بعين الاعتبار والاحترام ويعتبرونها لغة الدين والأدب ويكتبون بها كتبهم .

وقد نبغ منهم فى العلوم الدينية وظهر منهم من يشار اليهم بالبنان ويلاحظ على الچراكسة عموماً تمسكهم وتعلقهم بالخلافة الاسلامية وارتباطهم الشديد بأهدابها .

خامساً

النظم والأصول الحربية عند الحيثيين

تاريخ الأديفة الحافل بماضيهم المجيد من مدنية ورقى الواضح فيه استعدادهم العظيم لكل ماهو عصرى وحديث لا يخلو كذلك من مآثرهم الحربية وصفاتهم العسكرية التى تجعلنا نقرر هنا أن هذا الشعب لم يخلق الا ليكون أمة حربية .

واذا مارجعنا الى الحيثيين وتتبعنا خططهم الحربية ثم تصفحنا تاريخ انيبال (هنى بعل) واسكندر الكبير وجول سيزار نرى أن هؤلاء الرجال أظهروا براعة فائقة فى فن تعبئة الجيوش وقيادة الحروب الكبرى بحذاقة فنية لامثيل لها .

واذا نظرنا الى تلك الملايين من سكان قفقاسيا وآسيا ومابين النهرين وسوريا وفلسطين التى كانت تتطلب خططاً حربية (وتكتيكات) عسكرية لامكان اخضاعهم وضبطهم وحكمهم وخصوصا أن محاربة المصريين الفراعنة الذين زحفوا بجحافلهم التى لاتقع تحت حصر فى عهد رمسيس الثانى والتى تعتبر من الحروب الفنية العظيمة تحكم أنهم كانوا مالكين لناصية فن تعبئة الجيوش .

وقد مر بنا أن الحيثيين ساروا فى صد الفراعنة حسب الفنون العسكرية وهاجموهم قبل توحيد صفوفهم وقطعوا عليهم خطوط رجعتهم واستدرجوهم بعيدا عن قواعدهم الحربية .

وكروا عليهم فى مواضع ضعفهم وانشأوا الاستحكامات فى مواجهة أعدائهم وعرفوا بشدة الضبط والربط فى صفوفهم وأوجدوا الوحدات الحديثة من مشاة وفرسان وعجلات الحرب فى عسكرهم تحت امرة قواد مهرة بارعين فى فنونهم .

كل ذلك مما يجعلنا نقدر أمة الأديفة حق قدرها ونقرر أن هذا التفوق العسكرى يكون على حدته تاريخا هاما لهذه الأمة .

وهذه الميزة العسكرية ظهرت فى الأديغة منذ الأدوار الأولى من تاريخهم القديم ويلاحظ أن حروبهم بقفقاسيا بعد القرن الأول للميلاد وبعد استيلاء الدون على البلاد كانت هجومية بين القبائل لأنها كانت مستقلة عن بعضها وبحسب نظام القرون الوسطى كان الحكم فيها ارستوقراطيا وجمهوريا .

ولم ترم نتائج هـذه الحروب مطلقا الى التوسع السياسى أو الى فكرة سياسية أخرى بل اقتصرت على الحروب الداخلية بداخل حدود تلك القبائل .

وقـد وصف الكاتب الچركسي (يحيى حالوق بك) فى الجريدة الچركسية (غوازه) التى كانت تصدر بدارالسعادة، الحياةالچركسية الحربية وصفا دقيقاوأسهب فى التكلم عن شجاعة الچراكسة واقدامهم وأن تربيتهم القومية كانت مؤسسة على تلك الصفات العسكرية، وشبههم من تلك الناحية بجمهوريات اثينة واسبارطه الخ (اليونان القديمة) قال : اذا جلسنا الى شيوخ الچراكسة المسنين وسمعنا حكايات وتفاصيل الحروب والوقائع التى حضروها وخاضوا غمارها نسمع منهم ماهو مدون عن اسبارطه اليونانية وحروبها تماما مع أنهم قوم لايعرفون اسبارطة ولم يسمعوا عنها شيئا. فمن هنا يعلم أن التقاليـد والصفات الحربية عنـد الأمتين كانت واحدة ومتفقة تمام الاتفاق حتى فى التفصيلات الدقيقة مثال ذلك :

عند عودة أحد الشبان من حومة الحرب ووصوله لبلده ورؤيته والدته على سطح داره يناديها :

« ياأماه قد ذهبت الى الحرب وها أناذا عائد منها »

فتصيح الأم فى وجهه وتلقى عليه حجراً قائلة :

« اذا كنت ذهبت الى الحرب حقا وشاركت اخوانك صدقا لكنت فى عداد الموتى الآن . اغرب عن وجهى ياجبان » .

فهذه الصفات والأخلاق معروفة عن الچركسيات .

ومن عاداتهم التى تقرب الشبان وتحببهم إلى أمهاتهم وشقيقاتهم وخطيباتهم أن يمتازوا بين اخوانهم بشجاعتهم واقدامهم .

وما كانوا ينالون الفتيات التى يريدون الاقتران بهن الا اذا أتوا أمرا عظيما فى الحرب أو أظهروا شجاعة فائقة يستهدفون فيها للموت وهذا منتهى مايفتخر به الشبان .

ومن عادات الچراكسة أن يلبسوا السواد على موتاهم ويقيموا لهم المآتم ويظهروا الأحزان ولهم فى ذلك تقاليد خاصه .

والتقاليد تحرم على الوالدة والزوجة وأقارب شهيد الحرب لبس السواد عليه واقامة المآتم والظهور بمظهر الحزن حتى أن ذرف الدموع يعد من النقائص القومية التى يعابون عليها .

فيحضرون تشييع الجنازة وهم بملابسهم البيضاء ويشتركون فى كل شيء حتى توديعه فى مقره الأخير بكل هدوء وسكون ينظرون ولا يتكلمون ولا يبكون ... !!

ومن أكبر العار والخزى أن يوصف رجل بالجبن فى الحرب أو فى أى موقف آخر .

فهنا الطامة الكبرى له ولعائلته .

فهذه العائلة يقضى عليها بعدم الخروج من دارها ولا مواجهة الناس ولا الحضور فى المجتمعات حتى ولا السير فى الأسواق .

واذا ماحضر بعض أقاربهم لزيارتهم فى محنتهم تمنوا لهم زوال هذه الشدة بقولهم « بيض الله وجه زوجك » ولا يزول عنه هذا العار ولا يسترد شرفه الا اذا دخل حربا جديدة وأبلى فيها بلاء حسنا أو مات فى احدى المعارك . . . !!

وتقديراً للمجاهدين الأمجاد ورفعة فى شأنهم واعلاء لقدرهم فانهم يحفظون لمن

يأتى عملا خارقا أو يظهر شجاعة نادرة فى سبيل قومه ـ الجميل والثناء والمديح على مر الأيام والسنين وينظمون فى حقه الأشعار ويتغنون بذكره وتذكره النساء والبنات فى أغانيهن وترفع مرتبة عائلته وتكون زوجته موضع احترام الجميع فى المجتمعات .

فهذه الصفات الحربية تخلق مع الچراكسة منذ ولادتهم فيشبون عليها ويتخلقون بها فتكون من سجاياهم الفطرية وهذا هو السر فى بقاء هذه الأمة حية للآن رغم ما انتابها من حروب وفظائع أمام تلك الأمم الكثيرة التى مرت وهاجمت قفقاسيا .

* * *

والچركسى معروف من قديم بأنه صبور جسور مقدام يمضى وقته على ظهر جواده فهو والجواد رفيقان لا يفترقان .

مذكور فى تاريخ (شورا نوغموقه) أن الأمير (جمير غوقه) القابرطاى لما حانت وفاته أوصى أن يدفن ممتطيا صهوة جواده (المحبوب) متقلدا كامل عدته الحربية وفعلا نفذت وصيته ودفن كما أراد . (ص ٩١) وهذه الحقيقة تثبت أن الروح الچركسية وثابة الى الشجاعة ميالة الى العلى فخوره باقدامها وتذليلها الصعاب .

وتتألف قوى الچراكسة الحربيـة من الخيالة والمشاة . ووظيفة الخيالة التعرض والهجوم، أما المشاة فـكانوا مكلفين بالاستيلاء على الاستحكامات وسوق الغنائم وحفظ خطوط الرجعة .

وطريقة حروبهم هى مداهمة أعدائهم ومفاجأتهم (الـكبسة) فلهذا كانوا يسيرون ليلا ويهجمون فجراً ويأخذون العدو على غرة ويشترك المشاة مع الخيالة فى ذلك .

أما أسلحتهم فـكانت عبارة عن القاما والسيف والحراب والقسى والنبال وكانوا فى زمن ما يستعملون القسى والنبال التى تحدث أصواتا هائلة يرعبون بها الأعداء .

ونجد تفاصيل كل ذلك فى أغانيهم القومية .

***

وهم قوم بارعون فى ركوب الخيل والضرب بالسيف على ظهورها . ولما ظهرت الأسلحة النارية برعوا فيها براعة فائقة . ومشهور عنهم أنهم يصيبون المرمى بالبندقية والمسدس وهم على متون جيادهم .

وهذه الجيوب الصغيرة المستطيلة التى نراها على صدور ملابسهم الوطنية كانت خصيصة فى الماضى لوضع طلقة من البارود فى كل منها تسهيلا لاستعمالها وقت اللزوم (فشكايك) وهى تسعة جيوب فى كل ناحية من الصدر .

وقد أصبحت اليوم من علامات الزينة والشاره الفارقه للابسهم . وكانوا يصنعون أسلحتهم الهجومية بنفسهم فى غاية الاتقان والدقة .

وهم مشهورون جداً بعمل السيوف المرهفه والقامات المصقولة ونقشها بالذهب والفضة .

أما الأسلحة النارية فكانوا يحصلون على أنواعها الجيدة من الروسيا والبلاد العثمانية . وكانت تصلهم أيضاً من انكلترا عن طريق البحر . وأكثر الأسلحة الروسية كانت تغتنم اغتناماً .

أما البارود فكانوا يصنعون نوعاً منه بيدهم فى بلادهم ويستوردون أنواعاً أخرى من الخارج وكذلك الرصاص كان يرد اليهم من انكلترا وغيرها .

أما المدافع فلم يستعملوها رغم أنهم شرعوا فى ذلك وجلبوا بعضها بمساعدة بعض تجار الانكليز ولكنهم لم يوفقوا للانتفاع بها

ولقد ساعد الانكليزالجراكسة فى حروبهم الاستقلالية مساعدة تذكر . ففى سنة ١٨٣٦ ساعدهم المثرى الانكليزى (لونج وورث) مساعدة انسانية عظيمة بأن قدم لهم ذخائر حربية كثيرة مجاناً .

وكان (بلاّ) الانكليزى هوأيضاً يحث قبائل الشابسيغ والناتخواج بشمال قفقاسيا على الدفاع عن الوطن ويبث فيهم نار الحمية والأقدام لاستمرارهم فى حروبهم الوطنية

مجاهد چركسي استشهد في الدفاع عن الوطن
وحوله أهله وأقاربه

ضد الروسيا، الأمر الذى حدا بها لاصدار بلاغ تتهم فيه (بَلاَّ) المشار اليه بالجاسوسية وتأمر بالقبض عليه حيا أو ميتا وعينت مبلغاً كبيراً من المال لمن ينفذ ذلك .

وغذاؤهم فى الحروب القديد ونوع يشبه العصيد مصنوع من دقيق مضاف عليه العسل وبعض النباتات (غوميله) .

ففضلا عن قوتها الغذائية العظيمة فانها كانت تبقى مدة طويلة دون أن يتسرب اليها الفساد .

سادسا

الصناعات والأزياء والملابس الجركسية

قد فصلنا فيما سبق عند الكلام عن مدنية الحيثيت ، أجداد الجراكسة ، الفنون والصناعات الجميلة التى كانت تزين مدنيتهم خصوصا براعتهم وتفننهم فى النحت وصقل التماثيل والرسم والحفر فلا داعى للاعادة هنا .

وهاهم اليوم يعثرون على كثير من الآثار القديمة والمصنوعات الأثرية التى يرجع تاريخها الى أيام الحيثيين فى قفقاسيا . من ذلك تماثيل للمعبودة (عشترة) (الزُّهرة) ولبعض الجراكسة البارزين الفاتحين ، ونقوش وكتابات كثيرة كلها تدل على ما كان للقوم من تفوق ومكانة فى تلك الفنون والصناعات .

وعدا هذا فانه من الثابت الأكيد أن الحديد استكشف وصنعت منه المصنوعات لأول مرة فى قفقاسيا وانتشر منها لأوروبا وسائر أنحاء العالم .

ومشهور عن الجراكسة من قديم الزمان اتقانهم للمصنوعات المعدنية كالسيوف و (القامات) والنبال الخ والحلى الذهبية والفضية وقد برعوا فيها وطارت شهرتهم فى البلاد .

ومشهور عنهم أيضا حياكة الأقمشة الصوفية وصناعة (القصب) خصوصا الشريط (والكوردون) وهذه الأعمال تقوم بها النساء والبنات. ولا يقتصر فى صناعتها على الطبقة العادية بل تشترك فى ذلك العائلات الأصيلة والكبيرة وهى الصناعة القومية المحبوبة التى يتحلون بها.

ومن الأدلة على جودة الفكرة الاقتصادية عند الچراكسة أنهم يصنعون كل ما يحتاجون اليه رجالا ونساءاً بأيديهم وبمعرفتهم ويقدرون تلك الصناعات الأهلية المنزلية حق قدرها ولا يقبلون عنها بديلا. فكل الملابس من غطاء الرأس لأخمص القدم: القالباق والملابس والمعاطف والجوارب والأحذية وطقم الخيل والسروج والسياط المعروفة وكل مايلزمهم، يصنعونها بأيديهم ويتفاخرون فى صناعتها بعضهم على بعض.

***

اللباس الچركسى فى مجموعه يصلح أن يكون لباس الرجل بكل معانى الكلمة أو بعبارة أخرى هو أنسب الأزياء للرجل الكامل وفى الوقت نفسه هو الزى الجميل الموافق للفارس الخيال.

„C'est l'uniforme superbe pour uu chevalier"

وهو الآن الزى القومى لعموم سكان القوقاز.

وقد اتخذته الروسيا زيا رسميا لجميع فيالق (القوزاق) بعد أن عدلته تعديلا طفيفا.

ويلبسه كثيرون من أمراء العائلة الامبراطورية الروسية.

ويندر من لا يستعمل الـ (صاكوه [1]) والسوط الچركسى من سكان الولايات العثمانية المتاخمة لبلاد الچراكسة. وقد انتشر استعمال السروج (والقالباق) بتلك الجهات.

---

(١) صاكوه — كلمة چركسية معناها (حرملة) طويلة تغطى الفارس وكفل فرسه

چركسى بملا

أمير چركسى بملابسه الحربية

الزى العام لچراكسة

ولما ألفت الحكومة العثمانية بعض فرق الخيالة من الأكراد ألبستهم الأزياء الجركسية التي وافقتهم تماما واتفقت مع ميولهم.

وقد عُرِفَ القابرطاى من بين اخوانهم بشدة محافظتهم على تقاليدهم القومية وفاقوا القبائل الأخرى فى ابتكار (الموضات) والأزياء الحديثة فصاروا قدوة للآخرين فى ذلك ويضرب بحسن هندامهم الأمثال.

وياحبذا لو تمسكت بقية القبائل بتلك التقاليد ولم يغيروا أزياءهم خصوصا فلا بقوهم فلا يقلدون المحيطين بهم ويفقدون تلك الصفات والفوارق التى تميزهم عن باقى الأمم.

فمن هذه الوجهة نجد انفسنا مدينين لأخواننا القابرطاى الذين يحافظون على أزيائهم وتقاليدهم ويظهرون ويتمسكون بها.

أما صناعاتهم الزراعية فلا تتعدى الجبن المشهور وبعض الصناعات اللبنية الأخرى ومن هذه الناحية فانهم لم يبلغوا درجة يصح السكوت عليها فنرجو أن يأخذوا فى أسباب الترقى والتمشى مع الحديث خصوصا فى هذا الزمن الآلى.

سابعا
الموسيقى والأغانى والرقص عند الجراكسة

قال علماء الاجتماع إن الحكم على أخلاق الأمة ونفسيتها ومدى شعورها بالحياة يكون بأمور كثيرة من أهمها أغانيها وموسيقاها القومية وما إلى ذلك من النواحى الأخرى. فموسيقاها وأغانيها هى مرآة نرى فيها حقيقة القوم مجسمة بما هم عليه من أخلاق عالية ونفوس أبيه أو بالعكس.

فاذا مادققنا وأنعمنا النظر فى أغانى الجراكسة ورقصهم وموسيقاهم نجد أنهم حائزون لصفات راقية مما يجعلنا نحكم لهم بمكانتهم المشرفة بين الأمم وإذا تتبعنا معانى تلك الأغانى نرى أنها خالية مما يتنافى مع الأدب والشرف وكلها تحوم حول أوصاف الفروسية وتحبيذ الأخلاق الشريفة وآداب الحب والمحبة مما يجعلها صالحة للاقتداء بها والسير بموجبها.

أما رقصهم فيختلف كثيرا عن رقص الترك والعرب والأكراد وسائر الشعوب الشرقية ويشبه فى الوقت نفسه رقص الأوربيين تماما. وينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: (١) وبيچ (٢) قافه (٣) چچن. وكل من هذه الأقسام يتفرع فى نفسه إلى جملة أنواع وأوضاع . فالقافه والچچن هما الرقص بين شاب وشابة وجها لوجه . أما الوبيچ فيكون من جملة شبان مع مثلهم من الشابات يرقصون متصافين وجها لوجه أو فى دائرة الخ الخ.

ويدور هذا الرقص على أنغام الموسيقى التى تتولاها عادة شابة من الحاضرات ويتحتم على الرجل الراقص أن يتتبع حركات مراقصته دون ملامسة وينسجم معها بخفة ورشاقة .

ويحيط بالراقصين جمهور المتفرجين من رجال ونساء ويغنون على أنغام الموسيقى وهم يصفقون بنظام خاص، غير أن النساء لا يشتركن فى هذا التصفيق .

وتطلق من آن لآخر طلقات نارية فى الهواء اكراماً وتقديراً للآنسة الراقصة (هذه العادة أصبحت غير مرعية لخطورتها) وإذا دخل حلبة الرقص أحد الأشراف من أبناء (اليشى) تغنى له الأغانى الخاصة بعائلته وتؤدى له المراسيم الخاصة بها ولا يجوز للحاضرين الجلوس ما دام الرقص دائراً ولو دام مدة طويلة .

ويدار عليهم بأكواب الشاى أو شراب (البخسمه) .

وتناط ادارة وتنظيم هذه الحفلات الراقصة برجل اختصاصى فى ذلك يسمى (جه جاكوه تِشَنْ) وتعطى له الهدايا والمكافآت خصوصاً فى الأفراح والليالى الملاح !

ويرجع الفضل فى تربية أجسام الچراكسة ورشاقتهم وخفة حركاتهم رجالا ونساء لهذه الرقصة الوطنية .

وتتجلى فى هذه الاجتماعات الآداب والحشمة والوقار بين الشبان والشابات

وتسطع على رؤسهم أنوار العفة والشرف وتظهر التربية الجركسية الحقة بعظمتها وجلالها .

وتنقسم الأغاني الجركسية إلى قسمين رئيسيين :

(١) (وَرَدْ) وهى الأغانى التى توصف فيها الحياة القومية والوقائع الحربية والحب والخيال والنكات وبعض النوادر المسلية المضحكة وتحتوى أيضاً على تفاصيل الوقائع الحربية القديمة التى يصعد تاريخها إلى زمن الحيثيين كواقعة (ناريتا) التى تعيد الذكريات المحزنة المؤلمة .

وتعتبر هذه الأغانى من الوثائق التاريخية ويحفظها الشيوخ عن ظهر قلب لما فيها من التفصيلات عن أعمال أجدادهم وهى فى الحقيقة تكوّن تاريخهم القديم وتبين أسباب تلك الحروب ومواقعها والذين برزوا فيها بشجاعتهم وقوتهم والذين جبنوا وأظهروا عجزاً وتقصيراً .

وتبحث أيضاً فى نتائج هذه الوقائع وما وصلت اليه فى النهاية . وقد استفاد من هذه الأغانى التاريخية المؤرخ (شورانو غموقه) وترجم بعضها للروسية وأدرجها فى مؤلفه ، الأمر الذى جعل لهذا الكتاب قيمة طيبة .

(٢) (غيبزه) وهذه الأغانى عبارة عن مرثيات لشهداء الحروب والمقتولين قهراً أو الذين قضوا نحبهم فى حب الأوطان . ولا يسع سامعيها إلا التأثر العميق وذرف الدموع والطموح إلى الأخذ بالثأر .

وتغنى هذه الأغانى على حدتها أو مصحوبة بأنغام الوسيقى ، وللموسيقى عندهم جملة ضروب منها الرقيق المنعش للقلوب والمحزن المؤثر وتسمى كلها بشتاله (النوته) .

وينشىء هذه الأغانى قوم اختصاصيون يدعون (جه جوا كؤه) أى الشعراء .

وهذه الأغانى على العموم تقال اما نثراً أو نظماً ، وهى ادبياتهم وحائزة عندهم مقاماً

كبيراً كيف لا وهى حاوية لتاريخهم المجيد العظيم .

يقول (شورانو غموقه) ان الأغانى تضاءلت عند الچراكسة بعد الاسلام اتباعاً لما فيه من النهى عنها .

ولهم آلات موسيقية كثيرة أهمها موسيقى اليد ذات المنفاخ (Accordéon) والكمان ونوع معروف عندهم باسم (بجامى) وهو مزمار يستعمله الرعاة عادة .

وتجد كثيراً من الموسيقى الچركسية مقيدة فى نوتات ومستعملة فى الروسيا وتسمعها فى كثير من محلات الموسيقى هناك (Musique Hall) واننا نأمل فى همة شبابنا المتعلمين أن يتولوا جمع وتدوين أغانينا القومية وربط القصائد الشعرية ووضعها على قواعد وأصول منتظمة لتبقى ذخراً على ممر الدهور واثلا يعبث بها كر العصور .

ثامنا

معارفهم وأمثالهم المأثوره

يتضح مما تقدم أن آسيا الصغرى والقوقاز وما بينهما مدينة للحيثيين أجداد الچراكسة بما نشروه فيها من المبادئ الأولية للمعارف والعلوم فى الأدوار القديمة قبل التاريخ .

غير أن الچراكسة، أحفاد هؤلاء الحيثيين، لم يتقدموا فى هذا المضمار ولم يهتموا له أبداً فظلوا متأخرين .

وإذا رجعنا إلى عهد هيرودوت واسترابون نجد أن بعض القبائل الچركسية القاطنة بساحل البحر الأسود وبالأخص قبائل الأباظة والسيند المعتبرة فخذا من

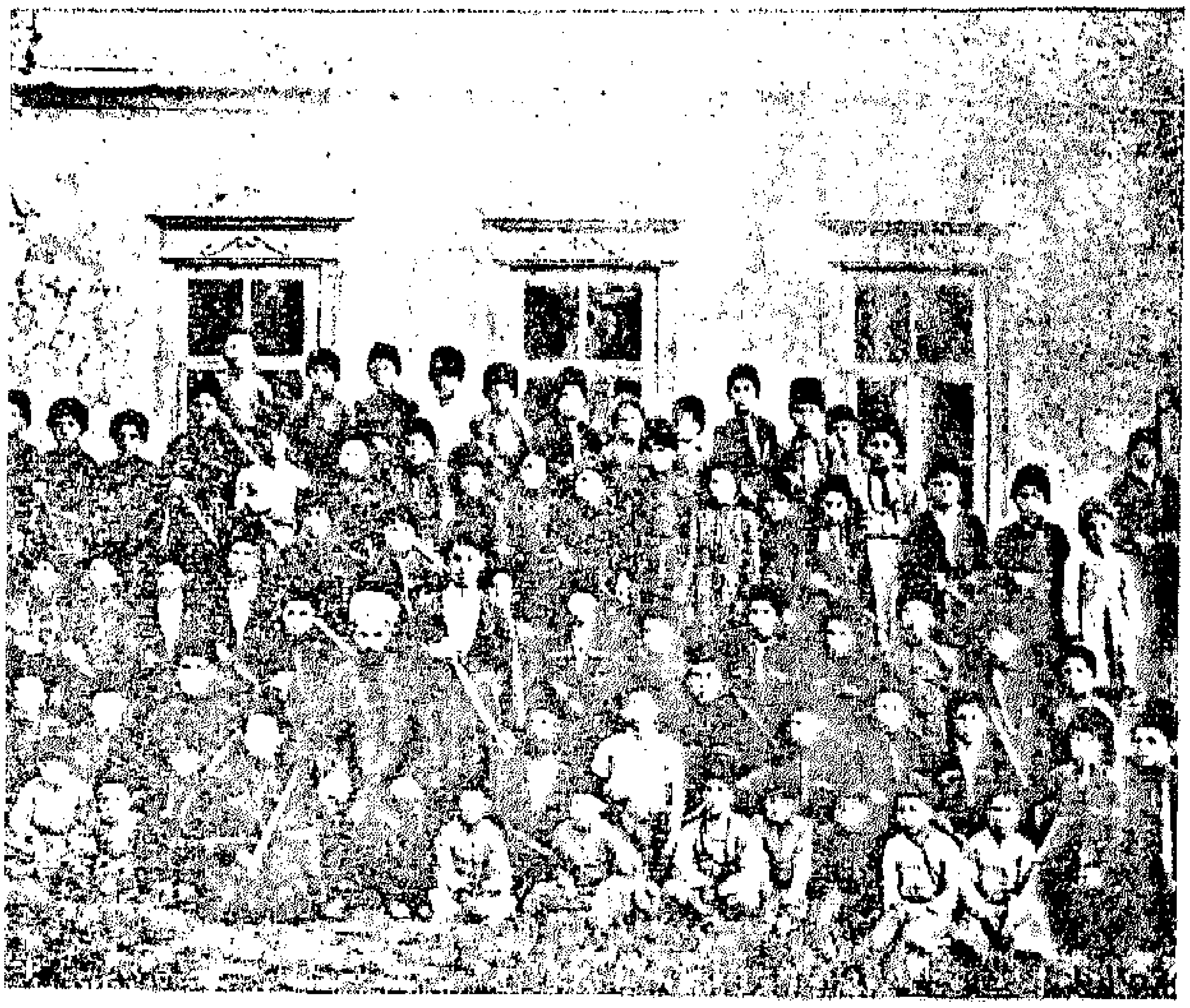

تلامذ مدرسة ابتدائية فى القوقاز

قبيلة ماؤوت من قبائل الشمال ، كانوا غاية فى التمدن مالكين ناصية التجارة بين الشرق والغرب ولهم مراكز مهمة للغاية فى هذا الباب . ولكنهم لم يهتموا بانماء علومهم وترقيتها بل انصرفوا للفروسية والشجاعة التى هى من مزاياهم الفطرية وفضلوها على غيرها من الصفات .

ويظهر لنا من الكتابات التى على الآثار الجركسية المكتوبة بحروف يونانية أن هذه اللغة كانت لغة الجراكسة الراقية الأدبية والتى كانوا يستعملونها فى كتاباتهم .

وبرهانا على أنهم كانوا مشتغلين بالكتابة والقراءة وما إلى ذلك من العلوم أن الأدوات الكتابية لها أسماء فى لغتهم مثلا :

الكتاب والورق والقلم والحبر وفعل كتب وقرأ الخ الخ .

يقول (شورانو غموقه) ان الجراكسة اقتبسوا أسماء السنين والشهور والأيام من اليونانيين وسموها بأسماء بلغتهم حسب ما أوحته لهم طبيعتهم وطبيعة بلادهم :

فالسنة يله س

والشهر مازه

والأسبوع تحاماف أو تحاماخوه

والقرن لئه نبيج أو لئه صنفوه بمعنى حياة الانسان أو أول الموت .

وفى الحقيقة فان الجراكسة من الناس الذين يعمرون كثيراً ومتوسط العمر عندهم مئة سنة وكثيراً مانرى بين شيوخنا المحترمين من فاق المئة ووصل إلى العشرين بعدها ، نساء ورجالا .

وقسموا السنة إلى اثنى عشر شهراً والشهر إلى أربعة أسابيع والأسبوع إلى سبعة أيام ولكل شهر اسم خاص بمعنى خاص يتناسب معه : يسمون

يناير	كانون ثانى	شهر البرد الشديد
فبراير	شباط	شهر الشتاء الأخير أو شهر اللعنة
مارس	مارت	شهر أول الربيع
إبريل	نيسان	شهر الراعى
مايو	مايس	شهر خروج الحيوانات للمراعى
يونيه	حزيران	شهر أول الصيف
يوليه	تموز	شهر الحر الشديد أو الذى تهيج فيه الهوام
أغسطس	أغستس	شهر نضوج الحبوب ووصولها إلى الكمال
سبتمبر	ايلول	شهر الحصاد
أكتوبر	تشرين أول	شهر الدراس (البيدر)
نوفمبر	تشرين ثانى	شهر التخزين
ديسمبر	كانون أول	شهر أول الشتاء

كذلك أسماء أيام الأسبوع لها عندهم معان خاصة :

الاثنين	بْلِشْحَهْ	رأس السبعة الأيام
الثلاثاء	غوبچه	
الأربعاء	به رهٔچه ى	يوم الوقاية وهو يوم مشئوم عندهم لا يشتغلون فيه

الخميس	مَه خُوكْ	اليوم الوسط
الجمعه	مريم	يوم السيدة مريم عليها السلام
السبت	شبت	مأخوذ من اليهود أو (مهفه زاق) اليوم الفرد
الأحد	تحامافه أو تحاماخوه	يوم الله وهو مقدس عندهم

وللاجرام السماوية المهمة أسماء عند الچراكسة مستعملة للآن منها النجمة القطبية (غوازه) يعنى الدليل .

ويهتدون بها ليلا فى سيرهم . وفيهم من يعرف سير النجوم واتجاهاتها ويُعرفون باسم (غوازه) أى الأدلاء وكانوا يهدون القوم فى سيرهم وهجومهم ليلاً .

ومن أساطير الچراكسة الجديرة بالاهتمام من الوجهة التاريخية العبارة الآتية :

« حينما كانت الأرض شعلة من نار متأججة والسماء آخذة فى التكون غارقة فى بحر من الدخان والسديم وبينما كان جبل (بشْتَوْ) (جبل ببلادالقابرطاى) لا يزيد ارتفاعه عن مسكن نملة ونهر كوما (نهر فى شمال القوقاز) يجتازه طفل صغير بقدميه قد قطعت رغم شيخوختى هذه تسع صحارى والمكان الخالى من الانس ووصلت الى (قووه ى كابه) » .

فيؤخذ من هذه الأسطورة على مايظن أن المقصود بذلك هو الزمن الذى ثار فيه الهياج البركانى لجبل البُرْزْ (وهى أرفع قمة فى سلسلة جبال القوقاز) فاذا تقرر ذلك وتوفقنا الى معرفة تاريخ هيجان هذه البراكين نتحقق أنها ثارت فى عهد وجود الچراكسة بتلك الجبال بدليل ورود هذه التلميحات فى أساطيرهم .

بناء عليه بجزم ولا جدال فى ذلك أن وجود الچراكسة بققفاسيا قديم وقديم جداً يصعد الى ماقبل التاريخ والدليل على ذلك أن هيردوت واسترابون لم يذكرا شيئا عن هذه البراكين لأنها تقدمتهما بكثير من العصور .

كذلك لم يعثروا فيما تركه (الارجونوط) الذين غزوا سواحل القوقاز الغربية من خمسة عشر قرنا قبل المسيح على شىء بخصوص هذه البراكين فاذا ماأردنا البحث فى هذا الموضوع جديا نرى أنه من الضرورى الرجوع الى علم طبقات الأرض (Géologie)

* * *

انه لم يقع نظرى للأسف الشديد على بحث أو أى شىء آخر يبحث فى لغتنا الچركسية .

بل يمكن القول ان هذه اللغة لم تدون ولم يعتن بها الا من ثلاثة أرباع قرن فقط ولا أعلم أن أحداً اهتم بها جد الاهتمام .

والذى نعلمه أنه فى سنة ١٨٤٠ وضع المؤرخ الچركسى (شورانوغموقه) حروف الهجاء الچركسية بحروف روسية ومعها كتاب للصرف وعرضها على الموسيو (سه غره ن) عضو المجمع العلمى الروسى ببطرسبورغ ولكن للأسف فان هذا الأثر ضاع قبل أن يطبع ويظهر (وقد جاء ذكر ذلك فى تاريخ شورانوغموقه أيضا صفحة ١٠) .

ومذكور فى تاريخ شورانوغموقه أيضا أن أحد الأجانب المدعو (لوله) وضع كتابا للصرف وقاموسا فى لغة الچراكسة وطبعهما سنة ١٨٤٦ باوديسا .

وفى سنة ١٨٦٠ كتب أحد الچراكسة القابرطاى (حاتوقشوقه) كتابا فى الهجاء الچركسى بحروف روسية وطبعه وقد توجد بعض نسخ من هذا الكتاب

غير أنها فى حكم المفقوده ·

وفى سنة ١٩٠٤ ظهر كتاب فى مبادئ اللغة الچركسية وقاموس (بلهجة القابرطاى: قابرطاى روسى) لواضعه (لوپا يتنسكى) مطبوع فى تفليس وقد انتشر هذا الكتاب بقفقاسيا لدرجة ما. وقد ظهرت جملة كتب صغيرة عن مبادئ هذه اللغة بحروف عربية غير أنها لم تف بالمقصود ولم تبلغ الغاية التى ظهرت لأجلها.

أما الچراكسة المقيمون ضمن أراضى الدولة العثمانية فكان محظوراً عليهم نشر وتعليم لغتهم وكانوا ممنوعين كذلك من تدوين تاريخهم القومى. وفى سنة ١٨٨٥ نشر المرحوم (جاويدباشا) الچركسى عضو جمعية التعاون الچركسية كتيبا عن الحروف الچركسية مطبوعا.

ولما تشكلت الحكومات الدستورية بتركيا أمكن نشر وكتابة لغة الأديغه فى بحبوحة من الحرية. وظهرت جريدة (غوازه) التركية الچركسية وهى تنشر كل مايتعلق بهذه اللغة بحروف تركية وچركسية، وكل مافيه فائدة للأمة الچركسية.

* * *

من البديهى بل من الطبيعى أن الأمثال والحكم انما هى عنوان الأمة ومرآة أخلاقها ومحك روحها ونفسيتها فاذا ماأردنا الحكم على شعب فلنطالع وندقق فى أغانيه وأناشيده ونبحث فى (مضرب أمثاله) وماهو فى حكمه.

فهذه الأمور تكون عادة الواسطة التى نصل بها الى معرفة مدى ماوصلت اليه هذه الأمة فى المدنية من رقى ونهوض. واننا نجد عند أمة (الأديغه) أمثالا وحكما لاعدلها تبرهن على ماللقوم من نفوس عالية أبية ومكارم أخلاق وصفات غاية فى الرقى والنبالة ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل نجدهم تناولوا أيضا فى أمثالهم العدل والتعاون والسعى والكد وما الى ذلك من الاجتماعيات.

وها نحن نورد هنا بعض أمثال القوم من أقوالهم المأثورة وحكمهم الخالدة لتكون مرآة لأخلاق ونفسية هذا الشعب العظيم .

وقد اقتبسناها من كتاب المرحوم (جاويد باشا) المشار اليه آنفا وكتاب الصرف غير المطبوع تأليف (قوده ى بردوقه صالح بك) :

١ ـ لاتعمل سرا مايخجلك عمله جهراً

٢ ـ يضحى بالنفس ليصون الكرامة

٣ ـ لاتفعل بالغير ما لاتريد أن يفعلوه بك

٤ ـ من أنكر أصله وقومه فلا أصل له (من ينكر أصله وقومه فليس بانسان)

٥ ـ من حسنت أخلاقه فلايخش الفقر

٦ ـ الضيف يفدى بالروح

٧ ـ دار لا ضيف فيها ، لا بورك فيها

٨ ـ الحر من ثبت على قوله

٩ ـ من لم يَسِحْ فكأنه لم يولد

١٠ ـ ينضب المعين ويقع مايقال

١١ ـ لاتلد المعزة شاة

١٢ ـ لاتسل مسناً بل سل المجرب

١٣ ـ ان اشتغلت كالعبد أكلت كالسيد

١٤ ـ لاتتعلق بفرع لايحملك ولا تتدخل فى أمر لاتتمه .

١٥ ـ دار لاامرأة فيها كأرض لانبت فيها .

١٦ ـ لاتقتل كلبا فى ماء أنت شاربه ولاتكن فظاً مع من تعاشره

(لاتقتل كلبا فى ماء أنت شاربه ولا تقل قولا جارحاً لامرأة لاتتركها)

١٧ ـ المرأة الدميمة تقرب أجل الرجل (المرأة السوء)
١٨ ـ الصراحة فى القول كقلع العين
١٩ ـ الهزل رسول الجد
٢٠ ـ لاتتأوه تحت السيف
٢١ ـ الصديق الصدوق خير من أخ عقوق
٢٢ ـ لاتعن فتاتك بجلد الدب الذى ليس فى يدك ولا تصارع الدب اعتمادا على قوة رفيقك .
٢٣ ـ الأصالة بالشجاعة والرجولة
٢٤ ـ لاتجعل العبد رديفك فيستولى على سرجك
٢٥ ـ اذا كلفت الصغار بعمل فاذهب بنفسك وراءهم
٢٦ ـ الاتحاد والتعاون يعمر البيت والتحاسد يخربه
٢٧ ـ التوفيق فى العمل لا السرعة فيه
٢٨ ـ اذا انقطع الأمل وقف الجواد
٢٩ ـ أصابع العجلة الدائرة تصل الى الأرض بالدور ، الواحدة تلو الأخرى
٣٠ ـ من مدحك فى وجهك فهو كمن ذمك فى غيبتك
٣١ ـ من يظهر وجه الضرر فى أمر يسأل عنه يشبه مباغتة العدو
٣٢ ـ الخمر محك الرجال .
٣٣ ـ اذا عميت البصائر لم تغن الأبصار
٣٤ ـ من اجتهد أكل القديد
٣٥ ـ تؤكل (الباسته) لأجل الجبن

تاسعا

بحث فى الآثار ببلاد الچراكسة

Archéologie de la Caucasie

ان علماء الآثار قرروا أن صناعة المعادن وجـدت لأول مرة فى الدنيا بقفقاسيا وانتشرت منها ودخلت أوروبا . الا أن هذه النظرية ظلت عند حدها الأدنى ولم تنل حظوة كبرى من البحث والتدقيق مع أن هذا البحث لايخلو من فائدة تاريخية عظيمة لخدمة وتنوير أبحاث المدنية البشرية . ورغم هذه الأهمية كما قدمنا فان الباحث فى هذا الباب لاتزال ناقصة ولم يهتم بها غير العالم الأثرى (ارنست شانتر) الذى ورد اسمه فى مقدمة هـذا الـكتاب وغير اللجنة الأثرية الروسية التى تنشر من آن لآخر نتائج بحثها فى قفقاسيا والتى لها دار للآثار فى مدينة (تفليس) وبه مركز خاص لـكتشفاتها .

وبعد هذه المقدمة سأكتفى بسرد ما ورد فى كتاب مورجان وشورانوغموقه بخصوص الآثار فى بلاد الچراكسة .

يقول مورجان فى تاريخه الجزء الأول :

يلاحظ وجود مقابر كثيرة قديمة (aumulis dolmen) بجهات بلاد الچركس يرجع عهدها الى ماقبل التاريخ كما يلاحظ وجود آلات وعدد حجرية باقية من الدور الحجرى فى البـلاد خصوصا بجوار منطقة (موزدوق) وحوضى نهر كوبان وترك وتنم هذه الآثار عن نفسها بأنها من بقايا أجداد الچراكسة وآثارهم من الزمن السابق للتاريخ المعلوم .

أما صناعة الحديد والبرنز فانه من الثابت أنها من مبتـكرات قفقاسيا ومنها انتشرت فى أوروبا (خصوصا صناعة الحديد) .

أما التعدين فمن المحتمل كثيرا أنه ظهر بقفقاسيا قبل الميلاد بعشرين قرنا بل وقبل ذلك .

ويعتبر القرن الثامن قبل الميلاد عصرا هاما بالنسبة لتاريخ قفقاسيا اذ تأسست فيه مستعمرات كثيرة لليونان على سواحل البحر الأسود فى جهات پانتى قابه ، فاناغوريا ، تاناى ، ديوس كورياس ، فارنيس .

هنا يقول (ارنست شانتر) ان قفقاسيا لم تتأثر مطلقا بمدينة بيزانطه الرومانية لأن مدنية قفقاسيا كانت أقدم من بيزانطه بجملة أجيال. أما مدنية المستعمرين اليونانيين فلم يقتبسوها كذلك من بيزانطه بل أتوا بها من بلاد اليونان القديمة (هكذا يقول) أما أرمينيا القديمة وبلاد جنوب القوقاز فانها لم تستفد من مدنية قفقاسيا الابعد جلاء اسكندر الكبير عنها أى قبل الميلاد ببضعة أجيال .

وقد صنع فى قفقاسيا كثير من الحلى والجوهرات والأوانى الخزفية والصينية وأهم الحلى كانت المناطق (حزام الوسط) الذهبية والفضية .

وكان منقوشا على أكثرها رسم الصليب .

ولا يتطرقن الى الأذهان أن القوم كانوا يرسمونه رمزاً وإشارة للنصرانية لا بل كانوا يضعونه اعتباطا كباقى الأشكال الهندسية . واننا نتحقق صحة هذا القول اذا علمنا أنهم كانوا يرسمون الصليب قبل ظهور المسيحية بمئات السنين .

وقد ظهرت صحة هذه النظرية فى أيامنا هذه وتحققت تماما .

وبسبب ظهور الآستين (الأيرون) الى قفقاسيا فى القرن السابع قد تطورت الصناعات تطوراً مدهشاً وتقدمت تقدما عجيبا لأنهم كانوا صناعاً مهرة .

***

أما الموتى فكانوا يدفنونهم ويدفنون معهم جميع أموالهم ومقتنياتهم الثمينة وأسلحتهم الحربية ويضعون معهم بعض الأغذية .

وقد وجدوا بعضا من هذه الأطعمة فى أطباق من فخار بقبورهم .

وعدا هذا فانهم كانوا يولون الولائم فى حب موتاهم ويوزعون الطعام على أرواحهم ويعدون تلك الموائد بجوار القبور ويتناولون مافيها ضمن أصول ومراسيم خاصة .

ويفهم من ذلك أن القوم كانوا يعتقدون فى أبدية الأرواح وخلودها .

وقد وجدت عظام بشرية وعظام الخراف والخيل والثيران وبقايا من قطع أطباق الخزف على قبور الموتى . الأمر الذى يدل على أنهم كانوا يضحون بالانسان والحيوان لأرواح موتاهم :

أما قبورهم فمختلفة الأشكال مربعة ومستطيلة ومداخلها من جهة الرأس لامن الجنوب .

ومن المحقق أن أسلحتهم لم تتعد القامه والسيف والقوس وأكثرهاشيوعا القامه وقد استعملوا الترس لصد ضربات القامات والسيوف ولكنهم أهملوها ولم يستعملوها فيما بعد .

وقد اكتشفت فى قبورهم القسى والنبال المتعددة الأشكال وأحزمة الوسط التى كانوا يتمنطقون بها . ومن المدهش أن طول النبلة يتروح من مائة وثمانين سنتمترالى مترين . وطرفا القوس كانا فى القديم من حجر الصوان ثم لما ظهر الحديد والبرنز أبدلوهما بهما .

ومن أسلحتهم الدفاعية لبس الزرد وقلنسوة من حديد حتى الخيل كانت لها زرد تقيها شر سلاح الأعداء .

ولم يصادف الأثريون مثل هذه الأسلحة الدفاعية عند الكثيرين من الأمم القديمة التى اكتشفوا آثارها .

والقفقاسيون كانوا يستعملون من قديم أقراطا من الحديد والفضة فى آذانهم وفى شعورهم وأساور من حديد وفضة فى أيديهم وأرجلهم وخواتم فى أصابعهم وكانت

وتربط أطرافها بسيور من الجلد، ثم تطورت الأحوال حتى استبدلت هذه الأحزمة بشدات حديثة (كورسيه) . وقد ذكر هيرودوت تلك الأحزمة وأوصافها فى كتابه

وكان الرجال يدسون بين تلك الأحزمة، المتمنطقين بها، وبين أجسامهم، القامات والسيوف ، ليسهل عليهم حملها والسير بها .

ومن الثابت أن الجراكسة اخترعوا ابرة الخياطة من الحديد والبرونز بمختلف الأحجام واخترعوا أمشاط الشعر واستعملوها لتمشيط وتجميل شعورهم .

من المشاهد فى آثارهم أنهم رسموا النسر والعقاب والتيتل (الأ يل) والحصان والكلب والخلوف والثور والانسان . غير أن الانسان كان يمثل دائما من غير رأس اعتقاداً منهم بأن دينهم يمنع ذلك . وفعلا لم ير فى « طاش مناره » (المنارة الحجرية المعدودة أولى الآثار المدنية الجراكسة) و(الضولمن dolmen) آثار لتماثيل انسانية ولا حيوانية .

(وقياساً على أن الاسلام ينهى عن الصور والتماثيل فان مورجان يستنتج أن عدم تمثيل الرأس الانسانية عند الجراكسة ربما يرجع الى اعتقاد دينى قديم ص ١٦٥) .

وكان قفقاسيو الجنوب يستعملون الأوزان فى معاملاتهم وهذه الأوزان مأخوذة عن (نينوا) عاصمة الأشوريين بالعراق .

أما النقود التى استعملوها فكانت القطع التى سكها (هرقل) سنة ٦٢٤ ميلادية ثم نقود بيزانطه، ثم الدراهم الكوفية التى جلبها المجاهدون العرب، ثم بعد ذلك النقود الوطنية التى سكها ملك الكورجيين .

يقول « شورانوغموقه » فى هذا الوضوع مايأتى .

لاتوجد ببلاد الچراكسة قلاع ولا آثار باقية من منشآتهم لأنهم قوم حافظوا على كيانهم ووجودهم بحميتهم وشجاعتهم وبتلك القلوب الكبيرة التي كانت مؤلفة بينهم. والچركسي في ذاته ونفسه قلعة وسد منيع في وجه عدوه. فلهذا بقوا طوال هذه السنين صامدين لأعدائهم المددين المغيرين عليهم من كل فج عميق .

فكان اعتمادهم في دفاعهم على قوتهم المعنوية وعلى نفوسهم الحية الفتية التي أغنتهم عن القلاع الحقيقية، وقد اعترف مورجان بأن الروس لم يلاقوا صلابة ولا شدة من شعوب قفقاسيا الا من الچراكسة فقط وقد ذاقوا منهم الأمرين ولم يستولوا على بلادهم الا بعد أن هاجروا منها وقد كلفهم ذلك الشيء الكثير .

وتوجد بقايا لبعض الحصون والقلاع بجهات (انجرمان) بالقرب من (سيواستپول) في شبه جزيرة القرم من آثار القبرطاي ومعروفة الان بقلاع الچراكسة ، وهي تلك القلاع التي بناها القبرطاي أثناء حكمهم تلك الأصقاع حوالي القرن السادس للميلاد .

وتوجد أيضا بعض آثار لحصون بالية فيما بين نهرى (چچم) و(باقسان) لم يبق منها سوى خنادقها وبعض من أسوارها الدارسة . ويرجع تاريخ بناء هذه الحصون للكيمريين الأقدمين.

وعدا ذلك فانه توجد بجبال بلاد الچراكسة خرابات للمعابد التي أسسها قساوسة اليونان في عهد النصرانية ويستدل على ذلك من الصلبان التي وجدت بها .

ويوجد أيضا أثران مهمان من بقايا هذه المعابد في جهات مجرى نهر كوبان الاعلى.

كما وانه توجد آثار لمنازل كثيرة مبنية من حجر الجير في المناطق التي بين مجرى كوبان الأصلي وروافده المعروفة باسم (تبردا) وأهم هذه المنازل ماهو معروف عند الچراكسة بـ (شي وونه) ومعناها بيت الخيل، وتظهر فيه حقيقة آثار المذاود وأمكنة العلف .

ومكان آخر مشهور باسم (حاسامى وا) ومعناها المكان الذى لا يهدم ولا يخرّ
ومن آثاره التى لم يبق منها سوى بعض الخرابات، بيوت بجهات مجارى (زلنجوق) الآخذة من (كوبان) وكانت مخصصة لسكنى الرؤساء الروحانيين .

ويوجد بشمال المنطقة التى يتصل فيه مجرى (ملقا) بنهر (تَرَكْ) المعروفة عند القبرطاى باسم (چولات) آثار لبعض الأماكن المقدسة التى كان الچراكسة يحترمونها ، وينذرون لها النذور، ويتعاهدون فيها على عظائم الأمور ، ويتصالح فيها المتخاصمون على المودة والاخاء .

ومن الآثار الشهيرة بجهة نهر (ملقا) بقايا مدينة كبيرة تعرف بأسماء كثيرة (مقالقانا ـ بالخ ـ بالق) والمظنون أنها (بالق) لأنه ثابت أن بالق كانت مدينة زاهرة يسكنها القبرطاى ، وقد ورد ذكرها فى أشعارهم ومراثيهم (غِبزه) .

ومن الآثار المهمة بقايا لمدينة عظيمة قديمة كانت تعرف باسم (برغوسانت) الواقعة بالساحل الأيمن لنهر (پود قوميق) ، مصب نهر كوما ، وقد عثروا فيها على صلبان ومصنوعات من الحديد والمعادن الأخرى. وكان لهذه المدينة هضبتان صناعيتان محاطتان بسور عظيم يصعد الى أعلاها بمدرجات .

يقول «شورانوغموقه» ان كلة (برغو سانت) معناها بالچركسى القديم (محل اجتماع كثير من الأنت) . أما الروسيون فيسمون هذا المكان ببلاد البُرغوس والنارت .

وفى (برغو سانت) هذه ، عين ماء جارية كان لها مقام مقدس عند قبائل النارت فى قديم الزمان. وكان القوم يسمونها (پسناج) أى العين المباركة. وعندما كان رؤساء النارت يردونها كانت لهم مراسيم لابد من ايفائها .

أما اليوم فان مياه تلك العين مشهورة جدا بالروسيا وتحمل اليها فى قوارير وتباع فيها على أنها من أحسن مياه قفقاسيا المعدنية وتعرف باسم (نارسانا)
Eaux minérales Narsana

الفصل التاسع

تاريخ قبائل الچچن والـكرجى والقوموق

هذه القبائل تعتبر من شعوب قفقاسيا القديمة جداً . ولـكل منها تاريخ مجيد منقوش فى صفحات تلك البلاد الخالدة . وسنفرد هنا نبذة مجملة عن هؤلاء الأقوام تتميما لتاريخ قفقاسيا الذى نحن بصدده .

وأرجو أن يوفقنى المولى القدير لاستئناف البحث فى هذا الموضوع بتوسع وتطويل عند ما تسمح الظروف فى المستقبل انشاء الله .

الچچن

تحد بلاد الچچن شمالا وغربا بنهر تَرَكْ ومجاهل (ستيب steppes) قاچقالين وبلاد القبرطاى، وجنوباً بجبل (أَنْدِى) وسلسلة جبال القوقاز ، وشرقاً يفصلها عن بلاد الداغستان نهر (اق طاش) .

ونهر (سونجا) الآخذ من نهر (تَرَكْ) يقسم بلاد الچچن إلى قسمين :

بلاد الچچن الـكبرى أو الشمالية ، وبلاد الچچن الصغرى أو الجنوبية .

والچچن يمتون أصلا وعرقا للجراكسة خصوصاً وأنهم من القبائل الچركسية القديمة ويعتبرون من أهل قفقاسيا الأقدمين .

ويطلقون على أنفسهم اسم (ناخ جو) أو (ناخ‌تسو) ـ ويقولون أنهم من سلالة (طوربيل) الذى يعد أعظم رجل عندهم

ولهذا السبب تسموا أيضاً : (ناخچلى) التى معناها (اللة) بلغتهم .

والنزجى والقوموق يسمون الچچن (ميس جه غام) والـكرج يسمونهم (بَكِسْت). والچركس والروس يسمونهم (چچن) .

يقول الچچن فى أساطيرهم ان أبا جدهم (ناخ تسو) المدعو (على عرب) قدم قفقاسيا من دمشق الشام بسوريا فى وقت لا يمكن تحديده بالضبط لقدمه المتناهى .

وبناء على هذه النظرية فان بعض مؤلفى الافرنج يرجحون أن ورود الچچن إلى قفقاسيا كان عن طريق الجنوب وليس عن طريق سيبريا من آسيا الشمالية ، وبعبارة أخرى فانهم حضروا ضمن الأقوام التى جاءت مع الحيثيين من آسيا الصغرى قبل الميلاد بعشرين أو ثلاثين قرناً .

أما اعتقادهم بأنهم من نسل عربى فهو خطأ بيّن . ومصدره الأسباب التى بيناها وهى نفس الأسباب التى تذرع بها الچراكسة وأثبتنا عدم صحتها وشرحناها شرحاً وافياً .

ومع ذلك فان ادعاءهم هذا لما يساعد كثيراً على صحة وشدة علاقتهم مع الحيثيين وينفى عنهم أصولهم العربية .

* * *

ومن رأيى أن الچچن ينحدرون من قوم (طوربيل) الذين ذكرهم هيرودوت بأنهم من قبائل الچراكسة التى كانت تسكن سواحل بحر قزبين الشرقية وجاء عليها زمن هاجرت فيه إلى شرق قفقاسيا .

فمثل هؤلاء كمثل (التوشى) المشتقين من قوم (الدوسق) الذين أصلهم من قبيلة (مؤت) الچركسية التى رحلت من شواطئ بحر أزوف إلى وسط قفقاسيا واستوطنت فيه وبمرور الزمن تغيرت أحوالهم بل وتبدلت لغتهم .

ومثلهم كذلك كمثل القبرطاى الذين استوطنوا قديماً جهات مصب نهر كوبان وشواطئ بحر أزوف الغربية حتى شبه جزيرة القرم ثم رحلوا نهائياً عن كل تلك المناطق وسكنوا بجوار مجارى نهر تَرَكْ .

فهذه التقلبات التى طرأت على القبائل المار ذكرها طرأت أيضاً على الچچن الذين يمتون بأصولهم للچراكسة فرحلوا وهجروا بلادهم الأصلية التى كانت ضمن بلاد الچراكسة واستوطنوا بلادهم الحالية .

وهم يتاخمون القبرطاى من جهة واحدة فقط . وبسبب عدم اختلاطهم باخوانهم الچراكسة وبعدهم عنهم تغيرت لهجتهم تماماً أو كادت .

ورغم هذا فانه يوجد بينهم كثيرون يتكلمون لغة الأديغه . وعدا ذلك فان عاداتهم وتقاليدهم وطباعهم وأزياءهم كلها چركسية . ولا يمكن أن يقال عنهم انهم ليسوا بچراكسة . وهم يفتخرون ويتباهون بچركسيتهم .

واذا بحثنا من الوجهة العلمية، وتتبعنا نظريات علماء الانسال فى إثبات أصل الأمم ، نرى أن العلماء لا يستندون دائما فى بحوثهم على لغة القوم الذين يريدون التحرى عنهم والوصول الى حقيقة منابتهم. لأنه من الثابت الآن علميا أنه توجد أمم كثيرة بقيت عائشة فى وسط أمم أخرى تختلف عنها سلالة وعرقا ، وبتأثير هذا الاختلاط فقدت لغتها الأصلية ، مثال ذلك الأمة البلغارية . فان قسما عظيما من البلغار أصبحوا صقالبة بعد أن كانوا أترا كا وفقدوا لغتهم التركية وتغلبت عليهم الصقلبية وصاروا كما نراهم الآن ، رغم تركيتهم الأصلية . فلهذه الأسباب وقياساً على ذلك ، فان الچچين رغم اختلاف لغتهم فانهم لا يزالون چراكسة .

***

وهم قوم (حسب وصف الروسيين) ، رجالا ونساء، غاية فى الجمال والرشاقة، طوال

الأجسام، سريعو الخاطر، حاضرو الجواب، أذكياء، مرحون. وقد لقبهم الروسيون بـ(فرنساويي القوقاز) .

وهم شديدو المراس، حديدو المزاج، سريعو الاحساس، وربما كانوا في بعض الأحيين خشنين زيادة على المطلوب . وأما من جهة شجاعتهم وفروسيتهم فانهم من أشجع أمم قفقاسيا قاطبة وكانوا من أشد خصوم الروسيا في الحروب الأخيرة .

وأزياؤهم ولباسهم وأسلحتهم هي بعينها أزياء ولباس وسلاح الچراكسة خصوصا القاما فانها سلاحهم المحبوب الذي لا يفارقونه أبداً .

وينقسمون الى ثلاثة أقسام كبيرة :

(١) الچچين (٢) الاينفوس (٣) السكيست .

وهم مسلمون ويبلغ عددهم ٣٥٠ ألفاً .

تاريخ ـ الداغستان واللزجي

تنقسم بلاد الداغستان الى منطقتين : منطقة الجبل ومنطقة السهل . ويقسّمها البعض الى ثلاثة أقسام :

(١) قسم الشمال ـ وتتكون من مقاطعتي (شامخال) و(ماتوخه) .

(٢) قسم الوسط ـ وتتكون من قبائل (تاركين) المتحدة وامارات (قوموق) الغزاة و (تاباساران) و(قره قايتاق) .

(٣) قسم الجنوب ـ ويتكون من امارة (قوربين) ومنطقة (قوبين) .

بحث في أصول القبائل الداغستانية

البلاد الداغستانية تشمل المناطق الشرقية لقفقاسيا جمعاء . وهي بلاد منيعة حصينة بطبيعتها، حصينة بقوة أهلها وغيرتهم الوطنية، واليهم يرجع الفضل في قهر وعرقلة سير

الغزاة الفاتحين النازحين من آسيا. وقد كافحوا وحافظوا على استقلالهم وبقائهم بشجاعة وبسالة لا مزيد عليها ونالوا بذلك أفخر الشرف وأسمى الدرجات، وقد استماتوا وحاربوا ودافعوا دفاع الأبطال أمام الممر المشهور (دربند [1]) وهو أهم المنافذ لقفقاسيا الشمالية بين سلسلة جبالها ومنه نفذ نور الاسلام وانتشر فى جميع جهاتها .

ولهم فخر الأولوية فى اعلان الجهاد ضد الروسيا وضم باقى القبائل وتوحيد الصفوف لصد الغارات والهجمات عن الوطن المقدس .

وقد كتبوا تاريخهم بسبب هذه الصفات العالية بحروف من نور ، وهم قوم يغلى بين جوانحهم حب بلادهم ولا يفضلون شيئاً عنها ، وهم شديدو التمسك بعضهم يشد بعضهم ازر بعض كالبنيان المرصوص ، وقد ساعدتهم هذه الميزات فى الظروف الحاضرة وجعلت لهم مركزاً هاما فى سياسة القوقاز .

ولم يتمكن علماء التاريخ الأجانب من دخول البلاد والسير خلال الديار بسهولة شاملة، حتى الروس أنفسهم لم يتمكنوا يوما ما من التجوال فيها بحرية وأمان. فلذلك لم يهتدوا تماماً لتفاصيل وافية تجعلهم يكتبون شيئا عن منشأ وتاريخ ولغة الداغستانيين ولم يتمكنوا من بحث عاداتهم وأحوالهم الاجتماعية وآثارهم الى ماهنالك من المعلومات الأولية اللازمة لوضع تاريخ شامل كامل عنهم ، فاختصروا الطريق وبنوا معلوماتهم على الظن والتخمين .

---

(١) عاصمة الداغستان هى الدربند ويقال لها دربند شروان نسبة إلى أنو شروان ملك الفرس ويقال لها كذلك الباب أوباب الأبواب ، واليها ينتهى الجبل المعروف باسم طبرسران والذى يسميه الأفرنج (Tabasséran) وهذا الجبل ينتهى عند مدينة الدربند ويمتد لسان منه فى البحر فيترك بينه وبين الشاطئ الجبلى ممراً ضيقا جداً هو الذى أطلق عليه (باب الأبواب) وسميت به المدينة ذاتها وكان معروفا فى الأزمان القديمة (بالأبواب الألبانيه) وهو واحد من الممرات الأربعة التى تشق جبال بلاد القوقاز بين اصقاعها الشمالية واصقاعها الجنوبية . ويسميه الاتراك (دمير قبو) أى باب الحديد .

وبناء على ماتقدم ولعدم وجود مآخذ يصح الاعتماد عليها فقد اضطررت الى أن أستقى معلوماتى عنهم من المباحث الأفرنكية التى لاتفى بالمرام .

يقولون ان أهالى الداغستان خليط من جملة أجناس وسلالات فمنهم الطورانى والهندى والأوروبى ولغتهم متعددة اللهجات يختلف بعضها عن بعض ولكل واد ومنطقة لهجة خاصة بأهلها .

وذكر شيخ المؤرخين هيرودوت فى كتابه ، قبيلة (جيلون Gelon) ببلاد الداغستان . ووجدت أسماء (جيلى Gêlé) و (ليجى Légé) فى مذكرات القائد الرومانى (پومپيه ـ Pompei) الذى دخل الداغستان فى القرن الأول قبل الميلاد واحتل جنوب قفقاسيا .

وقد عزز (سترابون) وجود هاتين القبيلتين بالداغستان وأضاف أنهما من سلالة واحدة ويمت بعضهما لبعض .

وجاء بعدهم مؤرخو اللاتين وعرفوا قبيلة ليجى باسم (ليجئى ـ Legeie) . ومن هنا يتضح لنا منشأ اسمهم القومى (ليزجى) .

ومن رأى سترابون أن هؤلاء اللزجى هم أحفاد قبائل السات والسكيت الذين استولوا على قفقاسيا وأوروبا فى القرن التاسع قبل الميلاد .

أما مورجان فيظن أن (اللزجى) جاءوا قفقاسيا فى المدة المنحصرة بين القرنين الأول والخامس بعد المسيح ورغم هذا الظن فانه لم يجزم به تماما ولم يبت أيضا فى أن لغتهم المختلفة اللهجات أنها من لغات قفقاسيا .

وبعض قبائل الداغستان لم ترد الى جهات قفقاسيا الا فى القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد أو فيما بعد ذلك . وأهم هذه القبائل قبيلة (الآوار) وهذه القبيلة (حسب اعتقادى) هى حفيدة الآواريين الذين استولوا على القوقاز ثم انتقلوا الى أوروبا

ويعتون سلالة الى الطورانيين .

وقبيلة الأوار هـذه كانت مستقلة بذاتها لها أميرها ولم تخضع فى بادئ الأمر لحكومة الشيخ شامل وبقيت هكذا مدة طويلة .

أما «شورانوغموته» فيقول انه عقب انقراض حكومة الخزر سنة ١٠١٦ ميلادية (أو بعبارة أخرى حكومة الجر) التى كانت موجودة قديماً فى منابع نهر (الدون) انقسم القوم الى فرق :

سار فريق منهم الى جهات جبال الأورال بعد أن كان مقيما بسواحل نهر كوما .

وسار فريق آخر الى جهات جبال (ناغورنى) الكائنة ببلاد داغستان وتحصن فيها ، وهذا الفريق يعرف اليوم هناك باسم (اندى) .

وذهب فريق ثالث الى قبائل (ديغور) المتاخمة لبلاد القبرطاى وسكن معها .

وقبائل (الاندى) هى التى تكون أكثرية السكان الدغستانيين اليوم ويعرفون كباقى أهالى البلاد باسم (اللازجى) .

وقد اتفق المؤرخون على أن (الآواريين) و (الاندى) من أرومة واحدة وأنهما متفرعان من سلالة أصلها واحد .

وشورانو غموقه يخالف مورجان فى نظريته القائلة بأن اللزجى جاءوا ققفاسيا فيما بين القرنين الأول والخامس للميلاد ، ويقول انهم وردوه عقب انقراض حكومة الخزر فى القرن العاشر الميلاد

ومن رأيى أن النظرية الأخيرة هى الأصح ....!!

وإذا رجعنا إلى مباحث هيردروت واسترابون نرى أن اللازجى أقدم بكثير من قبائل (الأواريين) و (الاندى) وأنهم من سكان وأهالى ققفاسيا الأقدمين .

ومع ذلك فان بعض القبائل الداغستانية كـ(الألبانيين) الذين انحدر منها (التابال)

(والاوُرْ آرْطوُ) فانهم من بقايا أقدموأ كبرالقبائل القفقاسية (وقد بينت ذلك بصحيفة ٢٥ بالكتاب)

وكان (للزجى) فى القرن الأول قبل الميلاد (فى عهد پومپى) جيش عظيم مؤلف من مائة ألف مقاتل تقريبا وكانت لهم حكومة تعنى بشؤونهم

وإذا نظرنا إلى أزيائهم وأسلحتهم خصوصا (القامه ـ هذا السلاح الخاص بأهالى قفقاسيا) وعقائدهم وترتيباتهم العسكرية وأوصاف تكوينهم وعاداتهم الخ نحكم أنهم قفقاسيون. وهم يمتون الى الكورج والچراكسة من قديم الزمن برابطة عرقية .

ومما لاشك فيه حسب بيانات ونظريات المؤرخين أن اللزجى لجؤا الى جبال قفقاسيا وبلاد الداغستان وتحصنوا فيها .

ويقول مؤرخو الروس أن قوم (أودين) الذين هم فرع من قبائل (قورين) المعدودة من اللزجى والذين يقطنون جهات (نوحا) بقفقاسيا ، ماهم الامن بقايا الألبانيين القدماء ويبلغ عددهم اليوم ١٠٫٠٠٠ .

يقول مورجان ان بلاد الداغستان لاتزال تحتوى لغاية الآن على بقايا من قبائل القاپسيين والألبانيين والتاليش المعدودين من أهالى وأقوام قفقاسيا الأقدمين .

ويظن هيرودوت كذلك أن بقية أخرى من (الچيلون Gélon) التى يرجع تاريخها الى القرن الرابع قبل الميلاد موجودة بالبلاد .

وعلى كل حال فان قوم (اللزجى ـ Leges) من سكان قفقاسيا الأصليين ومن المحتمل أن لغتهم كذلك من اللغات القفقاسية .

واذا وجد بعض الشك فى هذا ، أو فى أن بعض الأمم وردت لقفقاسيا قبل غيرها من الأمم أو بعدها ، وأشكل أمر البت فى أصل هذه الأمم أو لغتهم أو ماشا كل ذلك

من المباحث الفنية، فلنتركها للمستقبل الذى سيكشف جلية هذه الأمور .

* * *

يدين الداغستانيون بالاسلام . وهم متمسكون بدينهم كثيرو الايمان والتقوى ومعروفون بشجاعتهم واقدامهم بين شعوب الأرض .

وأكبر الفضل والفخر فى مقاومة الروسيا طوال مدة قرن تقريبا يرجع اليهم حيث قادوا القفقاسيين ضدها فى عهد المرحوم الأمير الشيخ شامل وقبله .

وهذا البطل الغيور لم يكن محاربا فحسب، بل كان حكيما مشرعاً وحاكما مدبراً وقائداً قادراً،وفوق ذلك كان امام الموحدين القفقاسيين وأميرهم وهو الذى نشر ورفع لواء الاسلام فى تلك الجهات ودافع عن الاسلام والمسلمين أمام الروسيا وله معها مواقف مشرفة ومصادمات معروفة .

ومثله من هذه الوجهة كمثل صلاح الدين الأيوبى رافع لواء الاسلام فى الحروب الصليبية ــ وهو القائل « قفقاسيا للقفقاسيين » كما قال من قبله أمير القبرطاى بسلان بك : (قفقاسيا . . . يجب أن تكون امارة واحدة) .

والأمير شامل هو الذى وضع دستورا للبلاد وتوصل بحزمه وحنكته الى تطبيقه وتنفيذه . وقد اعترف الروسيون أنفسهم بأنه تمكن من تنفيذ هذا الدستور على الوجه الأكمل وفى دائرة العدل والشرف .

رحمه الله رحمة واسعة . . . !!

ورغم ضم بلادهم الى الروسيا فان الداغستانيين لايزالون يصبون الى اليوم الذى ينالون فيه استقلالهم وينفضون عنهم الاحتلال الروسى . وهذا الروح كمين فى جوانحهم . . . !!

ويقاومون بقدر المستطاع رغبة الروسيا فى إسكان المهاجرين الروس فى بلادهم

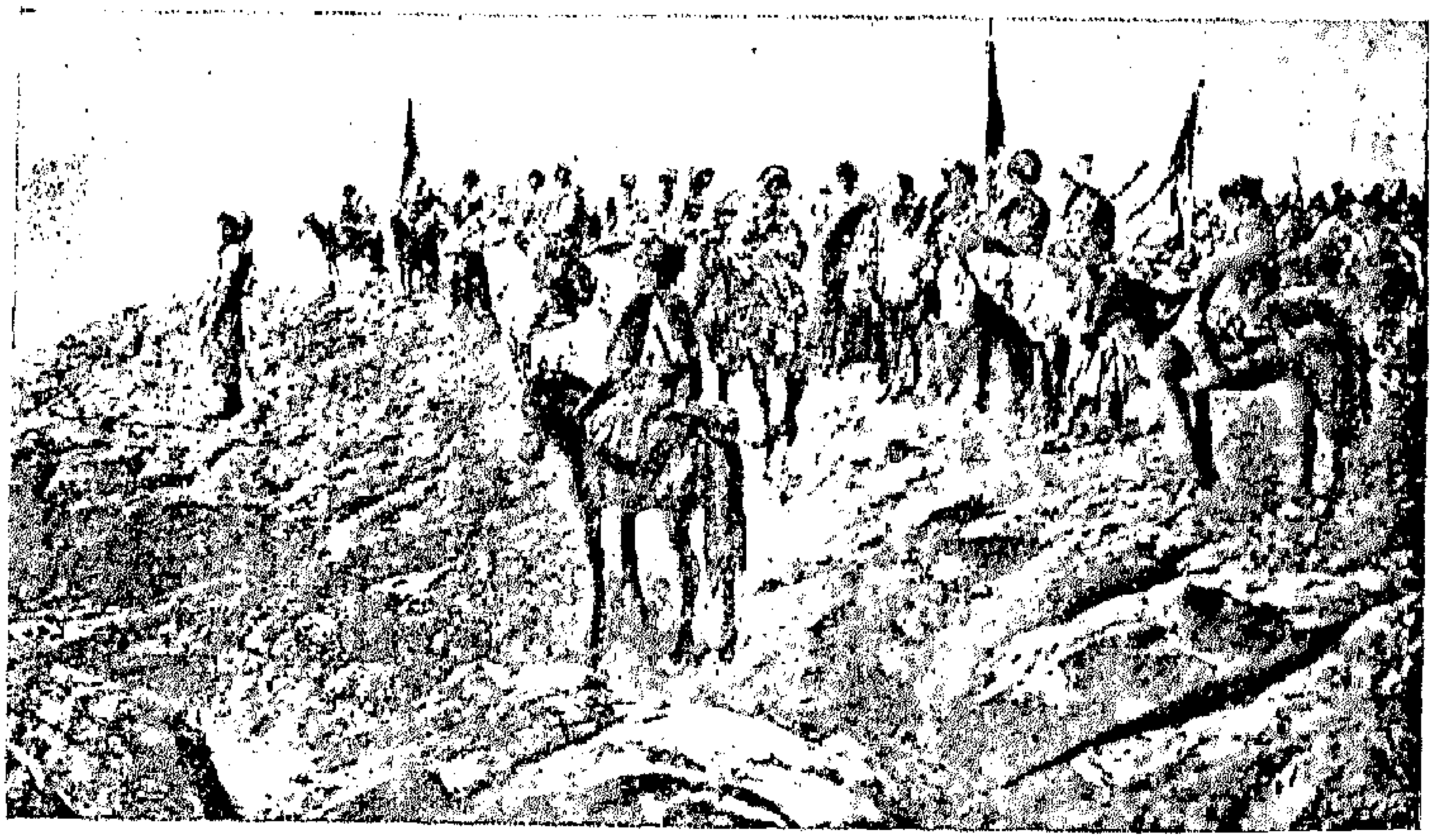
الزعيم القوقازى الشهير الأمير شامل وهو يدير معركة

فارس چركسى

ولا يألون جهداً فى مناوأتهم وعرقلة مشاريعهم وقدتوصلوا إلى ذلك فى أكثر جهات البلاد . وقد لايوجد فيها إلاالحكام والموظفون الروس الذين يديرون الحكومة .

وقد ميزتهم الروسيا فى أمر تجنيدهم فجعلت منهم جيشا من الخيالة أكثر قواده وضباطه من أمرائهم .

أما علومهم ومعارفهم فقد ظلت حيث كانت من غير تقدم ولا ترق حتى لغتهم الأصلية لم يتمكنوا من ضبطها وتدوينها .

وملابسهم وأزياؤهم وأسلحتهم هى بعينها ملابس وأزياء وأسلحة الچراكسة .

وأهالى الجهات التاخمة للقبرطاى من الداغستانيين قوم نجباء متقدون حمية على الدين الحنيف وغيرة وحماسة على وطنهم.

ويبلغ عددهم مليون نسمة .

القوموق

بلاد القوموق تقع فى الشمال الشرقى لبلاد الداغستان بجوار مصب نهر (ترك) وهى بلاد سهلية خصبة خالية من العوارض والموانع الأرضية مشهورة بحاصلاتها الزراعية

والقوموق معدودون من الشعوب الداغستانية ويتكلمون اللغة التركية (المحلية) ويظن أنهم من السلالة الطورانية .

غير أن هذا الرأى يحتاج إلى بحث وتدليل

ورغم هذا الرأى فان علماء الانسال يقولون من جهة أخرى انالقوموق يعتبرون من أهالى ققفاسيا الأصليين ولا يعلمون بالضبط تاريخ هبوطهم إلى ققفاسيا ولاتاريخ ظهورهم فيها .

ومن المعلوم أن ابتداء ورود الشعوب الطورانية التى جاءت من آسيا واستولت

على قفقاسيا كان فى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد .

ولا يوجد مايثبت صراحة أن ورودهم كان قبل ذلك .

* * *

ان الشعوب التى كان العلماء والمؤرخون الأوربيون يعدونها طورانية قد ظهر وتحقق الآن أنها جميعا من السلالة الآرية يعنى من النسل الهندى الأوروبى وبذلك أصبحت كل نظرياتهم الأولى خطأ فى خطأ .

وقد أصلحوا هذا الخطأ ونظموا كتبهم الحديثة على نظريات صحيحة وقواعد علمية باقية وأعظم برهان على صحة ما كتبوه أصول الچراكسة والجورجيين الناطقة بأنهم آريون . (Indo - Européens) .

* * *

واذا رجعنا الى ما وراء القرن العشرين أو الثلاثين قبل الميلاد نرى أن هؤلاء القوموق كانوا ضمن شعوب قفقاسيا العظيمة التى استولت على آسيا الصغرى ومابين النهرين وسوريا وما حولها وكانوا قبل ذلك شعبا كبيرا يقطنون جهات كيليكيه واطنه الشمالية .

وكانت لهم ممتلكات واسعة وحكومة عظيمة ، وظهر منهم ملوك كثيرون ، ولهم مع الأشوريين حروب عديدة. ولما اشتد الضغط على الحيثيين ومن معهم من أمم القفقاس ، وابتدؤا ينجلون ويتقهقرون من آسيا أمام أعدائهم الكثيرين الذين كانوا يستولون على البلاد ، انجلى القوموق معهم حتى انسحبوا تدريجا الى قفقاسيا . (مورجان الجزء الثانى) .

ولا يوجد دليل فنى علمى يثبت عكس هذه النظرية ويرمى الى أن القوموق الحاليين ليسوا بأحفاد هؤلاء القوموق القدماء .

بناء على ذلك يجب الحكم بأن هؤلاء القوموق وردوا قفقاسيا من زمن بعيد جداً قبل ورود واستيلاء الطورانيين ، وانهم من أمم قفقاسيا الأقدمين، وانهم من السلالة الآرية لا الطورانية .

أما سبب تكلمهم بالتركية وفقدهم لغتهم الأصلية فيرجع الى موقعهم الطبيعى الخالى من المآوى الدفاعية وقربها من الممر المشهور (دَرْبَنْدْ) ووقوعهم تحت رحمة المغيرين الفاتحين وبقاء هؤلاء الغزاة مددا طويلة ببلادهم التى تمد مفتاحا لهذا المنفذ العظيم .

وأهم الأمم التى مرت ببلادهم (السات) فى القرن التاسع قبل الميلاد (والهون) فى القرن الرابع بعد الميلاد (والبلغار والجر) فى القرن الخامس (والأواريون) فى القرن السادس (وجنكيز خان التترى) فى القرن الثالث عشر (وتيمورلنك التترى) فى القرن الرابع عشر .

فهؤلاء قوم خربوا كل عامر مروا به وجعلوا عاليها سافلها واحتلوا جهات قفقاسيا الجنوبية والشمالية الشرقية وافترشوا السهول والوديان وبقوا فيها زمنا طويلا .

أمام هؤلاء الأمم المستولية على البلاد لم يسع شعب القوموق الا أن ينسى لغته وعاداته وتقاليده بل وفقد أصله وفصله .

خصوصا اذا علمنا أن هذا الاحتلال الطورانى دام أكثر من اثنى عشر قرناً (مورجان) .

وقد تأسست لأول مرة امارة (طارق) الشامية ببلاد القوموق وكانت مدينة (طارق) القديمة عاصمة الامارة وتعرف اليوم باسم (بتروفسك) .

وهم أول من قبل الاسلام ديناً ببلاد قفقاسيا وبذلوا كثيرا من الهمة فى نشره واعلائه فلهذا أطلق عليهم لقب (القوموق الغزاة) .

ولهم استعداد عظيم للتمشي مع التمدن الحديث . فلذلك تراهم أكثر الأمم القفقاسية علماً ومعرفة . وهم جادون فى ترقية علومهم واحوالهم الاجتماعية. سائرون فى طريق المدنية من غير ضجة ولا جلبة فى بحبوحة من السعادة والرفاهية .

وقد تركوا أزياءهم القديمة وظهروا بأحدث الملابس العصرية الحديثة .

الخاتمة

أرجو أن أكون قد اخرجت الى عالم المطبوعات أثراً ومرآة يصوران حقيقة أمم قفقاسيا، خصوصا الچراكسة الذين يعتبرون بحق أنهم أصدق مثال للنسل البشرى ولعلى شيدت بتأليف هذا الكتاب فكرة عامة عن هذه الشعوب الكريمة أصولهم ، وعن مفاخرهم الماضية وتقاليدهم القومية . وعسى أن أكون قد أزحت الستار عما توارى من احدى تلك المدنيات العظيمة التى كانت مجهولة فى طيات التاريخ .

وانى أعترف صراحة بعجزى وتقصيرى، وأقرر أن هذا الكتاب لم يكن تاما بالمعنى المراد وما هو الا دليل ونبراس لمن يتفضل ويكتب عن تاريخ هذه الأمم فى المستقبل ان شاء الله .

وانى أقدم الثناء الجميل لحضرة الأديب الفاضل (ساغوه نورى بك) سكرتير« جمعية التعاون الچركسى » بأستنبول ، الذى عاوننى معاونة كبرى فى وضع الكتاب وطبعه واظهاره .

البدء فى الترجمة كان يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٣ . والانتهاء كان يوم ٢٧ يونية سنة ١٩٣٣ . والحمد لله رب العالمين .

عبد الحميد غالب

إصــــلاح واستدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٢	الروسيا «خطأ تكرر في مواضع»	روسيا
٨	١	الشمالية	الجنوبية
٨	٢	الجنوبية	الشمالية
١٣	١	التفاى	النغاى
١٦	٨	وروان ، وايرا وستبول	واريفان (أرَّان) ، وليزا ستبول
٧١	١	سا	هنا
٨٩	١٥	منتشرين	منتشران
١٤١	٥	صفوجق	صغوجق
١٥٧	٢٠	اوبيخ	اوبيخ
١٧٠	١٤	دار	دارتى
١٧٥	٦	پشى لأ	پشى لْ
١٧٥	٥	لحو قوَالْ	فقوُلْ « بامالة الضمة الى الفتحة»
١٧٦	١١	»	» »
١٨٧	٣،٨	اللخو قوُهلْ	» »
٢١٢	٥	السابقه النصرانية	السابقة على النصرانية

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢١٤	٦	قوروش	قودش (بمعنى الشجر المقدس أخذاً من العبرية لأن السين فى العربية شين فى العبرية)
٦٥	٢١		« بل توسعوا وأطلقوا لفظ (قبق) على كل أمير فى القفقاس له جنود مدربة على الرمى . قال صاحب كشف الظنون فى جهانما (دليل العالم) : تاجركس أحد عشر قبقاً ـ والمراد بالقبق الأمير ـ قمان ، وتمرك ، وجغا كا وهم حربيون (كفار) وجانا كبير ، وجانا صغير ، وبوزه دوق ، وحاتوقاى ، وبولتقاى ، وبسنى ، وقبرطاى ، وهم مسلمون . راجع (ص٣٠١—٣٠٦) من جهانما طبع الآستانة سنة ١١٤٦ هـ » .